

الدكتور عمر الدقاق

ملامح الشعر الأندلسي

منشورات
دار الشرق
بيروت



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملامح الشعر الأندلسي

١٩٧٥

الدكتور عمر الدقاق

ملامح الشعر الأندلسي

منشورات
دار الشرق
بيروت



مقدمة

لم تكن عناصر النهضة الفكرية واليقظة القوميـة التي انبثقت في الشرق العربي في حقيقـة أمرهـا إلا حركة بعث واحياء ، بعث للعز السالف واحياء للتراث الغابر ، شأنها في ذلك شأن النهضة الأوروبيـة نفسها التي شيدت على مثل هـذا الأساس الشعوري . ومن طبيعة الأمم أنها في فترات يقظتهـا تلوذ بأكناف ماضيهـا المجيـد ، وتعيش على نشوة ذكرياتهـا الغابرة . وقـد قيض للعرب ماض زاهر وتراث حافل وحضارة عريقـة بوأتهم مكانة مرموقة بـين الأمم في تاريخ الانسانية .

أما الاندلس فقد غـدا لهـا في قلوب الأجيال العربيـة الحديثـة مكانة مرموقة ، قوامها الإعجاب بحضارتها ، والاجـلال لتراثها ، والزهو بتاريخهـا . وما زالت عواطف النفوس ترفد هذا الواقع التاريخي وتوشيه بهالة من الحب الذي يكاد يبلغ التقديس . ولعل مشاعر اللوعة والحسرة الـتي انطوت عليهـا جوانح العرب بفقدهم تلك الدرة التي تدحرجت من تاج عزتهم هي العامل الأول في انبثاق تلك العواطف الجياشة الـتي تفيض بهـا نفوس العرب بمجرد أن تصافح أسماعهم كلمة الأندلس ذلك الفردوس المفقود .

ومع ذلك ظل الجانب العاطفي طاغياً على النفوس أمداً طويلاً دون أن يترجم إلى عمل علمي جاد يدأب في خدمة التراث العربي في الأندلس ويستجلي ذخائره ، ويبعثه من مرقده . وكان نبهاء الغرب من المستشرقين سباقين إلى هذا الفضل من مثل دوزي وريبيرا وبالانثيا وبروفنسال ونيكل وكراتشكوفسكي ولين بول وغوميس ...

ثم لم يلبث الدارسون العرب أن بادروا إلى المكتبة الأندلسية يولونها عنايتهم ، فينشرون نفائسها ويبحثون في تراثها ، حتى غدا ما نجده اليوم بين أيدينا يدعو إلى الاستبشار ويبعث على التفاؤل . ولست أطمح إلى شيء أبعد من أن أكون واحداً في عداد هذه الكتيبة العاملة ، وأن أوفق إلى وضع لبنة متواضعة في صرح المكتبة الأندلسية الأثيرة إلى نفسي ، راجياً في الوقت نفسه أن يغدو كتابي هذا ـ وهو ما حاضرت به طلابي في كلية الآداب ـ سائغاً للدارسين ومحبي أدبنا الأندلسي لعلهم يجدون فيه ما يلائم المناهج الدراسية المقررة ، ويتفق مع الإطار المناسب للبحوث الجامعية المنشودة . والله الموفق

جامعة حلب

ايلول ١٩٧٤ — عمر الدقاق

بلاد الأندلس

الارض والبيئة

بـلاد الأندلس ، أو إيبيريا ، شبه جزيرة في أقصى الجنوب الغربي من أوربا . تتصل براً بالقارة الاوربية من جهة الشمال الشرقي حيث تحجزها عن فرنسة جبال البيرينه (البرانس) الوعرة . أما سائر الجهات فتحدق بها مياه البحار ، فمن الشرق بحر الروم أي الأبيض المتوسط ، ومن الغرب بحر الظلمات أي المحيط الاطلسي ، ومن الجنوب مزيج من مياه البحر الأبيض والأطلسي ، أو ما كان العرب يطلقون عليـه اسم بحر الزقاق ، والذي عرف باسم مضيق جبل طارق منـذ الفتح العربي حتى يومنا هـذا ، ومن ورائه الـبر الافريقي . وتكاد جزيرة الأندلس تلاصق هذا البر الافريقي لولا ذاك المضيق الذي يفصل بـين القارتين والذي لا يتجاوز في بعض شواطئـه المتقابـلة نحـو خمسة عشـر كيلو متراً .

وتخترق بـلاد الأندلس أنهار عـديدة أهمهـا نهر الوادي الكبير (غواد لكفير) الذي يمر بقرطبة ثم يخترق اشبيلية ويمضي غرباً حتى يصب في المحيط الأطلسي ، ويليه في الشمال نهر وادي يانه (غواديانا) ثم نهر التاجـُه (التاخو)

وفي أقصى الشمال نهر دُويرُه (دويرو) . وكل هـذه الأنهار تنحدر من هضبة الأندلس الوسطى لتصب في الأطلسي . ومن أنهار شرقي الأندلس نهر شُقْر الذي يمـر بمدينـة شقر ، ونهر إبرو الذي يمـر بسرقسطـة ، والوادي الأبيض الذي يمر بمدينة بلنسية . وجميع هذه الأنهار في منطقة شرقي الأندلس تصب في البحر الأبيض المتوسط .

على أن ثمة مناطق واسعة في أواسط الأندلس قاسية المناخ بسبب بعدها عن البحر ، فهي عاصفة مثلجة شتاء وحارة جافة صيفاً . وأكثر هـذه الربوع التي تحيط بمدينة مجريط (مدريد) هضاب قاحلة شحيحة المياه . ومثل هـذا التفاوت في طبيعـة الأرض والمناخ أمر طبيعي في بـلاد واسـعة تتصل شمالاً بأوربة وجنوباً بأفريقية . ومن هنا كان ابن بسام مدركاً لأحـوال بـلاده الجغرافية وتفاوت أقاليمها في المناخ حين جعـل الأندلس في كتابه « الذخيرة » ثلاث مناطق يصدر فيها الشعراء في نتاجهم على حسب بيئاتهـم من شرق ووسط وغرب .

على أن العرب قـد تركزوا في جنوبي البـلاد معظم حقبـة وجودهم في الأندلس ، ثم في السهول الشرقية والغربية منها . وهذه أكثر ربوع الأندلس خصباً وأحفلها عطاء . ومن هنا كانت صورة تلك البـلاد الـتي قدمهـا العرب وبخاصـة الشعراء والكتاب زاهيـة فاتنـة تتجلى خلالها الأندلس وكأنها أرض السحر وقطعة من الجنـة . ولا ريب في أن هذه الربوع كانت من أنضر البقاع الاسلامية التي استوطنها الفاتحون العرب . ومما أورده ابن سعيد المغربي في كتابه « المغرب في حلى المغرب » قوله : « ميزان وصـف الأندلس أنهـا

جزيرة قد أحدقت بها البحار . فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة . فتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع » . وقال ابن اليسع [1] إنه « لا يتزود فيها أحد ماء حيث سلك ، لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقي المسافر فيها اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى . وهي بطاح خضر وقصور بيض » ومن هذا القبيل وصف كثير مدبج لأصحاب كتب : الإحاطة والذخيرة وقلائد العقيان ونفح الطيب ..

كذلك أطنب الشعراء في وصف جمال تلك البلاد وتصوير سهولها المرعة وحدائقها الغناء ومياهها الدافقة وثمارها اليانعة وأطيارها الصادحة . ومما تغنى به ابن خفاجة قوله :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت ، هذي كنت أختار

وإذا كان المرء إلى حد كبير ابن بيئته ، فقد كان لمناخ هذه البلاد وطبيعتها تأثير جلي في طباع أهلها وأمزجتهم وميولهم ونزعاتهم وطرق عيشهم ، وبالتالي في فنونهم وآدابهم ومختلف ألوان نشاطهم وابداعهم ..

التاريخ والسكان

واسم « الأندلس » لفظ قديم بعثه الفاتحون العرب وأطلقوه على تلك الربوع . وهو يقابل ما اصطلح المستشرقون على تسميته باسبانيا المسلمة . وكانت أقدم تسمية عرفتها شبه الجزيرة في غابر عهودها هي « ايبريا » نسبة

(١) تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ٧٩٧

إلى الايبريين الذين كانوا أقدم الأقوام التي سكنت هذه البقاع . ثم اختلط السلتيون بالايبريين في تلك الحقبة القديمة وتكون منهما على مر العصور مع بعض العناصر الأخرى الشعب الاسباني الذي واجهه المسلمون يوم الفتح العربي .

وقد وصل الفينيقيون إلى شواطىء ايبريا الجنوبية قبل الميلاد بأحد عشر قرناً ، واستوطنوا بعض أقاليمها ، وتاجروا معها ، حتى إنهم عمروا البلدان وأسسوا المدائن جنوبي البلاد مما لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم مثل مدينة قادس [1] .

ثم جاء الاغريق في القرن السابع قبل الميلاد أي بعد أربعة قرون من الوجود الفينيقي هناك وأقاموا في بعض الجهات الشرقية وأنشؤوا أيضاً عدداً من المدن ما زال بعضها ماثلاً إلى الآن كمدينة برشلونة .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد نزل القرطاجنيون المبحرون من شمال أفريقية (قرب تونس) تلك البلاد وأسسوا فيها بعض المدن التي كان أبرزها قرطاجنة وهو اسم دولتهم أطلقوه مجدداً على مدينتهم الجديدة .

وحوالي القرن الثاني قبل الميلاد اجتاح الرومان بلاد ايبريا بعد انتصارهم على دولة قرطاجنة وأصبحت البلاد تابعة لامبراطوريتهم الواسعة . وقد دام حكم الرومان نحو سبعة قرون كان لها أثر بعيد في ترك مياسمهم على البلاد ، وكان من نتائج هذه الحقبة سيادة لغتهم الرومانية ثم عقيدتهم المسيحية . وقد بقي هذا طابع السكان حتى الفتح العربي .

وفي أوائل القرن الخامس للميلاد بدأت أرجال القبائل الجرمانية الشمالية

---

(١) انظر الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٣

تنهش جسم الامبراطورية الرومانية ومنها قبائل الفاندال أو الواندال ، فأغارت على البلاد واستخلصتها من الرومان فعرفت المناطق التي بلغتها في جنوب البلاد باسم فانداليسيا أو وانداليسيا نسبة إلى اسمهم .

ولم تلبث موجة أخرى من قبائل الجرمان تعرف بقبائل القوط أن اجتاحت البلاد وأجلت عنها الفاندال ، واتخذت طليطلة عاصمة لمملكتها التي قويت واشتد بأسها أول الأمر . ولكن الفساد سرعان ما دب فيها بعد أن استبد حكامها بالسكان الاسبان وتصارعوا على المغانم متحالفين فى ذلك مع الاقطاع ورجال الدين .. فغدت النقمة عليهم شاملة ولم يعد بعسير على العرب بعدئذ أن يطيحوا بهذا الحكم الفاسد والدولة المنهارة بعد أن أطالت إذلال الشعب وإرهاقه .

وقد أبقى العرب على اسم الفاندالس (الأندلس) أو بعثوه قاصدين به شبه جزيرة ايبريا كلها ، ولكنهم في أحقاب متأخرة من حكمهم اسبانيا كانوا يطلقون اسم الأندلس على الجزء الجنوبي من البلاد كما كان العهد به كذلك منذ أيام الفاندال . وقد حافظ الاسبان على مدلول هذه التسمية حتى بعد خروج العرب من البلاد وأخذوا يطلقون كلمة أندلثيا على جنوب شبه الجزيرة .

الفتح

فتح العرب المغرب الافريقي على مراحل كانت خلالها الغزوات العربية بين مد وجزر منذ الحملة الرائدة بقيادة عقبة بن نافع . ثم أخذ موسى بن نصير وهو من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم يتطلع إلى ما وراء بحر الزقاق حيث تقع مملكة القوط المتصدعة ، ولكنه كان شديد الانهاك في شؤون

أفريقيـة المضطربة ، فعاد إلى القيروان مخلفاً على منطقـة المغرب الأقصى زعيم الجند طارق بن زياد . وكان طارق يطمح - فيما يبدو - إلى اقتحام حصن سبتة المنيع الذي استعصى فتحه على قائدين من قادة العرب هما عقبة بن نافع وموسى بن نصير .

وهنا يبرز شخص اسمه يليان على نحـو غريب ومفاجىء ، وكان حاكماً لمدينـة سبتة الافريقية القريبة من طنجة ، وكانت هـذه المنطقـة تابعة للدولة البيزنطية [1] لا لاسبانيا القوطية ، وإن كان يليان يحكمها بصورة تكاد تجعـله مستقلاً بها .

وحدث في تلك الايام أن ثار القائد لذريق على غيطشة ملك اسبانيا فقتله وشـرد أبناءه ثم تربع على عرشه في طليطلة . وكان غيطشة حليفـاً وصـديقاً ليوليان ، فعبر يوليان البحر لمساعدته ، ولكـن جيش لذريق رده ، فعاد إلى سبته وتحصن بها . ويبدو أنه شعر عندئذ بحرج موقفه ، كما أحس في الوقت نفسه بخطر العرب الرابضين على مقربة منه فأخذ يتقرب من قادتهم ، واتصلت المودة بينه وبين جاره طارق بن زياد أمير طنجة .

ثم بدأ يوليان يزين لموسى وطارق غزو الاندلس أملاً في الاطاحة بعدوه لذريق . وربما كان يرمي إلى مساعدة أبناء غيطشة لاستعادة ملك أبيهم ، ولعله كان يتوقـع حملة عربية محدودة غـير متوغلة يعود بعـدها العرب إلى أفريقيـا مكتفين بما يحصلون عليـه من غنائم . ولا يبعـد أن يكون هـذا الافتراض صحيحـاً لأن العرب لم يكونوا آنئذ يفكرون بصورة جـدية في تجاوز الـبر

(١) فجر الاندلس ، د . حسين مؤنس ٥٤

الافريقي وفتح أمصار جـديدة . ومما يرجح ذلك أن جيش الفتح نفسه كان ضئيل العدد بقيادة طارق[1] وأن الحملة لم تحدث إلا بعد اغراء ملح من يوليان .

ومهما يكن من أمر فقـد عبر طريف ـ أحد أعوان طارق من رجال موسى بن نصير ـ المضيق بكتيبة عربيـة صغيرة بحراً على بضع سفن قدمها يوليان ، ونزل في مكان قريب على الشاطئ الأوربي يشبه الجزيرة عرف بعد ذلك باسـمه حتى اليوم Tarifa . ثم عادت السرية لتطمئن موسـى وتقـوي من اعتزامـه على فتح ايبريا . وفي العام التالي أي في سـنة ٩٢ هـ ـ ٧١١ م أمر موسى جنده بقيادة طارق بالعبور ، وكان عددهم ٧ آلاف رجل . وقد استعان طارق بسفن يوليان وأدلائه ، ونزل في مكان دان عرف أيضاً باسمه منذ ذلك الحين « جبل طارق » .

واستطاعت كتائب العرب دحر الحاميات القوطية بيسر . وعندئذ هب لذريق لملاقاتهم ، وحدثت بين الجيشين معركة « وادي بكة » التاريخية وكانت فاصلة غدت بعدها أبواب البلاد مفتحة أمام العرب . وهذا الظفر المبين أغرى طارقاً بالتوغل كما شجع موسى على انجاد طارق بمزيد من الجند والمبادرة بنفسه إلى استكمال فتح بلاد الاسبان .

---

(١) فجر الأندلس ، د . حسين مؤنس ٥٧

الوجود العربي

دام حكم العرب في الأندلس نحواً من ثمانية قرون كانت قوتهم خلالها بين مد وجزر وقوة وضعف ، حتى تفككت أوصالهم واستطاع الاسبان آخر الأمر استرجاع بلادهم . وكان ذلك بين سنة ٩٢ هـ وحتى سنة ٨٩٨ هـ أي (٧١١ ـ ١٤٩٢ م) .

وقد درج المؤرخون على تقسيم هذه الحقبة المديدة إلى عهود تابعة للمراحل السياسيه السائدة ، أي ضمن اطار العصور التاريخية . وذلك على النحو الآتي :

عهد الولاة : (٩٢ـ١٣٨ هـ ، ٧١١ ـ ٧٥٥ م)

هذا العهد هو عهد الفتح ، ويبدأ بانتصار طارق على لذريق في معركة وادي بكة ثم بدخول موسى بن نصير إلى اسبانيا وتولي ابنه عبد العزيز ولاية الأندلس من قبله . وكان الولاة في هذه المرحلة المضطربة يعينون من قبل الخليفة الأموي في دمشق ، أو من قبل والي افريقية في القيروان . وفي هذه المرحلة توغل العرب الفاتحون في سائر بلاد اسبانيا ثم تجاوزوا البلاد إلى فرنسة نفسها . وقد بلغوا بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي شواطىء الرون ووصلوا إلى مدينة ليون ومضوا بعدها إلى تور . وهناك وقبل أن يعبروا

اللوار تصدى لهم شارل مارتل على رأس جيش كبير واستطاع أن يوقف زحفهم ويردهم على أعقابهم سنة ١١٤ هـ ، ٧٣٢ م وذلك في اثر معركة فاصلة جرت في سهل بواتييه التي يسميها العرب بلاط الشهداء ، وقد قتل فيها الغافقي نفسه قائد الحملة .

وفي عهد الولاة حدث شقاق بين المسلمين أنفسهم بالإضافة إلى نكستهم تجاه جيوش النصارى في الشمال . إذ شبت ثورات عديدة قام بها البربر ضد العرب . كما استشرت العصبية القبلية بين رؤوس العرب فيما بينهم ، وكان الصراع بين القيسية واليمانية مريراً كاد يؤدي إلى ضياع الأندلس . وإذا كان العرب في هذه المرحلة قد استطاعوا الاحتفاظ بالبلاد التي فتحوها فان ذلك لا يعود إلى قوتهم بقدر ما يعود إلى ضعف عدوهم .

العهد الأموي : (١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ ، ٧٥٥ ـ ١٠٣٠ م)

وينقسم هذا العهد تاريخياً إلى مرحلتين : الأولى تعرف باسم عهد الامارة ، والثانية عهد الخلافة . والمرحلتان معاً تمثلان قيام الدولة الأموية في الأندلس التي كانت قرطبة عاصمة لها ، وذلك كبديل عن الدولة الأموية التي انهارت في دمشق قبل بضعة أعوام .

وتدخل الأندلس العربية آنئذ في طور جديد بعد نجاح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان الملقب بالداخل في تسلم زمام الأمور واستخلاص الملك لذريته . وكان قد كتبت له النجاة من بطش العباسيين ، وظل زهاء أربع سنوات متخفياً يعاني الأمرين . ثم أخذ نجمه يلتمع في المغرب بعد أن التف حوله نفر من بني أخواله البربر وعشيرة أمه في نفزة القريبة من سبتة .

واستطاع الداخل تحقيق نصر حاسم على يوسف الفهري آخر والٍ في الأندلس تابع إلى المشرق في أوائل العهد العباسي . وقد لقب بالداخل لدخوله الأندلس وظفره على حكامها على ذلك النحو الباهر .

كما لقبه معاصره وعدوه أبو جعفر المنصور بصقر قريش إعجاباً به . ثم بادر الداخل إلى قطع الخطبة عن خلفاء الدولة العباسية . وكان عهده عهد كفاح مرير في سبيل توطيد ملكه ونشر الاستقرار في ربوع الدولة الوليدة . وقد خاض حروباً كثيرة ضد الاسبان المسيحيين الذين كانوا يكرون على البلاد كلما واتتهم الظروف ، كما تصدى لسائر الافرنج في الشمال وفي سفوح جبال البرانس حتى أفلح آخر الأمر في تأمين الحدود واعادة الطمأنينة إلى النفوس ، وبخاصة بعد أن دحر جيش شارلمان وفتح سرقسطه [1] .

وكان من أهم ما حققه الداخل من منجزات سياسية باهرة على الصعيد الداخلي تمكنه من القضاء على الرؤوس المتمردة التي كانت تمثل العصبية القبلية الذميمة . كما أفلح الداخل في أن يستأصل أسباب النزاع بين العرب والبربر ، وبذلك توحدت الصفوف وتألفت القلوب .

ومن أهم ما تحقق في هذه المرحلة من عهد الامارة ظفر الحكم بن هشام على خصومه في الداخل إثر وقعة الربض في قرطبة ، حين قامت فتنة هوجاء أذكاها التعصب الديني لبعض المسلمين ، فحاصروا القصر الأموي

(١) كان من نتائج هذه الحروب بين جيش الداخل وجيش شارلمان في شمال الأندلس ما نظمه بعض شعراء الافرنج المجهولين للملحمة الأدبية المشهورة « أنشودة رولان » التي تمجد بطولة الفارس رولان ورفاقه من أعوان شارلمان وقادته .

وكانوا ينجحون في الإطاحة بحكم بني أمية لولا رباطة جأش الحكم ولجوؤه إلى الخدعة حين أنفذ إلى مساكن الثائرين في الربض بضاحية قرطبة من يشعل النيران في مساكنهم ، وعندئذ انتابهم الذعر وعمتهم الفوضى ، فتمكن منهم الحكم واستأصل شأفتهم ، وكان نصراً مبيناً لهجت به ألسنة الشعراء .

وحين بلغت الدولة الأموية أوج قوتها بعد ذلك عندما تسلم عبد الرحمن الناصر شؤون الحكم في فجر القرن الرابع الهجري (٣٠٠ـ٣٥٠ هـ) أعلن الناصر نفسه خليفة في سنة ٣١٧ هـ ، وكان أمراء بني أمية من قبل يتهيبون هذه الخطوة تحرجاً من وجود خليفتين معاً للمسلمين . غير أن قوة الدولة الأموية في الأندلس وما كانت تبلغ مسامع الناصر من أخبار ضعف خلفاء بني العباس .. كل ذلك جعل اعلان الخلافة في الأندلس أمراً معقولاً .

وقد خاض الناصر حروباً عديدة مع الافرنج في الشمال كان النصر خلالها حليفه ، فهابته الملوك وقدمت اليه وفود من القسطنطينية وفرنسا وايطاليا والمانيا تعرب عن ودها له ، وتعرض صداقتها عليه .

وقد خلف الناصر في حكم الأندلس ابنه الحكم (٣٥٠ـ٣٦٦ هـ) وكان عصره امتداداً لعصر أبيه من حيث القوة والمنعة ، ومن حيث التقدم والازدهار . وكان الحكم محباً للمعرفة باراً بالعلماء والأدباء ، وقد تتلمذ على أبي القالي ، كما أغنى مكتبة قرطبة بالمصنفات الكثيرة مستقدماً إياها من المشرق وأفريقية ، حتى امتلأت فيها الخزائن بنفائس المخطوطات ، مما جعل قرطبة بحق مركزاً حضارياً بارزاً يضارع بغداد نفسها .

وقد استبد بشؤون الخلافة بعد موت الحكم حاجبه المنصور مستغلاً

صغر سن ولي العهد وثقة أمه صبح زوجة الحكم . غير أنه كان على قدر كبير من الذكاء والحزم ، فاستطاع أن يحكم الأندلس بنجاح بعد أن أخضع الفرنجة وأقصاهم عن تخوم البلاد . ويعد آخر حلقة في سلسلة الحكام الأقوياء في دولة بني أمية . ثم أخذ نجم الأمويين في الأفول تبعاً لضعف خلفائهم ، حتى انتهى الأمر بخلع آخرهم هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ ، ١٠٣١ م .

عهد الطوائف : (٤٠٣ ـ ٥٣٦ هـ ، ١٠١٢ ـ ١١٤١ م)

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بني أمية على الأقاليم أخذ بعض الولاة الطامعين يستقلون بمناطقهم ويحكمونها حكماً مباشراً . وقد عرف هؤلاء في التاريخ بملوك الطوائف . وأكثر دويلاتهم اتخذت من حواضر الأندلس ومدنها الهامة عواصم لها . ومن أهم هذه الدويلات :

الدولة الزيرية ، وقامت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ وذلك قبل سقوط الخلافة الأموية وخلع خليفتها سنة ٤٢٢ هـ . وهي دويلة أقامها البربر ودامت ثمانين عاماً : (٤٠٣ ـ ٤٨٣ هـ) .

الدولة الحمودية ، وتنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء . وهي دولة شيعية من المغرب ، ودامت بضعة وأربعين عاماً ٤٠٧ ـ ٤٥٠ هـ .

الدولة الهودية ، وقامت في سرقسطة سنة ٤١٠ هـ واستمرت باقية حتى سنة ٥٣٦ هـ وهي دولة عربية ، أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتمن .

الدولة العامرية ، وقامت في بلنسية خلال السنوات ٤١٢ ـ ٤٧٨ هـ ، وكان حكامها من موالي بني عامر .

الدولة العبادية ، وقامت في اشبيلية خلال ٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ وهي عربية

ينحدر حكامها من اللخميين من ولد المناذرة .

دولة بني الأفطس ، وقامت في بطليوس خلال ٤٢١ ـ ٤٨٧ هـ وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .

الدولة الجهورية ، وقامت في قرطبة في اثر خلع الخليفة الأموي ، واقتصرت فترة وجودها من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ وحكمها آل جهور من أعيان قرطبة .

دولة ذي النون ، وقامت في طليطلة . عاشت ستين سنة بين ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ وهي دولة بربرية كان حكامها من قبائل هوارة .

وكان عهد الطوائف الذي امتد أكثر من قرن ونصف عهد تفكك سياسي وصراع على السلطة عانت خلاله الأندلس من وطأة التجزئة ونزوات الحكام ، ولم يتورع بعض رجالها عن الاستعانة بملوك الفرنجة لضرب خصومهم من بني قومهم ، فكان في ذلك وصمة للحكم العربي . وفي ذلك الحال المزري من التجزئة والزعامات يقول الشاعر أبو بكر بن عمار :

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

على أن ما حدث في المشرق أثناء ضعف الخلافة العباسية من ازدهار الفكر والأدب في ظل آل بويه والحمدانيين والاخشيديين .. حدث أيضاً في الأندلس ، وذلك تبعاً لتنافس تلك الزعامات المتعددة على تقريب الكتاب والشعراء ورعاية الفلاسفة والعلماء .

دولة المرابطين : (٤٤٥ ـ ٥٤٢ هـ ، ١٠٥٣ ـ ١١٤٧ م)

ينحدر حكامها من قبائل صنهاجة البربرية في المغرب ، ويعرفون أيضاً بالملثمين لما جروا عليه من وضع اللثام على وجوههم . وكلمة المرابطين مستمدة من الرباط وهو مركز تجمع المسلمين للجهاد .. وزعيمهم عبد الله بن ياسين رجل مغربي كان فقيهاً شديد التدين ، وحين كثر أصحابه ومريدوه نادى بالجهاد في أفريقيا . وقد تأسست دولة المرابطين بالمغرب في أواخر القرن الخامس الهجري ، وبلغت أوج قوتها وامتدادها على يد يوسف بن تاشفين .

وفي هذه الحقبة ، أي في أواخر عهد الطوائف بالأندلس ، آل أمر المسلمين إلى ضعف بالغ مما أطمع فيهم ملوك الاسبان والفرنجة . وكان الفونس السادس حاكم قشتالة قد توغل في البلاد وعاث فيها فساداً وفتك بأهلها . وعندئذ استنجد الأندلسيون بابن تاشفين وكتب اليه المعتمد بن عباد يدعوه إلى انقاذ الأندلس . وسرعان ما أنجدهم بنفسه على رأس جيش من قبائل زنانة ومصمودة البربرية وحقق نصراً مبيناً على الافرنج في معركة الزلاقة سنة ٣٧٩ هـ ، ١٠٨٦ م . واكتفى يوسف بما حققه من نصر وعاد إلى أفريقية . وبعد ثلاث سنوات عاود الفرنجة هجومهم على مدن الأندلس فاستنجد المعتمد ثانية بابن تاشفين ، فلبي النداء وأعاد الأمن إلى الأندلس . ولكنه في هذه المرة استطاب العيش في تلك الربوع الجميلة فاستخلص الحكم لنفسه ونفى المعتمد بن عباد وأسرته إلى أغمات بأفريقية . وقد توحدت الأندلس مجدداً في هذه الحقبة بعد أن قضي على تعدد دويلات الطوائف . غير أن بعض حكام المرابطين كانوا يتصفون بالتعصب الديني فازدادت في عهدهم سلطة الفقهاء وساد

الارهاب والتزمت وخنقت حرية الفكر وكسدت سوق الأدب والشعر . وقد دام حكمهم في الأندلس نحو ستين سنة [1] .

دولة الموحدين : (٥٢٤ ـ ٦٦٧ هـ ، ١١٣٠ ـ ١٢٦٨ م)

برز في أفريقية فقيه ورع من قبيلة مصمودة من بربر أفريقية ، اسمه محمد بن تومرت . وقد نحا منحى متشدداً في عقيدته ولقب نفسه بالموحد ، ثم كثر صحبه ومريدوه فتصدى للمرابطين فغلبهم . ثم تولى الأمور من بعده صفيه عبد المؤمن بن علي وبايعه أصحابه بالخلافة ، ردانت له أفريقية والأندلس .

وعلى الرغم من اهتمام الموحدين بتطبيق الشريعة وتمسكهم بأمور الدين فقد كانوا أكثر ميلاً من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأكثر انفتاحاً على عالم الفكر والمعرفة . وفي عهدهم ذاع أمر ابن طفيل وابن رشد . ودام ملكهم مائة وبضعة وثلاثين عاماً ، حين نجح الاسبان النصارى في اخراجهم من البلاد ، وتم بذلك استردادهم لكثير من بقاع الأندلس .

دولة بني الأحمر : (٦٢٩ ـ ٨٩٨ هـ ، ١٢٣١ ـ ١٤٩٢ م)

لم يبق في يد العرب من الأندلس إلا بقعة صغيرة في الجنوب حكمها ابن الأحمر وأحفاده متخذين من غرناطة عاصمة لدولتهم الصغيرة . ومع ذلك استطاعت هذه الدويلة أن تعيش نحو قرنين ونصف من الزمان مستفيدة من صراع الفرنجة فيما بينهم . ومع ذلك صمدت مرات عديدة لغزواتهم معتمدة على نفسها حيناً ، ومستغيثة بأمراء المغرب أحياناً أخرى .

---

(١) جانب من هذه المعلومات التاريخية مستمد من كتاب أدباء العرب لبطرس البستاني .

وفي عام ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م غزا فرديناند وايزابيلا غرناطة واستطاعا فتحها بعد حصار مرير استبسلت خلاله حاميتها ، فسقط بسقوطها آخر معقل للعروبة والإسلام في تلك الربوع . وقد تمت تلك المأساة في عهد أبي عبد الله الصغير الذي سلم مفاتيح قصور الحمراء إلي الغالبين نتيجة معاهدة أبرمها معه فرديناند ، ولكنه لم يحترمها . ولم يكن أمام أبي عبد الله سوى أن يرحل إلى الأبد عن ذلك الفردوس المفقود نحو منفاه ، ثم إلى فاس بأفريقية . وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع أسى ولوعة عندما ألقى نظرة الوداع نحو قباب الحمراء في غرناطة . ويقال إن أمه عائشة خاطبتها بكلماتها السائرة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وما زال هذا الموضع يعرف حتى اليوم باسم زفرة المغربي [1] .

وهكذا ، وبعد ثمانية قرون كاملة من عز العرب في الأندلس كانت النهاية ، النهاية المريرة ، وعادت البلاد إلى أهلها . . .

وصار ما كان من مُلْك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسنان

(١) انظر كتاب : في الأدب الأندلسي ، د . جودت الركابي ٣١

معالم الحياة الثقافية

مرت بواكير الشعر الأندلسي في طور تكون غامض غير واضح المعالم، « وقد تم هذا التطور وسط المنازعات والحروب التي صاحبت نشوء المجتمع الأندلسي الذي كان يتهيأ إذ ذاك للخروج إلى النور .. ولقد كان الشعر العربي في الأندلس في ذلك الحين صدى خافتاً لما كان يتردد في جوانب المشرق القصي من شعر »[1] . ثم ما لبثت أصول هذا الشعر أن ثبتت في التربة الأندلسية بفضل ما أولاه إياه بعض أمراء بني أمية وكبرائها ممن كانوا ينفسون بالشعر عما يثقل صدورهم من هموم ، ويتغنون بما حققته عزائمهم من أعمال ، ويستجيبون لما يجيش في نفوسهم من منازع الحب أو الحنين .

وفادة المشارقة

على أن ما يشوق دارس هذه الفترة هو تتبع سلسلة الوافدين من أهل المشرق على الأندلس ، وكانوا في معظمهم من العلماء والمتنورين الذين كانت تشوقهم نهضة الأندلس وإقبال مجتمعها على الحياة الجديدة ، على حين كانت موجات المهاجرة السابقة ، في مرحلة الفتح وما تلاها ، لا تكاد تضم غير

---

(١) الشعر الأندلسي ، تأليف غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس ، ص ٣٠

الجنود والمغامرين في أكثر الأحيان . ومن هنا أخذت الأندلس بعدئذ تستقبل هؤلاء الوافدين بما كانوا يحملونه من ضروب العلم والفن والحضارة . حتى لقد غدا هـذا الأمر يشكل ظاهرة من ظواهر الحياة العلمية والأدبيـة والفنّية في الأندلس ، أخذ العديد من مؤلفيها ومصنفي كتب التراجم فيها يخصون هؤلاء المشارقة أو المغاربة الذين كانوا يفدون إلى الأندلس بعنايتهم . وقد خصص ابن بسام في كتابه « الذخيرة في محاسن أهـل الجزيرة » فصلاً للملمين بالأندلس والطارئين عليها ، كما عني بذلك مؤرخون ومصنفون آخرون ، منهم المقري في كتابه « نفح الطيب » ..

والحق إنها لظاهرة هامة أن تضم ربوع الأندلس سفراء الثقافة المشرقية كذلك - كما يقول المستشرق الاسباني غارسيا غوميس - كانت تفد على القصور الزاهرة لأمراء الأندلس سفارات نصرانية من الغرب ، بل من بيزنطة البعيدة حاملة معها ألطافاً بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريديس في الطب ، التي وضعت في الأندلس بذور نهضة العلوم الطبيعية .. » (١)

زرياب

ولعل من أبرز من رحلوا عن بغـداد من المشارقـة ووفدوا إلى بـلاد الأندلس ثلاثة رجال كان لهم تأثير بالغ في حياتها الفنية والعلمية وهم : علي بن نافع ، الملقب بزرياب أي الطائر الأسود ، خـلال القرن الثالث ، ثم أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغـدادي ، وأخـيراً صاعـد الأندلسي في إبان القرن الرابع .

---

(١) الشعر الأندلسي : غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس ٣٧

لقد خرج زرياب من بغداد الرشيد ناجياً بنفسه بعد أن أدرك بفطنته أن عاصمة العباسيين لن تحتمل وجود رأسين كبيرين في عالم الغناء والموسيقى، إذ لم يعد بوسع أستاذه اسحق الموصلي أن يرى إلى تلميذه وهو يخطو صعداً في سلم الشهرة، فخشي على منزلته في بلاط الخليفة وراح يكيد لمنافسه الذكي يروم إبعاده. وهذا ما حمل زرياب على الهجرة وجعله يضرب في دنيا العرب حتى بلغ أقصى المغرب، ثم استقر به المقام في قرطبة حيث تلقاه عبد الرحمن الأوسط وبالغ في إكرامه.

« وقد حمل زرياب إلى الأندلس فيضاً من الأنغام المشرقية التي ترجع في مناشئها البعيدة إلى أصول يونانية وفارسية، فأصبحت هذه الأغاني الأصل النغمي للموسيقى الاسبانية. وكان زرياب ينشد هذه الأغاني على عوده الخاص الذي كان يضربه بمضراب من ريش الطيور، بعد أن زاد فيه وتراً خامساً. وكانت الأوتار الأربعة هي الأصفر والأحمر والأبيض والأسود »[1]

على أن التأثير الذي أحدثه زرياب في الحقل الاجتماعي يضارع ما أحدثه على الصعيد الفني أو يزيد. وتحدثنا كتب الأندلسيين أن أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط محضه إعجابه وجعله ملازماً له. وأصبح زرياب بمظهره ولباسه وأعماله في نظر الناس عنوان الانسان المتحضر والرجل العصري. ولما كان في طبيعة الأندلسيين في تلك المرحلة الإقبال على كل جديد والترحيب بكل وافد فقد حذوا حذو زرياب وراحوا يقلدونه ويتشبهون به. وقد تميز زرياب

(١) الشعر الاندلسي : غارسيا غوميس، ترجمة د. حسين مؤنس ٣٤

بالوسامة والنظافة والاناقة . » وهو الذي علم الاندلسيين كيف يفرقون شعورهم في وسط الرأس ويقصونها من الخلف ، حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، بعد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والاصداغ . وهو الذي استن لهم لبس الثياب البيضاء والملونة الخفيفة في الصيف ، والفراء والاردية الثقيلة في الشتاء . وهو الذي نقل إليهم كثيراً من طرق الطهي وتصفيف الموائد ومظاهر التحضر [1] .

وهكذا ازداد إقبال الاندلسيين على الحياة ، وجنحوا إلى العب من متعها وملذاتها ، وأخذوا يميلون إلى التأنق والترف ، وتهفو نفوسهم إلى الموسيقا والطرب . ومما ساعد على هذا الانفتاح شيوع اللهو وانتشار المرح وازدهار الاحوال الاقتصادية في الأندلس نتيجة الاستقرار النسبي في الوضع السياسي . فقد استطاع أمراء بني أمية الاوائل تثبيت دعائم ملكهم حين أفلحوا في استئصال عناصر الفتنة ورؤوس التمرد في داخل البلاد ، وحين تمكنوا من دحر أعدائهم الطامعين في الشمال ، وصد موجاتهم إلى ما وراء الجبال . وأعقب ذلك كله رواج التجارة في البر والبحر مع المغرب ومصر وبيزنطة ، وانتشار الزراعه وبخاصة زراعة الزيتون وعصره ، وازدهرت الكرمة وتوسع الناس في عصر الخمور وصناعتها ، كما كثرت فئات القيان من الاسبانيات ومن المشرقيات الوافدات من الحجاز والعراق . وعرفت هذه الحقبة تكاثر عدد الغلمان من الصقالبة الذين اصطحبهم من قبل تجار الرقيق في إثر الحروب التي خاضها الجرمان في أواسط أوروبا .

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة : د . أحمد هيكل ١٢٢

ومما أورده المستشرق الاسباني غارسيا غوميس « أن قرطبة كانت بلداً نصف عربي ، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الاندلس ، ويختلط فيه رنين الاجراس بأذان المؤذنين . وكان بعض شعراء الاندلس يفيئون إلى ظلال بيع المستعربين الصغيرة ليصيبوا شيئاً من النبيذ ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ في دور الصحراء ، أو خيام الرهبان المتأبدين في القفر . ونجم عن اختلاط الاجناس بعضها ببعض ، ومجاورة الديانات بعضها لبعض جو سمح جميل إنساني شفاف ، هو نفس الجو الحضاري الذي نعرفه في بغداد كما تصورها قصص الف ليلة . » [1]

ويمضي غوميس قائلاً « هنا قبس الشرق طابع الغرب من نسائم جبل قرطبة الريفية . كانت قرطبة تتقبل كل شيء وتتمثله ، وتحوله إلى شيء آخر بعد تصفيته . فلقد كانت الرايات وملابس الحداد مثلاً سوداء في بغداد ، فأصبحت بيضاء في الاندلس . وفي تلك الايام كانت الممالك النصرانية في الشمال تعيش في جو قروي فقير ، أما ملوك اسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة : عباد الرحمن الثلاثة ، والحكم ، والمنصور .. وبين أيدينا مصاديق ذلك بادية للعيان : فهذه أقواس المسجد الجامع قائمة إلى اليوم سابحة في شبه ظل يروع النفس ، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة وقد تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران . وتضم الكنائس والمتاحف والجامعة الاسبانية اليوم قطعاً من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الامجاد التي لا يخبو ضياؤها ، ويتحدث عنها كذلك - بأجلى بيان - الشعر الكثير الذي أثر

---

(١) الشعر الأندلسي : غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس ٣٥

عن أزمانها .. »[1]

أبو علي القالي

وإذا كان تأثير المغنين والقيان وسائر أصحاب الفن قد بلغ ذلك المدى في حياة الاندلس الاجتماعية ، فان تأثير أعلام العلم والادب والثقافة كان أبعد مدى وأوسع نطاقاً . كذلك كان أمراء بني أمية ثم خلفاؤها من بعد كعبد الرحمن الاوسط وعبد الرحمن الناصر والحكم .. سباقين إلى الإقبال على المعرفة وإجلال العلماء واجتلاب الشعراء . بل كانوا هم أنفسهم في كثير من الاحيان من هذه الفئة المستنيرة ، فكان منهم من يقرض الشعر ويفرغ فيه مطامحه وأشجانه ومنازعه كعبد الرحمن الداخل والحكم بن هشام ، كما كان منهم من يرعى العلم والعلماء ويحرص على ملء خزائنه بالكتب والمصنفات ، شأن عبد الرحمن الاوسط الذي كان مشغوفاً بمطالعة كتب الطب والفلسفة ، وقد عرف بارساله في طلب الكتب من الأمصار ، كما أوفد عباس بن ناصح الشاعر إلى الشرق لتحقيق هذا المطلب ولإغناء قرطبة بنفائس المصنفات .

ثم توسع الحكم بن الناصر بعد ذلك في اجتلاب الكتب من مصادرها وبخاصة من دمشق وحلب وبغداد . حتى إنه رغب إلى أبي الفرج الأصفهاني أن يظهر كتابه الأغاني في الأندلس قبل أن يظهره في المشرق . وقد ذكر المقري أن الحكم الأندلسي « قد بعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وأرسل اليه فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة

(١) الشعر الأندلسي : غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس ٣٦

منه قبل ان يخرجه إلى العراق »[1] .

وقد غصت أبهاء المساجد وحلقات الدرس في قرطبة وسائر حواضر الأندلس بطلاب العلم والمريدين ، ونشطت حركة تأليف الكتب ونسخها ، وعمرت المكتبات بآلاف المخطوطات . يذكر المؤرخون أن مكتبة قرطبة كانت تضم نحواً من اربعمئة الف مجلد وأن عدد فهارس الدواوين والمجموعات الشعرية فيها أربعة وأربعون فهرساً .

أما من جذبتهم الأندلس من الأدباء والشعراء والعلماء والنحاة فشدوا الرحال اليها فكثيرون ، تناولتهم بالذكر كتب التراجم المسهبة وفي مقدمتها « الذخيرة » و « نفح الطيب » .. وكان من بينهم الشاعر ابن زريق البغدادي ، الذي عرف بقصيدته العينية الجميلة التي أفرغ فيها كل مشاعر الخيبة والمرارة لما لازمه من نحس وسوء حظ في رحلته التاعسة من بغداد حيث خلف فتاته إلى حين ، ليعود اليها بعده غانماً سالماً ، ولكنه مات أسى ولوعة وتحت وسادته قصيدته الفريدة التي يناجي بها حبيبته على البعد :

لا تعذليه فان العذل يولعه   قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

وثمة علماء عديدون من المشارقة وفدوا إلى الأندلس حاملين معهم الكثير من المؤلفات ، بالإضافة إلى ما كان يحمله الأندلسيون الزائرون أو الحاجون في إثر عودتهم من المشرق . ومن هؤلاء إبراهيم بن أحمد الشيباني المعروف بأبي اليسر الرياضي ، وهو من أهل بغداد . وكان قد لقي الجاحظ والمبرد وثعلباً

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١ : ٣٦٢

وابن قتيبة من الأدباء ، وأبا تمام والبحتري ودعبلاً وابن الجهم من الشعراء [1] . كما كان من أبرز الوافدين على الأندلس صاعد البغدادي الذي جاء في زمن الحاجب المنصور أواخر القرن الرابع واستقبله ابن دارج الشاعر بحفاوة بالغة وأتحفه بقصيدة شعرية عندما أتى من المشرق [2] .

وتعد وفادة أبي علي القالي إلى الأندلس ذروة هذه الظاهرة ، وهو من غير شك أبرز من قصد إلى الأندلس من رجال العلم المشارقة وذلك في إبان القرن الرابع ، كما يعد زرياب أبرز من قصد إلى قرطبة من أهل بغداد من رجال الفن خلال القرن الثالث . كان خروج أبي علي من بغداد سنة ٣٢٨ هـ ، وعمره يومئذ يناهز الأربعين[3] . وقد مر بأرض مصر حيث علم بوفاة أديب الأندلس أحمد بن عبد ربه [4] ، صاحب كتاب العقد الفريد . ثم بلغ المغرب ووصل إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ فاستقبل استقبالاً عظيماً . وكان في مقدمة مستقبليه الأمير الحكم ولي العهد ولفيف من وزراء والده الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن حكام الأندلس من الأمويين . وكان الناصر قد استدعاه بعد أن بلغته شهرته وعلم فضله . « فلما وفد عليه أبو علي أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده ، وأورث أهل الأندلس علمه ، ووكل اليه تعليم ابنه .. » [5] . أما الحكم فقد « تلقاه بالجميل وحظي عنده ، وقرب منه ، وبالغ

---

(١) انظر نفح الطيب للمقري ٢ : ١١٥

(٢) الشعر العربي في الأندلس : كراتشوفسكي ، ترجمة محمد منير مرسي ٣٥

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، العدد الثالث من المجلد الرابع والأربعين سنة ١٩٦٩

(٤) تراث الانسانية ، أحمد كمال زكي ، العدد الأول من المجلد الخامس

(٥) نفح الطيب ١ : ٣٦٢

في إكرامه . ويقال إنه كان قد كتب اليه ، ورغبه في الوفود عليه . وكان قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت اليه يبعثه على التأليف ، وينشطه بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط والإكرام [1] » .

استوطن أبو علي قرطبة ونشر علمه بها ، وألف فيها أكثر كتبه ، وفي طليعتها كتاب الأمالي والنوادر ، وكتاب البارع في اللغة . وكان يملي معارفه أيام الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء « فاستفاد الناس منه وعولوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله » .

ولعل الحكم بن الناصر الأموي في طليعة الذين أفادوا من علمه . ويعد أبو بكر الزبيدي الاشبيلي أبرز من تتلمذوا على أبي علي إطلاقاً في الأندلس . وهو لغوي كبير اشتهر بكتابيه : « مختصر العين » و « طبقات اللغويين والنحويين » [2] . ومن النابهين الذين أخذوا عن القالي أحمد بن أبان بن سعيد ، اللغوي الأندلسي . ويذكر السيوطي أنه صنف كتاباً اسمه « العالَم » في اللغة ويقع في مائة مجلد ، وقد رتبه على الأجناس ، وبدأ فيه بالفلك وختم بالذرة . وأغلب الظن أن هذا الكتاب حصيلة تأثر ابن أبان بالقالي في نزعته اللغوية ، ولعله في كتابه « العالَم في اللغة » كان يضع نصب عينيه كتاب « البارع في اللغة » لأبي علي ويحرص على مباراته في مادته وحجمه » [3] .

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، للحميدي ١٥٥

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٧ : ٣٠ ، وجذوة المقتبس للحميدي ١٥٤

(٣) انظر مدى تأثير أبي علي في الأندلس ما كتبه باسهاب عمر الدقاق في مجلة مجمع اللغة العربية ، العدد الثالث من المجلد الرابع والأربعين لعام ١٩٦٩ بدمشق .

على أن ثمة جانباً هاماً آخر في رحلة أبي علي التاريخية إلى الاندلس وهو ما حمله معه من كتب ومصنفات كان لها أهمية خاصة في حركة التبادل الثقافي والفكري التي كانت تجري بين المشرق والاندلس .

ومن حسن الحظ ودواعي التقدير أن يثبت لنا العالم الاندلسي ابن خير أسماء هذه الكتب في كتابه القيم « الفهرست » مما لا نقع عليه في أي كتاب آخر [1] . ومن هذه الكتب مجموعة أخبار نفطويه في ٢٨ جزءاً وأخبار ابن الانباري في ٥ أجزاء وكتاب أخبار ابن دريد في ٥٨ جزءاً ، وكتاب عن الاخفش ، وكتاب المدخل للمبرد والمهذب للدينوري ، وأيام العرب ومعاني الشعر للباهلي ، وكتاب الآداب لابن المعتز ، وشرح أشعار الحماسة ، وشرح إصلاح المنطق للتبريزي على ابن السكيت ، وكتاب الضيفان لثعلب ، والالف واللام ، والتصريف للمازني ، والعروض لابن درستويه والسرج واللجام لابن دريد .. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من دواوين الشعراء .. ولم نسهب بعض الشيء في ذكر هذه الكتب إلا لنلقي الضوء على جانب من ذلك التفاعل الفكري والعلمي بين جناحي العالم العربي والإسلامي في إبان القرن الرابع ، أزهى عهود العرب .

أما مصنفات أبي علي فقد كانت نحواً من عشرة مؤلفات أو تزيد ، وقد نعت بعضها الحميدي بأنه « لم يؤلف في بابه مثله » [2] ، كما وصفه القفطي بأنه « مستقصى في بابه ، ولم يوضع له نظير » [3] ، وعد الضبي بعضها الآخر بأنه

(١) فهرست ابن خير ٣٩٨
(٢) جذوة المقتبس ، الحميدي ١٥٦
(٣) انباه الرواة ، القفطي ١ : ٢٠٥

« في غاية الضبط والتقييد والاتقان »[1] . ولعل من أبرز هـذه المؤلفات كتاب البارع الذي بناه أبو علي على حروف المعجم ، وآثر فيه نسق مخارج الحروف على غرار نهج الخليل في العين . وقـد ذكر ياقوت أنه يحتوي على مئة مجلد[2] . وأغلب الظن أن البارع كان في عصره أوسع المعاجم التي ظهرت حتى ذلك الحين . وقد وصفه الحميدي بأنه « كاد يحتوي على لغة العرب »[3] .

ومما ينطوي على أهمية بالغة أن الأندلس تبقى حتى القرن الرابع ليأتيها القالي من المشرق ويؤلف فيها كتاب البارع ، أول معجم عربي عرفه تاريخها[4] .

وفي تقـديرنا أن كتاب الأمالي للقالي حظي بشهرة واسعة في الأندلس لم يحظ البارع ببعضها ، وكان له صدى بعيد في محافلها الأدبية ، ولعله أول كتاب من نوعه الف في تلك الربوع ، وقد غدا عمدة في موضوعه ، ونموذجاً يحتذى في غزارة المادة وغنى النصوص واتقان الرواية ودقة الضبط . حتى إن شهرته البالغة قد طبقت آفاق المشرق ، وهو الكتاب الأندلسي الوحيـد بين الكتب الأربعة التي أحلها شيوخ الأدب منزلة التقديم كما يذكر ابن خلدون في مقدمته ، وهي البيان والتبيين والكامل وأدب الكاتب ، وهذا يعني أن أبا علي وضع في مصاف الجاحظ والمبرد وابن قتيبة .

وقد ذهب أحمد أمين[5] في شيء من الغلو إلى أن أمالي أبي علي كانت

---

(١) بغية الملتمس ، الضبي ٢١٨

(٢) معجم الأدباء ، ياقوت ٧ : ٢٩

(٣) جذوة المقتبس ، الحميدي ١٥٦

(٤) المعجم العربي ، حسين نصار

(٥) مجلة « الثقافة » ١٥ اكتوبر ١٩٤٠

النواة الأولى التي بذرها القالي في الأندلس من علوم المشرق [1] . ومن هـذا القبيل ما ذكره بروكلمان من إشادة بالغـة بأبي علي حين جعله أول من نقل علم الأدب إلى الأندلس [2] . وذكر كراتشكوفسكي أن الخدمات الجليلة في غرس العلوم اللغوية في الأندلس إنما ترجع إلى القالي ، أول رائد جاد في هذا الميدان [3] .

* * *

وليس من شأننا في هـذا البحث أن نجلو الجانب الآخر من هـذا التفاعل المثمر بين المشارقة والمغاربة والذي يتمثل في وفادة الكثيرين من رجال الأندلس والمغرب إلى المشرق من أمثال الحميدي والمقري وابن خلدون .. لأن قصدنا جلاء الحياة الثقافيـة والأدبيـة في الأندلس ومدى إسهام المشارقـة في رفدها وإغنائها .

إن الحركة الفكرية والأدبية والاجتماعية الحافلة التي عرفتها الأندلس في وثبتها الحضارية جعلت هـذه الربوع منارة إشعاع في إبان القرون الوسطى .. وكان من جراء ذلك أن اتسمت مدن بعينها بسمات حضارية مميزة ، من مثل ما أورده مؤرخو الحضارة العربية في الأندلس على لسان الفيلسوف ابن رشد

(١) وهم أحمد أمين حين ذكر أن مشهوري الأدباء في الأندلس ومنهم ابن عبد ربه قد تخرجوا في مدرسة أبي علي . وهذا يعني أن أبا علي أسبق وجوداً وتأليفاً وأن ابن عبد ربه بمثابة تلميذه ، على حين توفي ابن عبد ربه ، قبل بلوغ أبي علي بلاد الأندلس .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، الترجمة العربية ٢ : ٢٧٧

(٣) الشعر العربي في الأندلس ، لكراتشكوفسكي ٣٦

مخاطباً ابن زهر : من إنه إذا مات عالم في إشبيلية ، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة ، حيث العلم والعلماء ودور الكتب والوراقون .. وإذا مات موسيقي في قرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية ، حيث يزدهر الفن ويكثر أربابه وتعمر المجالس بالغناء والطرب [(١)] .

وجملة القول « إن حشداً حافلاً من الثقافة الجديدة كان يعتمل ويختمر في الأندلس . وفي ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأسنتها المشرعة التي لا تغلب كان الكتّاب ينشئون ، والعلماء يحاضرون إلى جوار عمد المسجد الجامع ، وانصرف الأغنياء إلى التنافس في جمع الكتب . وغنت القيان ونظم الشعراء ، وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم والنثر » [(٢)] .

★ ★ ★

الشخصية الأندلسية :

تعاقبت على أرض الأندلس أقوام كثيرة عبر عهود سحيقة ، فسكنها الايبريون والسلتيون ثم اقتحمها الفينيقيون واليونان والقرطاجنيون ثم الرومان والفاندال وأخيراً القوط . كما كانت ثمة عناصر وافدة من الصقالبة . وكانت أفواج المسلمين يوم الفتح وما تلاها بعد ذلك من موجات العرب والبربر المتلاحقة آخر حلقة كبيرة في سلسلة هذا التفاعل السكاني الحافل . وتبعاً لذلك أخذت هذه العناصر المتباينة تتآلف وتمازج وتخضع لظروف التاريخ المشترك

(١) نفح الطيب للمقري ١ : ١٤٧
(٢) الشعر الأندلسي : غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس ٣٧

والبيئة الواحـدة . وحين دخل العرب اسبانيا وجدوا أن الرومان قـد تركوا مياسمهم على البلاد خالعين عليها لغتهم اللاتينية وعقيدتهم المسيحية . وإن تدفق العنصر العربي على البلاد كاد يطبع بكثرته ذلك المجتمع الغربي بالطابع الشرقي ، وبخاصة في أصقاع الجنوب حيث غلبت السمرة على الوجوه والسواد على الشعور على حين بقي البياض المشرب بالحمرة سائداً في الشمال .

ولعل ما عجل بالاندماج منذ الفتح العربي أن المسلمين الأوائل كانوا في معظمهم جنوداً لم تصحبهم زوجات ولا بنات ، وغـدا التزواج بينهم وبـين الاسبانيات أمراً مألوفاً ، وهذا ما كرس بقاءهم من جهة وطبع البلاد بطابعهم من جهة أخرى . وذلك على نحو سريع وباهر برغم قصر فترة التفاعل السكاني . كانت أكثرية الوافدين على الأندلس مع جيش الفتح من عرب الشام ثم أتت بعـدهم موجة أخرى في أثر الاضطهاد العباسي . يؤيد ذلك ما كان من التفاف هؤلاء حول عبد الرحمن الداخل ويسر قيام الحكم الأموي في قرطبة .

وهكذا كان من الطبيعي أن تتبدل مـلامح المجتمع بعد جيل أو بعـد أجيال فيفقـد صفات ويكتسب صفات ، وأن تسري في الاسبان دماء العرب وفي العرب دماء الاسبان . وقد تطرف بعض المستشرقين الأوائل وبخاصة من الاسبان في إضفاء الطابع الاسباني على سكان الأندلس جاعلين من العرب مجرد غزاة محتلين وأعداء ألداء . غير أن أكثرهم يجنح الآن إلى الانصاف ويؤثر الاعتدال حين يعد الحضارة الأندلسية حقبة لامعة من تاريخ البلاد وتراثها كان الفضل في شيدها للشخصية الأندلسية المتميزة والمتحـدرة من أصلاب العرب والاسبان على السواء .

ومن أسباب سرعة التمازج بين العرب والاسبان انتشار العقيدة الاسلامية على نحو باهر . ومن طبيعة الأمم المغلوبة أنها تجنح إلى اعتناق منازع الأمم الغالبة ، وقد اعتنق كثير من الاسبان دين الاسلام عن اعجاب وعقيدة ، كما أسلم بعضهم تخلصاً من الجزية ، أو أملاً في مطمح ، وسعياً إلى مأرب . على أن الكثيرين في اسبانيا وبخاصة من العناصر الأخرى المضطهدة كاليهود ، أو المسترقة كالصقالبة بادروا إلى اعتناق الاسلام واجدين فيه خلاصهم وتحررهم . وهكذا غدت الغالبية الأندلسية على دين الاسلام كما يقر بذلك المستشرقون الذين يؤثرون أن يسموا الأندلس باسبانيا المسلمة . ومن ناحية أخرى بقي جانب من المسيحيين على دينهم ورضوا بدفع الجزية ، وتعايش الجميع في غالب الأحيان بسماحة ، فتداخلت المساجد والكنائس ، وتعانقت نداءات المآذن وأصوات النواقيس . وقد نجم عن ذلك بلوغ الكثيرين من اليهود والمسيحيين أعلى المناصب وتسنمهم الادارات والوزارات . حتى إن أبا يوسف حسداي بن شبروط الوزير المعروف للخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة كان يهودياً ، كما كانت اسبانيا خلال العصور الوسطى مركز الدراسات العبرية [1] .

والحقيقة الباهرة التي لا مجال للجدال فيها ، هي أن العرب قد طبعوا البلاد بطابعهم أمداً مديداً حين أتيح لدينهم أن يزحزح المسيحية ، وحين قيض للغتهم أن تزحزح اللاتينية . وهكذا ازداد اقبال الناس على تعلم لغة العرب باعتبارها لغة الحضارة ، فانصرفوا اليها وشغفوا بها . وما كتبه عصرئذ القس

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، د . حسين مؤنس ٤٨٨

إلبيرو القرطبي Alvaro Cordobe شاكياً طغيان العربية بمرارة بات معروفاً إذ قال [1] :

« إن اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك اسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة . ومن - سوى رجال الدين - يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة ، إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم . وهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع كتبها ، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب . فاذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفو اليها انتباهم . يا للألم ، لقد أنسي النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب فانك واجد فيهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فناً وجمالاً » .

كذلك نبعت ثقافة يهود اسبانيا من موارد الثقافة الاسلامية بصورة مباشرة ، واقتفى عدد من شعراء اليهود آثار الأدب العربي وتمثلوا صوره ،

---

(١) انظر ما كتبه د . حسين مؤنس في كتابه تاريخ الفكر الاندلسي ، الفصل الثالث عشر حول الآثار الأدبية لغير المسلمين ، ص ٤٨٣

حتى إن أول نحو علمي للغة العبرية وضعه أبو زكريا حيوج العالم اليهودي باللغة العربية [1] . وقد نظم ابن جبرول اليهودي من علماء القرن الخامس الهجري قواعد النحو العبري في قصيدة عبرية جعلها في أربعمئة بيت من بحر الرجز ، وفيها يتحسر أيضاً على انصراف اخوانه في الدين من أهل سرقسطة عن لغتهم المقدسة ، ويسميهم الجماعة العمياء . وكان هذا العالم نفسه يصوغ مؤلفاته ورسائله باللغة العربية [2] .

وإن كثيراً من الألفاظ العربية التي نجدها اليوم في الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية إنما توارثتها هذه اللغات من اللاتينية ، وبخاصة ما كان ذا صلة بالزراعة والري وأسماء النبات مما يبلغ المئات عدداً [3] .

لقد ظل الأندلسي عربياً في ثقافته وفي تراثه ، كما كان دائب التطلع إلى المشرق يحن إلى أرومته ويتشوق إلى مهد عروبته . ولكنه بات يشيد لنفسه كياناً متميزاً وحضارة باذخة مباهياً بذلك قومه المشارقة . وكان أن اتسم في تلك الظروف والبيئة بما أخذ يميزه عن أخيه في المشرق برغم التقائه معه في نقاط أخرى كثيرة . لقد غدت له لهجة محلية مغايرة ، كما أصبحت له عادات وتقاليد متميزة ، وغدا أميل إلى المرح واللهو والاستمتاع بمباهج الحياة ، والحرص على التظرف والتأنق .. وكان أن تجلى كل ذلك في أدبه وانعكس على فنه . ولقد فطن أجدادنا في الأندلس لوجود الشخصية الأندلسية وتميزها

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، د . حسين مؤنس ٤٨٩
(٢) المصدر السابق ٤٩٤
(٣) الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٤٨

واتسامها بكثير من الخصائص التي أسهمت في تكوينها ، ومن هؤلاء ابن حزم والمقري . ومما جاء في نفح الطيب :

« أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم .. هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم . . بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم .. يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر »[1] . ومن هذا القبيل ما يقوله ابن حزم من أن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيون في معاناة الحروب ومعالجات آلاتها ، والنظر في مهماتها ...

(١) نفح الطيب ، المقري ٢ : ٧٦٣

الشعر الأندلسي

في

العهد الأموي



بين المحافظة والتجديد

آثر شعراء الأندلس أمداً طويلاً أن يعيشوا في جواء المحافظة ، جاهدين في الالتصاق بالموضوعات التقليدية . لقد اغتربوا ، راضين أو مكرهين ، مخلفين وراءهم وطناً وأهلاً وصحباً . ولم يكن ذلك عليهم بهين ، كما لم يكن من اليسير عليهم أن ينسلخوا مما كانوا فيه من طباع وعادات وأخلاق ، ومن مفاهيم ومبادىء ومثل . لقد رحلوا بأجسادهم عن الشرق ، ولكن تراث أمتهم وتراب جدودهم بقيا ماثلين في شغاف قلوبهم ، يشدهم إلى ذلك رصيد عاطفي وثقافي لا يحد . وهكذا كان من الطبيعي أن يصدر الأندلسيون في موطنهم القصي عن أدب مشابه لأدب أرومتهم في المشرق ، أدب يتسم بطابع المحافظة ويعبق بسمات الأصالة .

وكان مجرد إيثار الأندلسيين للشعر وعاء لمنازعهم وترجماناً عن مشاعرهم يعني أنهم كانوا نفسياً في صميم الذات العربية وإن كانوا جغرافياً بعيدين عن مهدها ، باعتبار أن الشعر ديوان العرب ومرآة نفوسهم ومثوى منازعهم . كانوا يعيشون في تلك الجزيرة وعيونهم شاخصة إلى المشرق حيث ثقافتهم الإسلامية الأصيلة ومنبع لغتهم العربية العريقة ومصدر تقاليدهم الفنية الراسخة . ولم يكن ليغيب عنهم قط أنهم هنا الفرع وأن هناك الأصل ، ولهذا كانوا يحسون بما كان يحس به كل فرع من نزوع نحو أصله . بل إن هذا الوضع

النفسي كثيراً ما كان يجنح بذويه إلى غلوهم في هـذا الالتحام وحرصهم على منافسة ما يفد اليهم من وطنهم الأول وسعيهم إلى محاكاته أو مجاراته ، بل كثيراً ما كانوا يطمحون إلى سبقه ومباهاته .

هـذا الطابع الذي تجلى في حياة العرب في الأندلس وانعكس جلياً في شعرهم ، ونعني به روح المحافظـة والنزوع إلى الأصالة إنما كان على أشده في إبان عهود العرب الأولى في الأندلس ، وبخاصة في مرحلة الفتح وما تلاها من التواجد العربي في تلك الربوع الغربية ، حين كان كل شيء في نفس الأندلسي يجعله يلتفت إلى ماضيه الذي غيبه وأرضه التي طواهـا ، على حين كانت نفسه لا تزال تستعصي على الالتحام في البيئة الجـديدة ، وتقاوم الذوبان في ظل مؤثراتها ومنازع حياتها .

ومن هنا كانت النماذج الأدبية الأولى ـ شعرية ونثرية ـ تنسج على منوال الأدب المشرقي وتستمد عناصرها من نسغه وتنطوي على نكهته . وكثيراً ما كان أدباء الأندلس يلقبون بألقاب المشارقة ، ويعرف الواحد منهم باسم أحـد أعلام الأدب في المشرق . وهكـذا عرف أبو الخطار حسام بن ضرار بـ « عنترة الأندلس » * ، وعرف ابن زيدون بـ « بحتري المغرب » وابن

* حسام بن ضرار من أشراف القحطانيين في الأندلس ، وممن شهدوا فتوح المسلمين بأفريقية وأبلوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٢ م أيام هشام بن عبد الملك . وكان شاعراً فارساً . وليس بين أيدينا من شعره سـوى اليسير ، وأغلب الظن أن معظمه ضاع ، شأن نتاج كثير من الرواد الأوائل ولأن تلك الحقبة الأولى من الحياة السياسيه في الأندلس كانت حافلة بالاضطراب .

انظر في أخبار أبي الخطار بغية الملتمس للضبي الترجمة ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميـدي ١٨٨ - ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ١٨ - ١٩ ، والأدب الأندلسي لأحمد هيكل ٥٦ - ٥٨ .

هانىء بـ « متنبي المغرب » ، وابن خفاجة « بصنوبري الأندلس » . وكان ميل شعراء الأندلس في هذه المرحلة واضحاً نحو لقاء فحول شعراء المشرق والاستماع اليهم والتحاور معهم . وقد سنحت هذه الفرصة لبعضهم مثل الشاعر عباس بن ناصح الذي لقي أبا نواس ، والشاعر يحيى الغزال الذي لقي رهطاً آخر من أدباء بغداد . بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى اطلاق أسماء المدن والأماكن المشرقية على حواضر الأندلس ومرابعها ، فتسمت اشبيلية بحمص ، كما ابتنى الداخل قصراً له وحدائق ، مطلقاً عليها اسم الرصافة على غرار رصافة دمشق ...

وما كان لمثل هـذا الحال أن يدوم مـع دوام بقاء العرب في الأندلس واستقرارهم فيها ، ثم ما نجم عن ذلك من امتزاج بأهلها وتطبعهم بمناحي الحياة ومؤثرات البيئة فيها . ولم يكن ثمة بد ، تحت وطأة السنين وتوالي الأجيال ، أن تحول الأمور ، وتتبدل المنازع ، وتتأقلم النفوس . وهكذا أخذت الوشائج تضعف بعد حين تجاه الأرومـة القـديمة لتتفتح في مقابلها خصائص مستحدثة أخذت تتنامى يوماً بعد يوم في ظل الحياة الحديثة وتحت تأثير البيئة الجديدة .

وهكذا تفتحت ملامح شخصية طريفـة في الأندلس ، لا هي بالعربيـة المعهودة ولا هي بالأعجمية السالفة ، إنها الشخصية الأندلسية التي حافظت على مقومات الأصالة واستجابت في الوقت نفسه إلى دواعي التجديد . وذلك ما أدى بعد حين إلى ظهور نماذج أدبية تتسم بالطرافة والابتكار ، حتى بلغ ذلك ذروته في ظهور فن الموشحات .

ومع ذلك ظل التياران ، تيار التقليد وتيار التجديد ، يتعايشان معاً لأنهما كانا يلبيان حاجات غـلابة في نفس العربي الأندلسي . فعلى الرغم من مرور

بضعة قرون على الوجود العربي في الأندلس ظللنا نرى امراءها وخلفاءها دائبين في مباراة المشارقة على صعيد العلوم والفنون والآداب ، حتى لقد جهد الخليفة الناصر ثم ابنه الحكم من بعده إبان القرن الرابع ، في اجتلاب رجال العلم والأدب والموسيقى والغناء واقتناء مصنفاتهم ، ومن ذلك حرص الحكم على إظهار كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني في قرطبة قبل بلاد المشرق ، واستعداده في سبيل ذلك لدفع المال الوفير .

ولعل خير ما يعكس هذه النزعة ، نزعة المنافسة والمباهاة في نفوس الاندلسيين ، أحمد بن عبد ربه حين يقول في مقدمة كتابه (العقد الفريد) :

« .. وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور » .

ويبدو أن إلحاح هذا الشعور على ذهن ابن عبد ربه هو الذي قاده إلى اتخاذ مادة كتابه الكبير من أخبار المشارقة وآدابهم إمعاناً في إظهار إحاطته بنتاجهم في عقر دارهم برغم بعده الشاسع عنهم . على حين كان المشارقة أنفسهم في غنى عن زج نفوسهم في هذه المنافسة ، حين راحوا يعيشون حياتهم العلمية رهواً ويصدرون عن نتاجهم آمنين مطمئنين . وكل ما كان يعتمل في نفوسهم هو اللهفة على أشقائهم وأبناء عمومتهم وما كانوا يصدرون عنه من أدب طريف . ومن هنا كانت خيبة الصاحب بن عباد حين علق على كتاب العقد الفريد الذي وصل اليه من وراء البحر فقال بشيء من المرارة : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .

وأغلب الظن أن ابن عبد ربه ، بشخصيته النامية ومواهبة المتعددة كان يرى بأسى وامتعاض إلى ما كان عليه قومه في الاندلس من إقبال مسرف على أدب المشارقة وإغفال مجحف لادب رجال الاندلس والمغرب ، فقصد من كتابه إلى غاية مزدوجة ، هي أن يثبت لقومه أن في الاندلس من مثله أناساً يضارعون أعلام الادب من المشارقة ، كما حرص في الوقت نفسه على أن يرضي فيهم تعطشهم إلى ما كان يتصل بأبناء أرومتهم في الشرق من أخبار وأقوال وأحوال .. [1] .

(١) مصادر التراث العربي ، عمر الدقاق ١٠٧

بواكير الشعر الأندلسي

ولنعمد بعد ذلك إلى استجلاء خصائص بعض النصوص الأدبية ، في ضوء هذا التفسير لظاهرة المحافظة في بواكير الشعر الأندلسي ، مما كان أكثره في عهد الولاة ، كشعر أبي الأجرب جعونة بن الصمة * وأبي الخطار حسام بن ضرار . وكنثر خالد بن يزيد الذي كان كاتباً ليوسف الفهري آخر ولاة الأندلس ، ثم للداخل ، وأميه بن زيد الذي دخل الأندلس أيضاً وغدا كاتباً للداخل أيضاً مع خالد بن يزيد [1] ..

قال طارق بن زياد يوم الفتح من قصيدة تعزى اليه [2] :

---

* جعونة من العرب الطارئين على الأندلس . اشتهر بهجاء الصميل بن حاتم زعيم القيسية ، ثم تمكن هذا منه وعفا عنه فتصالحا وعمد إلى مدحه . وقيل إنه في منزلة جرير والفرزدق وأن أبا نواس اهتم بأخباره وقرظ شعره . وشأنه كشأن أبي الخطار لم يصل الينا من شعره سوى شذرات .

انظر في أخباره : ابن سعيد في المغرب ١ : ١٣١ - ١٣٢ ، والمقري في نفح الطيب ٢ : ١٥٦ ، والضبي في بغية الملتمس : الترجمة ٦٢٢ ، والحميدي في جذوة المقتبس ١٧٧ - ١٧٨ ، و د . أحمد هيكل في الأدب الأندلسي ٥٦ - ٥٧

(١) انظر ابن الأبار في إعتاب الكتاب ، و د. أحمد هيكل في الأدب الأندلسي ٦١

(٢) يورد المقري هذه الأبيات في كتابه نفح الطيب ١ : ١٢٤ ويذكر أنها من قصيدة لطارق . وهذا يعني أن أصلها أطول من ذلك . ونحن نشك مع الشاكين في نسبة الأبيات إلى طارق ، فهو بربري قل أن يبلغ هذه المنزلة من الفصاحة والبلاغة التي تجعله ينظم القصائد على هذا النحو ..

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيرا | عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة | إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا | إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

وواضح أن هذه الأبيات بحكم فترة نظمها قد انطوت على خصائص الشعر العربي القديم دون أن تنم على أية ملامح أندلسية . حتى ليمكن القول إنها نتاج مشرقي تقليدي ، وليس ثمة ما يجعلها قصيدة أندلسية لمجرد أن صاحبها قد عبر المضيق ونظمها فوق أرض الأندلس . وواضح خلالها أيضاً ورود المعاني المألوفة في شعر صدر الإسلام مما يتصل بتأثير القرآن (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)[1] أو ما يتصل بالصور التقليدية في الشعر القديم في مثل صورة (سالت نفوسنا) التي تذكرنا بقول السموءل :

تسيل على حد الظبات نفوسنا | وليست على غير الظبات تسيل

على أن في نصوص تالية لهذا العهد ما هو أجدى في الدلالة على ملامح الذات الأندلسية وعلى طابع المحافظة التقليدي معاً من مثل قصيدة عبد الرحمن الداخل :

دعني وصيدَ وقّع[2] الغرانق
فان همي في اصطياد المارق

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١١

(٢) الغرانق أو الغرانيق مفردها غرنوق وهو طائر مائي كبير شبيه بالبط لعله الكركي ، والقصيدة مثبتة في كتاب الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ص ٩٢ نقلاً عن كتاب أخبار مجموعة ١١٧

في نفق إن كان أو في حالق

إذا التظت هـواجر الطرائق

كان لفاعي ظل بنـد خافق

غنيت عن روض وقصر شاهق

بالقفر والإيطان في السرادق

فقل لمن نـام على النمارق

إن العـلا شـدت بهم طارق

وقد ذُكر في مناسبة هـذه القصيدة أن غرانيق وقعت إلى جانب معسكر الداخل في إحدى غزواته فأغراه بعض أصحابه بصيدها ، ولكنه أبى ذلك وقال أبياته هـذه مفاخراً . فالقصيـدة تنتمي إلى غرض الفخر ، أحـد الأغراض الشعرية الأصيلة في الجاهلية والإسلام ، وإن لم يعـد لهـذا الغرض شأن كبير بعـد ذلك في شعر المولدين خـلال العصر العباسي . وهي في الواقع تنتمي إلى شعر الحماسة الذي تتجلى فيه أصالة المنازع العربية . والقصيدة تنطوي على ألفاظ ومعان وصور طالما وقعنا على مثلهـا في قـديم أشعار العرب من مثل التلفع بالبنـد الخافق ، وإيثار حياة التقشف والخشونة على حياة الدعة والنعيم ، والإمعان في قهر النفس وإذلالهـا طلباً للمعالي وإدراكاً لجلائل الغايات .. على أن أهم عناصر المحافظة التقليدية خلال القصيدة في رأينا إنما تتجلى في اختيار بحر الرجز . والرجز بحر موغل في القدم ، وليس شأنه كسائر البحور ، فهو فن البـداوة الأصيـلة الذي آثره الشعراء البداة في صحاريهـم ووصفهـم للفلوات والوحوش ، بل إنه أصبح في عصر الداخل ، أي في أوائل العصر العباسي فناً

قائماً بذاته ، وله مقوماته التي تغاير فن القصيد ، فقد غدا الوعاء الأثير لموضوعات الصيد والقنص ، وعرفت نماذجه بالطرديات ، كما عرف بهذا الفن أناس مختصون أعادوا اليه منزلته القديمة كرؤبة والعجاج وأبي النجم العجلي ..

وهكذا آثر الداخل لمشاعره نهج القدماء البداة في موضوع كموضوعهم واسلوب كأسلوبهم .. مما ينم على التحام الشاعر بأرومته وينم في الوقت نفسه على ذاتيته وأصالته .

أبو المخشي * :

هو عاصم بن زيد ، ويرجع نسبه البعيد إلى نصارى الحيرة . وكان والده في عداد جند الشام الذين وفدوا على الأندلس في فترة الولاة .

نبغ أبو المخشي بالشعر ، غير أنه كان هجّاء سليط اللسان مما ألب عليه الكثيرين . وكان خصومه من الشعراء يجدون في أصله النصراني مغمزاً يعيرونه به ، مما يذكرنا بما كان من أمثالهم أيضاً تجاه الأخطل في الشام . وقد تعرض أبو المخشي لهشام بن عبد الرحمن الداخل الذي تولى حكم الأندلس بعد أبيه ، وقد كان أحول ، فأشار في أحد أبياته إلى أن في مقلته اعوراراً . فنقم هشام عليه لذلك ولما كان يبدر منه من مس للأعراض ، فضلاً عن دأبه على مديح أخيه سليمان بن الداخل دونه . وقد استدعاه هشام إلى « ماردة » وكان والياً عليها ، متظاهراً باكرامه ، فعمد إلى قطع بعض لسانه كما سمل عينيه ، وتركه

---

* انظر مزيداً من التفصيل عن الشاعر في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٦ وفي جذوة المقتبس للحميدي ٣٧٧ ، والمغرب في حلى المغرب لعلي بن سعيد المغربي ٢ : ١٢٣ ، وفي الأدب الأندلسي د . أحمد هيكل ٩٦

أعمى أخرس . ثم تحسن نطقه بعد حين ، غير أن فقده البصر قلب حياته مأساة انعكست في شعره الذي صور خلاله محنته القاسية . وقد وبخ الداخل ولده لما اقترفته يداه ، وقرّب أبا المخشي وأفاض عليه المال وضاعف ديته . وحين آل الأمر إلى هشام بعد أبيه تجسمت في نفسه فعلته فندم ندماً مريراً وراح يقرب أبا المخشي ويغدق عليه العطايا . وكان لأبي المخشي غلام يلازمه ويتولى القاء شعره بسبب محنته في لسانه .

وبرغم شهرة أبي المخشي في عصره ، لجودة شعره من جهة ، ولاتصاله بأوائل أمراء بني أمية من جهة أخرى ، فان ما بين أيدينا من شعره قليل ، ولعل كثيراً منه قد ضاع .

وهذا الشاعر يمثل التيار المحافظ في الشعر الأندلسي بحكم المرحلة التي عاش فيها أوائل الحكم الأموي وتأسيس الدولة الأندلسية . ومن شعره في مدح عبد الرحمن الداخل من قصيدة يشيد فيها بانتصاراته أبيات يستهلها بقوله :

امتطيناها سماناً بُدُناً فتركناها نضاءً بالعنا

ثم يقول :

وذريني قد تجاوزت بها مهمهاً قفراً إلى أهل الندى

قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى

فالصور ـ كما هو واضح ـ بدوية خالصة ، يجنح اليها الشاعر من خلال وصفه لامتطاء الراحلة إلى ممدوحه الأمير ، وكيف أنها غدت هزيلة من فرط السير اليه لنيل عطاياه . ومن هذا القبيل ذكره للمهمه والقفر ونعته الداخل بالكرم وأنه خير بني أمية ، وبنو أمية خير من على الأرض .. فهذه المعاني

كلها مألوفة في الشعر القديم ، كما تتسم بالبساطة وبالبعد عن الابتكار . وهي تنطوي في الوقت نفسه على طابع المبالغة التي اتسم بها شعر المديح التقليدي . ولا يختلف سائر شعره في المديح عن هذا الطابع ، فهو إذ يمدح سليمان بن الداخل يقول :

أما سليمان السماح فانه   جلّى الدجى وأقام ميل الأصعر

على أن الشاعر يبدو مبدعاً في شعره الذاتي حين يجنح إلى تصوير محنته مع العمى ، وخير الشعر ما صدر عن تجربة ومعاناة :

وهمٍ ضافني في جوف ليل   كلا موجيهما عندي كبير

فبتنا والقلوب معلقات   وأجنحة الرياح بنا تطير

حقاً لقد شبه امرؤ القيس الليل بموج البحر وجمله يرخي سدوله بأنواع الهموم ، وتصوره جملاً كبيراً يتمطى بصلبه ، ولكن ليس ثمة ترابط وثيق بين الليل والجمل [1] . على حين يصور أبو المخشي ليله الدامس بحراً عظيم الموج وراءه بحر آخر زاخر من الهموم ، وبين هذين الموجين تبقى القلوب معلقة من الأسى حيث تطير بها الرياح جزعاً وغماً . إنها صورة حية مفعمة بالحركة ، ولعلها تزداد جمالاً إذا قدّرنا أن الشاعر إنما كان يصف ليله الأبدي وراء ظلمات العمى .

وكان من أواخر شعره بعد أن عمر طويلاً وساءت حاله قوله واصفاً

---

(١) عمد إلى المقارنة بين الشاعرين الجاهلي والأندلسي د . أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي ص ٩٩

مأساته وبقاءه عالة على امرأته الوفية التي كانت عاجزة بدورها تبكي محنة زوجها وبؤس حالها :

أمْ بنياتي الضعيف حويلها   تعول امرأً مثلي وكان يعولها [1]
إذا ذكرت ماحال بيني وبينها   بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

الحكم الربضي * :

وهو حفيد الداخل ، ويلقب بالربضي نسبة إلى حادثة الربض التي استطاع خلالها بسعة حيلته أن يقضي على فتنة سوداء قام بها أهل الربض المولدون بظاهر قرطبة ، واجتاحوا قصره وكادوا يودون بحكم بني أمية في الأندلس . وقد عُرف بنزعته المتحررة ، وميله إلى اللهو ، وولعه بالصيد ، وإيثاره للندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء . وهذا ما أسخط عليه المتزمتين الذين ألبوا عليه العامة بعد أن آنسوا لديه تصدع منزلتهم التي كانت لهم في عهد أبيه هشام ، وكان من آثار ذلك كله ثورتهم عليه .

وكان الحكم الربضي بن هشام من ناحية أخرى كجده الداخل أميراً مغامراً ، وحاكماً حازماً وفارساً مقداماً ، خضد شوكة مناوئيه ووطد الحكم لنفسه ولذويه [2] .

---

(1) الحويل الحول والقوة والقدرة .

* هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولد سنة ١٥٤ ونشأ في بيت الامارة الأموية بالأندلس . حكم البلاد بعد موت أبيه هشام سنة ١٨٠ ﻫ وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره .

(2) روي أنه تمطر بالغالية والمسك يوم الربض بعد أن توقع الهلاك وذلك كي يعرف رأسه من بين القتلى .

والحكم في جانبه الآخر أديب مجيد وشاعر وخطيب ، وأدبه على قلته يعكس حياته الحافلة بالأحداث . ومما نظمه مفتخراً ببأسه وظفره في موقعة الربض قوله [1] :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعاً
وقِدْماً لأمت الشَّعب [2] مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرةٌ
أبادرها مستنضيَ السيف دارعا

ولما تساقينا سجالا حروبَنا
سقيتهم سماً من الموت ناقعا

وهل زدت أن وفَّيتهم صاع قرضهم
فوافوا منايا قُدرت ومصارعا

فهاك بلادي إنني قد تركتها
مهاداً ولم أترك عليها مُنازعا

وهذا أيضاً شعر يجمع بين الحماسة والفخر وفق تقاليد الشعر العربي وينطوي على ما ينطوي عليه هذا الشعر من المعاني والصور التي أصبحت بمثابة رواسم يحتذيها الشعراء في مشرقهم ومغربهم ، من مثل تبادل دلاء الحرب

(١) وردت هذه الأبيات مع سائر القصيدة في كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٣٢ وانظرها أيضاً في كتاب الأدب الأندلسي لأحمد هيكل ص ٨٠

(٢) الشعب هنا بمعنى الانشعاب أي التصدع .

وسقي العدو خلالها سم الموت الناقع ، ثم ارتداد كيدهم إلى نحرهم ليذوقوا الموت الذي حاولوا إذاقته سواهم .

على أن هذا الشاعر الأمير والقائد المحارب يرق في غزله حتى ليبدو عاشقاً وادعاً تيمه الحب وأضناه الشوق ، ومع ذلك فان ملامح الإباء والاعتداد بعزة الملك تأبى إلا أن تطل من خلال نجواه :

ظل من فرط حبه مملوكاً
ولقد كان قبل ذاك مليكا

إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً
وبعاداً يدني حماماً وشيكا

تركته جآذر القصر صباً
مستهاماً على الصعيد تريكا

يجعل الخد راضياً فوق تُرب
للذي يرتضي الحرير أريكا

هكذا يحسن التذلل بالحرّ
إذا كان في الهوى مملوكا

ويبدو من سمات الحكم في شعره أخيراً أن معانيه تتسم بالمبالغة ، سواء في فخره أو في غزله ، فهو يجنح إلى إظهار غاية القوة والبأس في حماسياته ، كما يجنح في مقابل ذلك إلى إظهار غاية اللين والضعف في غزلياته . ولا ريب أن ذلك مستمد من طبيعة شخصيته وكونه أميراً مظفراً لا يرى عليه بأساً في أن يضائل نفسه إذا كان الأمر بعيداً عن سدة الملك وأمام سلطان الحب .

عباس بن ناصح * :

ومن شعراء هذه المرحلة في عهد الإمارة الأموية عـدد آخر لم تكن أيضاً أخبارهم وفيرة ، وأشعارهم غزيرة لعل أبرزهم عباس بن ناصح الذي كان شعره ـ كسائر معاصريه ـ موزعاً بين المديح والفخر والحماسة وينطوي بعضه على ملامح التطور والتجديد . وقد مدح ابن ناصح الحكم الربضي في مناسبات متعددة . ومن شعره الذي يتسم بالطابع التقليدي وتبدو عليه آثار البداوة :

تململت في (وادي الحجارة) مسهداً
أراعي نجـوماً مـا يردن تغـيرا

إليـك أبـا العاصي نضيت مطيتي
تسـير بهـم سارياً ومهجّرا

غير أن أكثر شعره عبثت به يد الزمان ولم يبق منه سوى شذرات ، شأن الكثيرين في هذا العهد المبكر من حياة العرب في الأندلس .

حسانة التميمية * :

ومن الشعراء أيضاً حسانة التميمية ، وقـد مدحت الحكم الربضي ومن

---

* هو أبو المري عباس بن ناصح الثقفي من أهل الجزيرة الخضراء رحل مع أبيه إلى المشرق والتقى أبا نواس ، ثم عاد وفي ذهنه علم وفير وتطلع إلى التجديد ، وفي أبياته هذه حض للحكم على إغاثة أهل وادي الحجارة ، انظر الأبيات في نفح الطيب ١ : ١٦٠

* انظر أخبارها وأشعارها في نفح الطيب ٢ : ٤٢٨ ، ٤٨٨ . كان والدها أبو الحسين شاعراً وتأدبت عليه في ثغر إلبيرة وقـد لاذت بعـــد موته بالأمير الحكم ابن هشام .

بعده ابنه عبد الرحمن الأوسط ونالت جوائزهما . ولعلها أول شاعرة تطالعنا في الأندلس . ومما قالته في الأمير الحكم بعد موت أبيها الشاعر أبي المخشي :

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له
وملّكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً
آوي اليه ولا يعروني العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتدياً
حتى تذل إليك العرب والعجم

ولما مات الحكم نكل عامله على إلبيرة عن الوفاء بعطائها ، فجاءت عبد الرحمن الأوسط تذكره بما كان من فضل أبيه فأنصفها وعزل عامله الذي ظلمها . وكان مما خاطبته به مصورة ما حاق بها من ظلم :

فاني وأيتامي بقبضة كفه كذي ريش اضحى في مخالب كاسر(٢)

من الملاحظ أن هذه الأبيات تذكرنا بأبيات الحطيئة في استعطافه لعمر ابن الخطاب ، وهذا يعكس اتكاء بعض الشعراء في هذه المرحلة من حياة الأندلس على نتاج المشارقة . ومع أن الشاعرة استهلت أبياتها بالمعنى التقليدي الذي يصور المرء على البعد وقد شد الرحال إلى ممدوحه موئل الندى فان هذا المعنى يبقى جميلاً طريفاً لأنه يعبر عن واقع تلك المرأة التي كانت تعاني الأمرين وتلجأ إلى هذا وذاك من رجال الدولة لتحصل على ما يقيم أود أولادها . ومن

(١) انظر مختارات من الشعر الأندلسي ، نيكل ١٢
(٢) انظر الأبيات في كتاب نفح الطيب للمقري ١ : ٤٣٨

سمات البراعة في هذا الشعر صورتها في البيت الأخير وقد انطوت على البساطة والجمال في تعبيرها الحي عن تجبر الظالم وقهر المظلوم معاً . وهذا على أية حال شعر ينم على شخصية قائلته بصدق وتتجلى فيه بحرارة طبيعة المرأة ، من حيث أنوثتها وضعفها ورقتها وفرط إحساسها بالقهر ومعاناتها لمشاعر القلق وصراخها في طلب الغوث وإلحاحها على اللوذ بالكنف والبحث عن الرعاية [1] .

يحيى الغزال * :

يعد هذا الشاعر بمثابة تلميذ للشاعر عباس بن ناصح الذي استفاضت شهرته أيام الحكم الربضي ، وكان قد اتصل به في نشأته وحاوره في بعض شعره وانتقده . وقد مضى من بعده في إيثار المنحى الجديد في الشعر . لقب بالغزال لوسامته وظرفه ، وعاش عمراً مديداً خلال ١٥٦ - ٢٥٠ هـ وهو من أسرة تنتسب إلى قبيلة بكر بن وائل ، وكان أديباً عالماً ذكياً حسن الأخلاق والمعاشرة وينزع بطبعه إلى التحرر والانطلاق . ويقال إنه تمادى في تصيد النفع مما أسخط عليه أمير قرطبة : عبد الرحمن الأوسط فزجه في السجن ، ولكنه خلى سبيله بعد أن استعطفه بقصيدة رقيقة .. ونظراً لمواهب الغزال وفطنته وذكائه فقد أوفده أمير البلاد إلى القسطنطينية في سفارة إلى

(١) انظر الأدب الأندلسي د . أحمد هيكل ١٠٧

* انظر أخباره وأشعاره في نفح الطيب للمقري ١ : ٤٤١ - ٤٤٦ و ٢ : ٢٥٦ - ٢٥٩ . والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ١٣٣ - ١٥٦ . وجذوة المقتبس للحميدي ، الترجمة ٨٨٧ . وبغية الملتمس للضبي ، الترجمة ١٤٦٧ . والمغرب في حلى المغرب للمغربي ٢ : ٥٧ . والأدب الأندلسي للدكتور أحمد هيكل ١٢٩ ، ١٥٦ - ١٧٠

الامبراطور البيزنطي توفلس Théophile استجابة لرغبـة الامبراطور في عقـد معاهدة مودة بين قرطبة والقسطنطينية . وقد نجح في سفارته وانتزع إعجاب الامبراطور وزوجتـه تيودورا Theodora ، وكانت على حظ كبير من الجمال ، وهناك أشاد بمحاسنهـا في بعض شعره كما أشادت هي بذكائه وسرعة بديهته ، فبادلته إعجاباً باعجاب .

وقـد كان من حصيلة زيارة الغزال للقسطنطينية سفيراً وتعرفـه على الامبراطورة تيودورا مقطعاتٌ شعرية طريفة يشيع في أكثرها المرح ، وتسري في أعطافها الدعابة . ومن هذا القبيل قوله في « تود » ولعله اسم الامبراطورة تيودورا مرخماً [1] :

كلفتَ يا قلبي هـوى متعِبـا	غالبتَ منـه الضيغم الأغلبـا
إني تعلقـت مجوسـية	تأبى لشمس الحسن أن تغربا
يا تود ، يا رود [2] الشباب التي	تُطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخص الذي لا أرى	أحلى على قلـبي ولا أعذبـا
إن قلت يوماً إن عيني رأت	مُشبهه لم أعدُ أن أكذبا

(١) حقق الاسم على هذا النحو المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ، وذكر أن الغزال القى أبياته هذه على مسمع من امبراطورة بيزنطة تيودورا في إثر إيفاد الأمـــير عبد الرحمن الأوسط له إلى امبراطور القسطنطينية سفيراً في مهمة سياسية ترمي إلى توطيد التحالف بين الحاكمين . ويجنح إحسان عباس في كتابه تاريخ الأدب الأندلسي إلى أن القصيـــدة تشير إلى رحلة أخرى قام بها الغزال إلى بلاد النورمان أي الدانمارك . وربما كان سبب نعت الشاعر للمرأة بالمجوسية ما كان يتوهمه العرب بأن هؤلاء الافرنج كانوا على دين المجوس لاعتيادهم إيقاد النيران حول معسكراتهم .

(٢) رود الشباب ورؤده : حسنه ورونقه

قالت أرى فَوديه قد نَوَّرا	دعابةٌ توجب أن أدعَبا
قلت لها يا بأبي إنه	قد يُنتَج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عُجْباً بقولي لها	وإنما قلت لكي تعجبا

قال ابن دحية في كتابه « المطرب من أشعار المغرب » في مناسبة هذه القصيدة : « وكان الغزال في اكتهاله وسيماً ، وكان في صباه جميلاً ، ولذا سمي بالغزال . ومشى إلى بلاد المجوس سفيراً وهو قد شارف الخمسين وقد وخطه الشيب .. فسألته يوماً زوجة الملك واسمها تود عن سنه فقال مداعباً : عشرون سنة ، فقالت للترجمان : ومن هو في عشرين سنة يكون به هذا الشيب فقال للترجمان : وما تنكر من هذا ؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب ؟ فضحكت تود وأعجبت بقوله ، فقال في ذلك الغزال بديهاً ... »[1] .

وتنطوي هذه الأبيات على ما انطوت عليه الأبيات السابقة من رقة وعذوبة ومن يسر وسهولة ، كما يزينها أيضاً هذا القص الشائق الذي يعتمد على الحوار الرشيق الحي ، المفعم بالدعابة والمرح . وقد اختار الشاعر لمعانيه المتوثبة البحر السريع الذي يلائم هذا التحاور القصير والإجابات اللماحة . ولا ريب في أن طرافة الأبيات ناجمة عن تفرد التجربة الشعورية التي مرت بالشاعر وخصوصية الحالة التي عاش في جوائها ، ولهذا اتسمت قصيدة الغزال هذه بالابتكار والمعاصرة ، وابتعدت في الوقت نفسه عن صفات الاتباع والمحافظة ، برغم ورود عدد من الألفاظ والصور التقليدية التي أصبحت رموزاً باقية الأثر

(١) انظر المطرب ١٤٤ . وانظر سائر الأبيات أيضاً في نفح الطيب ٢ : ٢٥٧

في الشعر العربي ، كذكر الضيغم رمزاً للقـوة ، والشمس عنواناً للجمال ، والزهر صورة للشيب .

وحين عاد الغزال إلى قرطبة ورأى تلك الحظوة الـتي تمتع بهـا زرياب عند الأمير عبد الرحمن الأوسط وعند أهل الأندلس قاطبة ـ وكان قـد وفد اليهـا مؤخراً من بغداد ـ داخله الحسد من زرياب الذي كان أيضاً على قـدر كبير من اللباقة والأناقة والذكاء والفن .. فعمـد إلى هجائه ، وإذ ذاك سخط عليه الأمير وقرر نفيه . ولكن بعض من كانوا يتعاطفون معه شفعوا له عنـد الأمير فصفح عنه .

ويبدو أن مزاجه الحاد جعله يضيق بعقامـه في الأندلس ، فشد الرحال نحو المشرق ثانية وقصد إلى بغـداد . وقد أتيح له في العراق اللقاء بالكثيرين من الأدباء والشعراء ، واستطاع بفضل طلاقة لسانه وجودة شعره وبخاصة في وصفه للخمرة أن ينتزع إعجابهم ، وأن يرفع من شأن الشعر الأندلسي في أعينهم .

ولم يلبث الحنـين إلى الأندلس أن عاود الغزال فرجـع إلى وطنـه ، واستقرت به النوى ، وكان الهرم قـد أدركه فأقلـع عن الشراب وجنح إلى الزهد ، حتى مات في منتصف القرن الثالث بعد عمر مديد .

ومن شعره في الخمرة :

تداركت في شرب النبيـذ خطائي [1]

وفارقت فيـه شيمتي وحيـائي

---

(١) خطائي : جهلي وقصوري

ولما رأيت الشَّرب أكدت [1] سماؤهم
تـأبطت زقي واحتسبت عنـائي

فلما أتيت ألحان ناديت ربـه
فهب خفيف الروح نحـو ندائي

قليلٌ هجـوع العـين إلا تعـلةً [2]
على وجـل مني ومن نظرائي

فقلت أذقنيهـا ، فلما أذاقـني
طرحت اليـه ريطتي [3] وردائي

ومثل هذه الأبيات يعد انعطافاً بالشعر العربي في الأندلس نحو الحداثة ، أو الأندلسية . ولم يكن للاتجاه المحـدث قبل ذلك سوى بواكير قليلة تجلت لدى عباس بن ناصح الذي سبق له أن رحل إلى المشرق وحظي بتقـدير أبي نواس . ومع أن الشعر التقليدي المحافظ ظل سائداً يحظى بأنصار كثيرين ، فان هـذا المنحى الجديد كان في الواقع تجاوباً فعالاً مـع حركة التجديد في الشعر العباسي التي كان من أقطابها عهدئذ في المشرق بشار وأبو العتاهية وأبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو تمام ...

ولعل الرقة أبرز خصائص هذه الأبيات إذ اختفت فيها الجزالة المعهودة لدى الشعراء بعد أن تخلى عنهـا الشاعر الغزال لما بين الرقـة وبين موضوعه

---

(١) أكدت السماء : توقفت عن المطر ، وأكدي الرجل إكداء : قل خيره . والشرب : الشاربون ، ولعله يريد أنهم ارتووا من الشراب

(٢) التعلة ما يتعلل به ، وهو القليل

(٣) الريطة : الثوب الرقيق . والأبيات من المطرب لابن دحية ١٤٨

ـ أي وصف الخمرة ـ من تناسب . وهو موضوع يـكاد يكون مستحدثاً في مطالع العصر العباسي ، حين تألقت أبهى نماذجـه بفضل شاعرية أبي نواس ونزوعه إلى التجديد . كذلك اتسمت الأبيات بالسهولة وخلت من الغريب .. كل هذا جعل قصيدة الغزال عذبة سائغة تلامس الأسماع بلطف وتترقرق في النفس بعذوبة . على أن أجمل ما في هذه الأبيات هو هذا القص المحبب بما انطوى عليه من حوار رشيق بين الشاعر والساقي ، وما أعقب ذلك من طرحه اليه الريطة والرداء من تأثير الخمرة وفرط النشوة .

وقـد روى ابن دحية أن الشاعر الغزال أنشد هـذه القصيدة في بغداد على أنهـا من شعر أبي نواس وذلك في مجلس ضم عـدداً ممن أزروا بالشعر الأندلسي وكانوا من ناشئة الأدب والمعجبين بالشاعر العباسي ، فانتشوا لسماعها ، ثم لم يلبث الغزال أن واجههم بالحقيقة فخجلوا منه وأعجبوا به [1] .

وربما كان من خصائص هذا المنحى المحدث التي لمسناها في هذه الأبيات أن قائلها بات يجنح فيها إلى شيء من التفصيل بصدد المضمون ، وهذا في الواقع من متممات ظاهرة القص . يضاف إلى ذلك أن روح الدعابة التي سرت خلال هـذه الأبيات ، وما انطوت عليه من اجتراء وتحلل من الرزانة ... تعـد من أبرز سمات التجديد في الشعر الأندلسي المحدث الذي بدا في أحيان كثيرة وكأنه يسعى إلى أن يستقل عن مألوف الشعر ويبتعـد عن مساره متطلعاً إلى الاتسام بملامح جديدة متميزة .

---

(١) المطرب من أشعار المغرب ، ابن دحية ١٤٧

ملامح الشعر في هذه المرحلة :

يغلب على الظن أن شعراء الأندلس في هذه المرحلة المبكرة نسبياً من حياتهم هناك لم يكونوا يحظون بالتقدير الذي يستحقونه من بني قومهم برغم ما كانوا يتحلون به من مواهب ، فالناس هناك ما زالوا يشيحون بوجوههم عن شعرائهم ويرون في المشرق قبلة الفن والابداع . وقد علق ابن دحية الأديب الأندلسي على هذه الظاهرة بعبارات مفعمة بالأسى والمرارة وذلك بصدد بعض أشعار الغزال فقال « إن هذا الشعر لو روي لعمر بن أبي ربيعة أو بشار بن برد أو العباس بن الأحنف ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسياً أنه كان أندلسياً ، فما له أخمل وما حق لمثله أن يهمل »[1] .

وبوسعنا أن نخلص من خلال ما وقفنا عليه من ملامح الأشعار ومنازع الشعراء أن المحافظة هي الظاهرة الفنية البارزة التي ظلت تسم الشعر الأندلسي أمداً طويلاً . وحتى في الحالات التي كان يتاح خلالها لقلة من الشعراء النابهين أن يشبوا عن الطوق ويحاولوا الخروج من فلك المحافظة والاحتذاء فان الذوق العام في الأندلس كان مطبوعاً بهذا الطابع التقليدي ، مستمرئاً سمات المحافظة ، ألوفاً لريح المشرق . وحتى بعد هذا العهد لم يتغير الوضع كثيراً بالنسبة إلى الشعراء في الأندلس ، فلكي يعترف بهم في دولة الأدب كان يلزمهم بالضرورة ـ كما يقول كراتشكوفسكي ـ إقرار وتصديق من الشرق[2] . ومثل هذا

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب ١٣٥

(٢) الشعر العربي في الأندلس ١١

الشعور بالضيق والمرارة نجده عند العديدين من الأندلسيين الأعلام كابن عبد ربه وابن دحية وابن بسام وابن حزم .. وقد عبر ابن حزم عن هذه الظاهرة باسهاب في رسالته الهامة « فضل الأندلس »[1] كما أطلق في شعره زفرة مماثلة مفعمة بالمرارة والأسى[2] .

ولا ريب في أن التبعية الأدبية للمشرق ـ إن صح التعبير ـ كانت ترجع إلى عوامل نفسية راسخة وحوافز شعورية متأصلة ، ترتكز في جملتها إلى تراث حافل وجذور بعيدة .

وهنا لا بد من جلاء وهم قد يكون عالقاً في بعض الأذهان ، وهو أن ظاهرة الارتباط هذه بالأرومة العربية في المشرق ، سواء أكانت سلبية تتمثل في الجنوح إلى التميز والمباهاة ، أو إيجابية تتجلى في الدأب على الاحتذاء والمحاكاة ... لا تعني أن الأندلسيين كانوا مجرد مقلدين ، وأنهم يعيشون حياتهم الأدبية عالة على المشارقة بحيث يدورون في فلكهم وينسجون على منوالهم . إن الظروف التي عاشها الأندلسيون ، تاريخية واجتماعية وسياسية وشعورية .. هي التي كانت تقتضي منهم ذلك الارتباط النفسي بعهد عروبتهم وتراثهم ودينهم . لقد كانوا هم وعرب المشرق على حد سواء ينهلون من معين واحد ، ويصدرون فيه عن مدرسة واحدة هي مدرسة المحافظة . ومن هنا كان الأندلسيون

---

(١) نفح الطيب ٢ : ٧٦٧

(٢) سنأتي على ذكر القصيدة في فصلنا عن ابن حزم في هذا الكتاب . وانظر أيضاً كتاب الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٤٥ ، وجذوة المقتبس ، للحميدي ٢٩٢

يجنحون إلى استهلال معاركهم بالخطب الجزلة ، والتعبير عن منازعهم ومشاعرهم في تلك الظروف المشابهة لظروف اخوانهم بقصائد الفخر والحماسة التي استدعتها حياة الصراع السياسي والتخاصم القبلي ، أو بقصائد المدح والهجاء التي اقتضتها طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية المشابهة لأحوال الحياة العربيـة في المشرق . يقوم نزاع فيتفاخرون ، ويظفر قائد أو أمير بعدوه ويوطد ملكه فتلهج الألسنة بمديحه .. واللغة هي اللغة بألفاظها وظلالها وعباراتها وصورها تتمانق جميعاً على غرار أرفع قصائدها وآصل أساليبها وأعرق شعرائها .



أحمد بن عبد ربه

هو أبو عمر أحمد بن عبد ربه * ، ولد في قرطبة عاصمة الأندلس سنة ٢٤٦ هـ ، وتلقى العلم على شيوخ عصره ، فدرس الفقه والتاريخ ، ثم عني بممارسة النظم والكتابة ، وأدام النظر في كتب المشارقة .

ويبدو من أخبار ابن عبد ربه وأشعاره في مرحلة فتوته وشبابه أنه كان يجنح للمتعة ويميل إلى اللهو ، ولكنه لم يكن ماجناً متهتكاً . وقد اتصل بأمراء بني أمية في أواخر القرن الثالث ومدحهم ونال عطاءهم . كما أدرك حقبة من حكم عبد الرحمن الناصر في ضحى القرن الرابع . وفي هذه المرحلة من سيادة قرطبة تحول الحكم من نظام الامارة إلى نظام الخلافة . وشهد ابن عبد ربه في عهد الناصر فجر العصر الذهبي لحضارة العرب في الأندلس .

---

* انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي ٩٤ ، الترجمة رقم ١٧٢ ، وفي مطمح الأنفس لابن خاقان ٥١ ، ومعجم الأدباء ٢ : ٦٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٩٢ ، والمطرب لابن دحية ١٥١ ، وبغية الملتمس للضبي ٣٢٧ ، وانظر أيضاً الأدب الأندلسي لأحمد هيكل ٢٣٢ ، وفي الأدب الأندلسي لجودة الركابي ٨٧ ، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس لرضوان الداية ٢٧٩ ، وابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ، وظهر الاسلام لأحمد أمين ٣ : ٨٥ وتاريخ الأدب الأندلسي لاحسان عباس ١٨٣

ويعتقد بعض الباحثين أن ابن عبد ربه رحل إلى المشرق وأنه أفاد من ذلك في « توسيع الدراسة وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق »[1] ، وإن صح حدوث هذه الزيارة فقد تكون قد اقتصرت على أداء فريضة الحج دون أن تتعدى إلى أبعد من ذلك من نحو بلوغ سائر بلاد العرب في الشام والعراق . ومع هذا فما من مصدر في القديم يشير إلى أن ابن عبد ربه قد غادر بلاد الأندلس . وأغلب الظن أن كل ما جاء في كتابه « العقد الفريد » حول المشارقة وأخبارهم وأدبهم إنما كان عن طريق السماع والنقل .

وكان ابن عبد ربه أديباً موهوباً متعدد الجوانب ، فهو شاعر مجيد وكاتب بليغ ، ومؤلف بارز . ويعد كتابه « العقد الفريد » معرضاً لأدبه وذوقه ، فقد انطوى على مقاطع نثرية عمد إلى تدبيجها قبل كل باب وأسماها « الفرش » ، وكان يدلي بشعره بين دلاء الشعراء ، كما افتن بالإضافة إلى ذلك بنظم أبواب كتابه على صورة عقد ثمين مسمياً كل باب باسم جوهرة من الجواهر ، على عادة الأندلسيين في حب الزينة وإيثار الترف[2] .

وقد جنح الشاعر إلى العزلة والعبادة بعد أن شاخ وهرم ، وأخذ يميل إلى نظم شعر الحكمة والزهد ، على غرار ما جنح اليه من قبل يحيى الغزال في الأندلس وأبو نواس في المشرق .

على أن كثيراً من شعر ابن عبد ربه قد ضاع ، والذي وصل الينا إنما

(١) الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٢٣٢
(٢) مصادر التراث العربي ، عمر الدقاق ١٥٧

احتواه كتابه « العقد » وكتاب الثعالبي « يتيمة الدهر » ومقطعات أخرى في كتب التراجم والأدب .

وقد امتد الأجل بابن عبد ربه حتى سنة ٣٢٨ هـ حين أدركته الوفاة ، فترك موته فراغاً كبيراً في الأندلس ، لم يملأه أحد سوى أبي علي القالي الذي كان آنئذ في طريقه إلى المقام في الأندلس وفي قرطبة نفسها مدينة ابن عبد ربه .

ويعد ابن عبد ربه في نظر مؤرخي الأدب أول شاعر كبير عرفته الأندلس .

لقد أكثر ابن عبد ربه من وصف الغيد الحسان ، واتسم اسلوبه في أكثر غزله بالعذوبة والرقة وقرب المأخذ ، كما تبدو على عبارته مسحة الحضارة وبهجة الحياة ، ومن ذلك قوله :

يا مقلة الرشأ الغرير وشقة القمر المنير
ما رنقت عيناك لي بين الأكلة والستور
إلا وضعت يدي على قلبي مخافة أن يطير

فاذا ما تجاوزنا تشبيهه عين الرشأ الغرير ، وهو تشبيه لا يعد تقليدياً بقدر ما غدا رمزاً لجمال العيون في المجتمع البادي والمتحضر على السواء ، فان ملامح الحضارة والنعيم إنما تتجلى في الفاظ الأكلّة والستور ..

ولعل السهولة مفتاح شخصية ابن عبد ربه في شعره ، حتى إنه لا يوغل في المجاز ولا يغوص على المعنى ، وليس إلا أن ينظم بخفة ورشاقة ويسر وعذوبة ، ومن هنا كانت عبارته تلذ للأذن وتترقرق في السمع دون أن يكون

وراءها معنى عميق أو تصوير مبتكر . ولعل مصداق ذلك بيته الأخير .

ومن هذا القبيل أيضاً قوله :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله دراً يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

ففي هذه الأبيات أيضاً ذكر لألفاظ الزينة والحلي التي تنم على ميل الأندلسيين إلى التجميل والزخرفة من مثل اللؤلؤ والدر والعقيق . ولعل ما يلاحظ فضلاً عن ذلك من هذا الطابع الأندلسي تلك الفتاة الأندلسية المولدة ببشرتها البيضاء التي أشبهت اللؤلؤ ولم تلبث من الحياء والخفر أن توردت وتشرب وجهها بالحمرة فغدا كالعقيق . أما أثر الصنعة فهو جلي في حرص الشاعر على التصريع حتى في المقطعات وذلك بين قافيتي المطلع : أنيق ورفيق والمجانسة بينهما ، كذلك مطابقته بين الدر والعقيق أو تدبيجه العبارة باللون الابيض واللون الاحمر ، ثم إيراده أخيراً هذا الطباق الجميل طباق السلب الذي يرتكز على التضاد بين رقة خصر الحبيب وعدم رقة قلبه ...

وتتجلى السهولة واليسر في اللفظ وفي القافية وفي البحر على السواء في مثل قوله :

أعطيته ما سألا حكّمته لو عدلا
وهبته روحي فما أدري به ما فعلا

قلبي به في شغل	لا ملّ ذاك الشغلا
قيـده الحب كما	قيـد راعٍ جمـلا

فمثل هذا الشعر يكاد يقترب من لغة الحـديث غير أنه موقّع مقفى ، وعبارات ابن عبد ربه في هذه الأبيات قريبة المأخذ تكاد تتردد دوماً على ألسنة المحبين . وإذا كان مثل هـذا الشعر لا يرضي أنصار المعنى فانه يرضي على كل حال دعاة اللفظ المأنوس والايقاع الراقص ، وهم بطبيعة الحال كثيرون .

أما هـذه الظاهرة ونعني بهـا السهولة والرقة فلم تكن سائدة في الشعر الأندلسي على هذا النحو قبل عصر ابن عبد ربه ، ولعلهـا واجهتنا أول الأمر بصورة بارزة في شعر يحيى الغزال ، على حـين كانت سـمات غرابة اللفظ وجزالته هي طابع الأشعار السالفة . ومثل هذه الظاهرة إنما نجدها في الوقت نفسه وعلى هـذا النحو أيضاً لدى الشعراء المشارقـة في العصر العباسي ، عصر التحضر والتنعم والبهجة والمتعة .

ومن قصائد الغزل التي عرف بها أحمد ابن عبد ربه لاميته التالية [1] :

أتقتلني ظلمـاً وتجحـدني فضلي	وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
أطلاب ذحلي ليس بي غـير شادن	بعينيه سحر فاطلبوا عنده [2] ذحلي
أغار على قلـبي فلمـا أتيتـه	أطالبـه فيـه أغار على عقلي
بنفسي الـتي ضنت برد سـلامها	ولو سألت قتلي وهبت لهـا قتلي
إذا جئتهـا صدّت حياء بوجههـا	فتهجرني هجراً ألذّ من الوصل

(١) أثبت ابن عبد ربه قصيدته هذه في كتابه « العقد الفريد » ٣ : ١٣٧

(٢) الشادن : ولد الغزال ، والذحل : الثأر

وإن حكمت جارت عليَّ بحكمها | ولكن ذاك الجور أشهى من العدل
كتمت الهوى جهدي فجرده الأسى | بماء البكا ، هـذا يخط وذا يملي
وأحببت فيها العذل حباً لذكرها | فلا شيء أشهى في فؤادي من العذل
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى | إذا ما أُبيتَ العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى | وأمرك لا أمري وفعلك لا فعلي
وجدتُ الهوى نصلاً من الموت مغمداً | فجردتـه ثم اتكأت على النصـل
فإن كنتَ مقتولاً على غير ريبة | فأنت الذي عرضت نفسك للقتل

هذا الحبيب الذي أصاب شاعرنا العاشق بسهام لحظه فأصمى ثم أردى ، هل كان يدري ماذا جنت عيناه الفاتكتان ؟ . هكذا يمضي شاعرنا في تصوير العلاقـة بينه وبين فتاته وكأنهـا حرب بينه وبين كائن شديد البأس ، ولهـذا أضحى قتيلاً ، ولم يكن قاتله غـير ذلك الحبيب . فان كان ثمـة من يتصدى للأخذ بثأر العاشق الصريع فليس أمامه غير هـذا الغزال الرشيق الذي جعل دأبه الاغارة على قلوب المحبين وسلبهم إياها . إنه غزو وقتل وسـطو ، فثمة حبيب فاتك ومحب صريع ، ولا بد أن يستتبع ذلك أخذ بالثأر ، وما ذلك القاتل سوى شادن جميل العينين .. ومن هنا يبدو جلياً كيف عمد الشاعر إلى استمداد صوره ومعانيـه الجزئيـة من حياة العرب ومن عاداتهم الأصيلة ومن بيئتهم البدوية .

وعلى هـذا الغرار يصف الشاعر بعـد ذلك صدود الحبيب وإعراضـه ، واستسلام المحب لمشيئة المحبوب ولو كان في ذلك هلاكه ، جرياً على ما ألفه شعراء الغزل والنسيب من تصوير دل الحبيب وتحكمه ، وضعف العاشق وخضوعه .

ومع ذلك فشاعرنا يستعذب كل ما تنزل به محبوبته من سوء ، ويغتفر لها كل ما تلحقه به من أذى حتى بات يرى هجرها ألذ من الوصل وجورها أشهى من العدل ، وهذا نوع من المازوكية يجعل المرء يتلذذ بتعذيب نفسه إرضاء لمن يحب . وقد بلغ ذلك منه أنه بات يستعذب لوم اللائمين على تماديه في حبها ، بل يحرص على الاستزادة منه ما دام ينطوي على ذكر اسمها . وهذا يذكرنا بقول الشاعر مرة المكي :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة　　　لقد سرني أني خطرت ببالك

ومن عناصر جمال القصيدة من خلال رصد عاطفة الشاعر نحو من يحب ، جنوحه في أبياته الأربعة الأخيرة إلى مناجاة قلبه على هذا النحو الشجي ، مجرداً منه كائناً ثانياً انساق وراء نزوته فحق عليه أن يعاني مرارة الحب ولوعة الصدود ، وأن يتحمل جريرة تمرده وجموحه ، لأنه هو الذي أشعل نار الحب وعليه هو أن يكتوي بلهيبه ، ومثل هذا الأسلوب ينطوي على جدلية طريفة تجعل التعبير متسربلاً بصراع محبب وحركة معجبة .

وإن حرص الشاعر على ابراز التضاد بين حاله وحال محبوبته دعاه إلى أن يعتمد على الطباق في اسلوبه من ذكر الظلم والعدل ، والهجر والوصل والعز والذل ، ونحو ذلك مما نجده في العديد من أبيات القصيدة .

فاللوحة التي تجلت أمامنا من خلال هذه القصيدة إنما عمد ابن عبد ربه إلى رسمها بريشة عريقة ومداد قديم ، وذلك على نحو يغاير بعض الشيء سائر مقطعاته في الغزل .

كل ما تقدم يكشف عن السمات التقليدية وعناصر المحافظة في لامية ابن عبد ربه هذه . ولم يكن هـذا النزوع عارضاً عند الشاعر أو صادراً عن لا شعوره بل إنه قصد اليـه قصداً كما تدل على ذلك عبارته التي يوردها في عقده الفريد قائلاً : « ومما عارضت به صريع الغواني » في قوله :

أديرا علي الراح لا تشربا قبلي ... ولا تطلبا من عنـد قاتلتي ذحلي

فيا حزني أني أمـوت صبابة ... ولكن على من لا يحـل له قتلي

فديت التي صدت وقالت لتربها ... « دعيه ، الثريا منه أقرب من وصلي »

فابن عبد ربه كان فيما يبدو ـ مفتوناً بهذه الأبيات التي سبق أن نظمها مسلم ابن الوليد . وحق له ذلك . ولكنه كان في الوقت نفسه معتداً بشعره ، مزهواً بأدبه ، واثقاً من نفسه . وهذا ما حفزه إلى معارضة صريع الغواني في أبياته الجميلة . ولولا هذا الشعور الذي كان ينطوي عليه الشاعر ابن عبد ربه من ثقة واعتداد لما أثبت أبيات الشاعر العباسي وأتبعها قصيدته . وكأن لسان حاله يقول هذا شعره وهـذا شعري ، ويريد بذلك أن يجري هو والشاعر المشرقي كفرسي رهان . وهذه الظاهرة الفنية تتيح على أية حال فرصة الدراسة النقدية المقارنة بين القصيدتين .

أما النزعة إلى المعارضة عنـد ابن عبد ربه فلا تتجلى في هـذه القصيدة فحسب بل تكاد تكون شاملة في مذهبه الأدبي برغم جنوحه إلى التجـديد . ولكنه تجديد ضمن إطار القديم وداخل فلكه ، وهذا جلي من خلال ما كان يصدر عنه من أقوال وأحكام في كتابه العقد الفريد . بل إن تأليف كتابه الكبير هذا لم يكن الحافز عليه إلا تلك الرغبة الملحـة لدى المؤلف في منافسة

المشارقة والحرص على اللحاق بهم وبلوغ شأوهم .

وحين تؤذن شمس شباب الشاعر بالمغيب وتثقل عليه وطأة السنين ينكفىء على نفسه ويعدّي عما كان فيه من عبث ولهو . فلا يلبث أن يجنح للحكمة وينعطف إلى الزهد ، شأنه في ذلك شأن كل انسان ينفتح على الحياة في ريعان شبابه ثم لا يلبث عندما يدركه الهرم أن يتوارى عن مسرح المباهج ، مؤثراً أن يقضي بقية حياته في الظل . هذا ما كان من أمر شاعرنا ابن عبد ربه ، وهذا أيضاً ما كان من شأن سلفه الشاعر الغزال بعد حياة مديدة من المباهج والمسرات ، بل ما كان أخيراً من أمر أبي نواس قبلهما حين آثر الزهد بعد طول مسيرة الحياة العابثة .. وهكذا راح ابن عبد ربه يقول في نغم شجي [1] :

ألا إنما الدنيا نضارة أيكة	إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع	عليها ، ولا اللذات إلا مصائب
وكم سخُنت بالأمس عين قريرة	وقرت عيون دمعها اليوم [2] ساكب
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة	على ذاهب منها ، فانك ذاهب

معان وادعة ومشاعر ضارعة وقواف دامعة ، اتشحت معها نفس الشاعر بالأسى وتلفعت بالحزن ، حتى بات كل شيء لديها قاتماً ، فاذا الآمال فواجع ،

---

(١) وردت هذه الأبيات في جذوة المقتبس للحميدي ٩٦ ، وفي يتيمة الدهر للثعالبي ٢ : ٧ ، وفي المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ١٥٥

(٢) العين السخينة هي التي تبكي بدموع حارة من الحزن ، وعكسها العين القريرة ، أي المطمئنة التي لا تعرف حرارة الدمع

واللذات مصائب . هـذا هو حال الدنيا المتقلبة التي لا تستقر على حال ، إنهـا لا تكاد تزهر وتونع حتى تجف وتذبل ، فكم من أناس رتعوا في مباهج الحياة حيناً ، ثم تنكرت لهـم الأيام وتركتهم في هم مقيم .. فاذا كان المرء في هذه الدنيا ـ ما عاش ـ فانياً ، فما جدوى بكائه على الراحلين .. ؟

وهكذا يبدو ابن عبد ربه في تأملاته هـذه كمن يرثي نفسه قبـل حين الرثاء . وعلى الرغم من مسحة التشاؤم القاتمة التي تسربلت بهـا هذه الأبيات القليلة فانها لطيفة الوقع على الأذن محببة الأثر في النفس ، وذلك راجع لعوامل خفية يوحي بهـا مثل هذا الشعر دون أن يكون بوسع النقـد دائماً أن يعيهـا ويحددها . ولعل من عناصر الجمال في هذه الأبيات مطلعها الموفق وتشبيه الدنيا خلاله بشجرة أو دوحة ، وهذا تشبيه مفعم بالحياة على بساطته وقرب مأخذه ، وهو من جهة أخرى مستمد من بيئة الشاعر الأندلسية ومن طبيعتهـا الجميلة ، وربما كان من أسباب توفيق ابن عبد ربه في أبياته أنه استطاع تصوير الدنيـا غـير المستقرة على حال ، والحياة المتقلبـة الموارة بالتحول والتقلب والحركة تصويراً حياً مماثلاً ، باختياره لمجموعة من الأفعال أو شبهها ، مما يوحي بعنصر الحركة الذي ابتغاه ، مثل أخضر ، وجف ، وسخنت ، وقرت ، وتكتحل ، وذاهب ... بالإضافة إلى هذه المطابقات بين الألفاظ التي اقتضتها طبيعة المقارنة ، بين وجهي الحياة : القاتم والمشرق ..

إن ابن عبد ربه في تعـدد جوانبه وبراعته في النظم والنثر والتـأليف ، كان في شعره أيضاً متشعب المناحي لا يصدر عن اتجاه سائد أو مذهب غالب ، فهو من خلال ما عرفنا من أشعاره أشبه بحزمة الضوء ينطوي نتاجه على جملة

من القصائد ، بعضها ينتسج على منوال الشعر العربي القديم في جزالة الفاظه وعباراته وبداوة صوره ومعانيه ، وبعضها الآخر يسبك على غرار الشعر المحدث العباسي في رقته وطرافة عباراته ، وبعضها أخيراً يتسم بالعذوبة والسهولة واليسر . كل ذلك في إطار محبب من مباهج الحياة في الأندلس ومن طبيعة ربوعها الجميلة .

فابن عبد ربه قد يبدو لنا محافظاً ومجدداً معاً ، ولعل هذه الظاهرة تعكس واقع الحياة الأدبية في الأندلس ، هذه الحياة التي كان يتجاذبها تياران قل أن كتبت الغلبة لأحدهما بصورة مطلقة ، تيار المحافظة الذي كان يجذب عرب الأندلس إلى أرومتهم وتراثهم في المشرق ، وتيار المعاصرة الذي كان يشدهم إلى الأرض التي آثروا العيش فوقها في وطنهم الجديد ، الأندلس .

ويبدو أن اشتهار ابن عبد ربه في مضمار التأليف بكتابه الجليل « العقد الفريد » قد أضر به وطغى عليه كشاعر كبير بارز ، فبعض الباحثين جردوه أو كادوا من الشاعرية ، حتى إن أحمد ضيف عد شعره « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام لا ممن خلقوا شعراء » [1] ، كذلك نفى أحمد أمين عن ابن عبد ربه الأصالة والشاعرية حين جعله مجرد ناظم يسير في فلك المشارقة « ويجتهد ما استطاع أن يأخذ معانيهم ، ويزيد عليها ، ويختار في كل نوع من الشعر إماماً من المشارقة ، فطوراً إمامه صريع الغواني ، وطوراً أبو العتاهية ، وغيرهم .. » ثم ينتهي إلى الحكم عليه

---

(١) انظر كتابه بلاغة العرب في الأندلس ٩١ ، وانظر صدى هذا الحكم عند د . أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي ٢٣٨

قائلاً « إنه لم يتحرر تحرراً كافياً ولم يصغ إلى قلبه قط » [1] .

على أنه لا بد من الانتباه إلى أن ابن عبد ربه كان ينزع بطبيعته وبتأثير جيله إلى منافسة المشارقة في الميادين التي برعوا فيها سواء في مضمار التأليف أو الشعر أو في سائر مناحي الحياة . وهـذا المنحى لديه لا يعني بالضرورة تخلفه دوماً عمن جاراهم لمجرد نسج فنه على منوالهم ، فكثيراً ما فاقت أمثال تلك المحاولات الأصل ، ولعل أحمد شوقي الذي عارض في عصرنا هذا القدماء من أمثال البحتري وأبي تمام وابن زيدون والبوصيري والحصري .. أبرز مثال على ما نقول ، وليس المتقدم في الزمان هو بالضرورة الأفضل .

(١) ظهر الاسلام ٣ : ١٢٤ لأحمد أمين

٥

ابن هانئ [١]

هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي * يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة . وأبوه هانئ أديب شاعر كان يعيش في إحدى قرى تونس ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد ابنه محمد بن هانئ في اشبيلية سنة ٣٢٦ هـ على خلاف في ذلك . تلقى ابن هانئ ثقافته في قرطبة ، وتنقل بين عدد من مدن الأندلس ، ثم لزم والي اشبيلية فمدحه وحظي باعجابه ، غير أن مقامه في اشبيلية لم يطل واضطر إلى النزوح عنها ، فقصد إلى المغرب . ويعزو بعضهم هذا الأمر إلى سيرة ابن هانئ العابثة في اشبيلية واستهتاره بالمقدسات وجهره بذلك فاتهمه الناس بمذهب الفلاسفة ومسلك الزنادقة ، وأن صاحب اشبيلية نصحه عندئذ أن يغادر المدينة إلى أن تهدأ العاصفة . ولعل الوالي كان في الوقت نفسه يخشى أن يتهم بتشجيع هذه النزعات فيخسر ثقة العامة ويبوء

---

* يكنى أبا القاسم كما يكنى أيضاً أبا الحسن ، والأزد من القبائل اليمانية . انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣ : ٤٩ وشذرات الذهب ٣ : ٤٣ وجذوة المقتبس الترجمة رقم ١٥٧ والاحاطة ٢ : ٢١٢ والمطرب ١٩٢ والتكملة رقم ٣٥٠ ومطمح الأنفس ٨٤ ونفح الطيب ٢ : ٢٦٤ . وديوان ابن هانئ .

وانظر دراسات عنه في : ابن هانئ الأندلسي ، لمنير ناجي . ابن هانئ الأندلسي لعارف تامر . الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٢٤٣

بسخط الخليفة الأموي في قرطبة .

على أن بعض الباحثين يجنح إلى تعليل رحيل ابن هانىء بسبب معتقده السياسي [1] مستبعداً أن يكون مجونه أو آراؤه الفلسفية في تلك المرحلة في تلك الأيام تهمة توجب المطاردة . وهذا رأي ينطوي على وجاهة . فقد كان المجتمع الأندلسي آنئذ على قدر من حرية الفكر في تقبل آراء الفلاسفة وعلى قدر أيضاً من التسامح تجاه مظاهر اللهو والطرب والاقبال على الملذات والمتع .

والواقع أن ابن هانىء كان شاباً مندفعاً ذا نزوات ، يؤثر حياة العبث والانطلاق ، مستهتراً في سلوكه وأقواله ، وكان في الوقت نفسه متشيعاً يشيد بالفاطميين ولا يكتم إعجابه بهم . وهذا يعني أن كلا العاملين هما سبب ما عاناه في الأندلس ثم ما كان بعد ذلك من مقتله . ولا ريب في أن انصرافه في إثر ذلك إلى الفاطميين وملازمته لهم ما يؤكد ذلك ، كما أن شعره طافح بآرائه السياسية التي تعبر عن هواه الفاطمي . وهذه الأفكار وأمثالها كانت مرفوضة من حكام الأندلس الذين رأوا فيها خطراً على دولتهم.. ولا شك أن هذا وحده سبب كافٍ لمحاولة والي اشبيلية إبعاد شاعره عنه تحسباً من نقمة الخليفة ، وبخاصة إذا كان هذا الشاعر ممن يجهرون بآرائهم في غير تحفظ ولا مبالاة . وقد كشف الشاعر نفسه فيما بعد عن سبب ابتعاده عن الأندلس ، وعزا ذلك إلى عقيدته الشيعية فقال بازدهاء [2] :

---

(١) انظر كتاب ابن هانىء الأندلسي : درس ونقد ، لمنير ناجي ٥٨ - ٦١ ، والأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة لاحمد هيكل ٢٤٣ وابن هانىء الاندلسي لعارف تامر ٨

(٢) ديوان ابن هانىء ، القصيدة ٣٧

وما نقموا إلا قديم تشيعي   فنجّى هزبراً شدّه المتدارك

وفي أفريقية تنقل ابن هانىء بين المغرب الأقصى والجزائر ، ومدح بعض الولاة والكبراء ، وفي طليعتهم جوهر الصقلي قائد الفاطميين . ثم استدعاه المعز لدين الله الخليفة الفاطمي بعد أن سمع به ، فأدناه وجعله في بلاطه وأغدق عليه العطاء . وعندما استولى جوهر على القاهرة قصد اليها المعز ليقيم فيها ويتخذها عاصمة لملكه . وقد رغب الشاعر أن يلازم خليفته في بلاطه الجديد ، فاستحسن المعز ذلك منه . وحين قصد ابن هانىء إلى المغرب ليصطحب أسرته ويعود إلى القاهرة وجد مقتولاً سنة ٣٦٢ هـ ، وكان عمره ٣٦ سنة أو ٤٢ سنة في رأي آخر . وقد اختلف مؤرخو الأدب في سبب مقتله كما اختلفوا في سبب رحيله عن الأندلس ، غير أن ما يرد هناك يمكن أن يعاد هنا ، ومما ذكرته أخبار ترجمته أنه حين وصل إلى (برقه) حدثت عربدة في مجلس لهو وشراب ، فقتل في شجار . وذكر أيضاً أنه خرج من دار مضيفه في برقة وغلب عليه السكر ، فنام في الطريق وأصبح ميتاً . وقيل إنه وجد في ساقية ببرقة مخنوقاً « وأغلب الظن أن ابن هانىء قد قتل قتلاً سياسياً على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين . وليس أدل على ذلك من هذا الغموض الشديد الذي يكتنف قتل ابن هانىء أو موته »[1] .

وحين بلغ المعز نعيه حزن عليه واغتم ، ثم قال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك .

---

(١) الادب الاندلسي ، د . أحمد هيكل ٢٤٧

ومن الطبيعي بالنسبة إلى شاعر كابن هانىء أمضى حياته في تواصل مع الولاة والقادة والامراء أن يغلب المديح على شعره ، وأن يكون شعره في الوقت نفسه منطوياً على مضمون معين يعبر عن عقيدته المذهبية ونزعته السياسية .

الشاعر السياسي :

إن ارتحال ابن هانىء عن الأندلس لأسباب تتصل بعقيدته السياسية ثم التحامه بالأفارقة ومجاهرته بعداء الأمويين ، كل ذلك جعل منه شاعراً سياسياً ينحاز إلى الفاطميين ويحمل آراءهم بما عرف عنه من قوة واندفاع . ومن هنا أثار حفيظة حكام الأندلس فتربصوا به حتى قتلوه . والعداء بين بني هاشم وبني أمية يرجع إلى أيام الجاهلية ثم تفاقم في عهود الإسلام ، واستمر فترة طويلة عندما تمركز الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس .

وقد حدث أن الخليفة الناصر في قرطبة بعث باسطوله إلى شواطىء أفريقية انتقاماً لغزوة بحرية سابقة هددت ملك الأمويين في الأندلس . وقد تمكن الفاطميون من ردهم في معركة مظفرة ، وعندئذ نظم ابن هانىء قصيدة في هذه المناسبة أشار فيها بشماتة إلى إخفاق بني أمية في النزول على الساحل :

خابت أمية منه بالذي طلبت
كما يخيب برأس الأقرع المشط

وحاولوا من حضيض الأرض إذ غضبوا
كواكباً عن مرامي شأوها شحطوا [1]

(١) ديوان ابن هانىء ، القصيدة السادسة والعشرون ص ٣٩٠

أما العباسيون فكانوا من ألد خصوم الفاطميين منذ أن استأثروا بالحكم في بغداد . وقد غدت مصر بعد موت كافور على أسوأ حال من الاضطراب ، وكان يتناحر على استخلاصها دعاة العباسيين والفاطميين والأمويين . ولم يلبث القائد الفذ جوهر الصقلي أن سار إلى القاهرة ففتحها في زحف سريع صاعق أدهش بني العباس ، وفي ذلك يقول ابن هانىء بسخرية خفية :

تقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر ... تطالعه البشرى ويحفزه النصر

كذلك قسا ابن هانىء على بني أمية وبني العباس معاً ، فهم الذين اغتصبوا الخلافة من مستحقيها ، وقد حز في نفسه كثيراً تقاعس بني العباس عن نصرة بني حمدان في حلب وتركهم هذه المدينة العامرة للروم يستبيحونها ويعيثون فيها فساداً .

وكان لحروب الفاطميين مع الروم ، وبخاصة تصديهم لهم في معركة « المجاز » المظفرة في الشمال الغربي من الشام صدى بارز في شعر ابن هانىء . وهو يصور قائدهم منويل وقد عقرت فرسه ، وقتل هو وجملة من البطارقة ، ولاذ الباقون بالسفن هاربين فتابعهم العرب حتى القى بعض ذوي البأس منهم بأنفسهم في اليم وأحرقوا معظم اسطولهم ، وفي ذلك يقول ابن هانىء باعتداد :

يوم عريض في الفخار طويل ... لا تنقضي غرر له وحجول

سل رهط (منويل) وأنت غررته ... في أي معركة ثوى منويل

كل هذا يجعلنا نرى في ابن هانىء شاعراً قد حمل طابع عصره وكان شعره مرآة لتلك الحقبة السياسية المضطربة في إبان القرن الرابع الهجري .

شاعر المديح :

غلب المـدح على أكثر شعر ابن هانىء تبعاً لارتباطـه بساسة عصره وملازمته لأعلام زمانه . على أننا لا نكاد نجد له من مدائحه الأندلسية سوى شذرات ، من مثل ما كان منها في مديح والي اشبيلية ومن اتصل بهم من رجال الأندلس . وأغلب الظن أن هذا الشعر قـد طمسته أهواء السياسة في ذلك العصر ، ولعل بعض الشيعة الذين يهمهـم حفظ شعر ابن هانىء هم الذين تجاهلوا مدائحه في بني أمية . وقد مدح ابن هانىء الكثيرين من أعلام عصره وجلهم في الواقع امتازوا بصفات فذة وكانوا من الأبطال والقادة وذوي البأس . ولعل من أهمهم جوهر الصقلي فاتح مصر وباني مجد الفاطميين ، ففي ذلك اليوم المشهود يقول في زهو بالغ :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
وقـد راعني يوم من الحشر أروع

غـداة كأن الأفـق سُـد بمثـله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

تسير الجبـال الراسيـات بسـيره
وتسجد من أدنى الحفيف وتركع

إذا حل في أرض بناها مدائناً
وإن سار عن أرض ثوت وهي بلقع

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
تخب المطايا فيـه عشراً وتوضع

والحق أن ابن هانىء شاعر تعجبه القوة وتفتنه البطولة وقد رأى فيما أنجزه جوهر من أعمال باهرة ما يستوجب هذه الإشادة . ولم يكن شعره هذا مديحاً صرفاً بقدر ما كان شعراً حماسياً ينطوي على وصف المعارك وتصوير البطولات .

على أن معظم المدائح قد محضها ابن هانىء الخليفة الفاطمي المعز لدين الله . وتعرف هذه القصائد بالمعزيات على غرار ما عرف الكميت بالهاشميات وأبو فراس بالروميات .. « وربما كانت هذه القصائد من الأسباب المباشرة لقصر حياة ابن هانىء ولما لحقه من النقمة واللعنة بعد مماته بزعم ما انطوت عليه من الكفر والالحاد .. » [1] ، « وقد كان المعز على جانب عظيم من التفهم وبعد النظر والحرص على بعث النهضة الأدبية والعلمية في أرجاء دولته الشاسعة .. وكان من المثقفين ثقافة عالية ، ويجيد كافة اللغات السائدة في عصره ، كما كان شاعراً رقيقاً » [2] وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تحلى به المعز من السجايا الشخصية وخصال الزعامة ، فضلاً عما حظي به من منزلة روحية وسلطان سياسي أدركنا سبب إعجاب ابن هانىء به وانصرافه إلى مديحه . إنه يذهب في الإشادة به إلى أبعد مدى فيقول :

ولا مدح إلا للمعز حقيقة ... يفصَّل دراً ، والمديح أساليب

ومن هذا القبيل أيضاً قوله :

أبدى الزمان لنا من نور طلعته ... عن دولة ما بها وهن ولا سقط

---

(١) انظر كتاب : ابن هانىء الأندلسي ، عارف تامر ٢٨

(٢) ابن هانىء الأندلسي ، عارف تامر ١٢

تالله لو كانت الأنواء تشبهه ما مر بؤس على الدنيا ولا قحط
يروّع الأسدَ منه في أماكنها سيف له بيمين النصر مخترِط

الشاعر المتشيع :

على أن كل صفات المعز هذه على قيمتها عند ابن هانىء لا تكاد تعدل صفة واحدة مميزة وهي صفة الامامة وكونه رأس المتشيعين في عصره. وهكذا انطوى شعر ابن هانىء وبخاصة مدائحه في الأمام الفاطمي على جانبي شخصية المعز معاً، الجانب السياسي والجانب المذهبي، باعتباره رجل الدنيا ورجل الدين. وبوسعنا أن نرصد أيضاً نزعة التشيع لدى ابن هانىء نفسه من خلال مدائحه هذه وبخاصة في معزياته، علماً بأنه ليس من اليسير على الباحث التمييز بين هذين العنصرين المتلازمين في شعر ابن هانىء أو الفصل بينهما، أعني قصائد المديح وقصائد التشيع، فالنزعة السياسية والعقيدة المذهبية متجاورتان متعانقتان في أكثر شعره.

ونحن نقف على جانب كبير من معتقدات ابن هانيء في التشيع من خلال مدائحه في الخليفة الفاطمي وسائر رؤوس الشيعة، فهذه القصائد تتيح لنا التعرف على عقيدة الشاعر نفسه بقدر ما تنم على صفات ممدوحه، فالمعز :

إمام عدل وفى في كل ناحية كما قضوا في الامام العدل واشترطوا
لا يغتدي فرحاً بالمال يجمعه ولا يبيت بدنيا وهو مغتبط

وعلى هذا المنوال تنتسج أشعار ابن هانىء من المعاني الدينية ومن هالة القداسة التي يضفيها على هذا الرجل الامام، فالمعز أيضاً

هـو علة الدنيـا ومن خلقت له ولعـلة مـا ، كانت الأشيـاء
من أيكة الفردوس حيث تفتقت ثمراتهـا وتفيـأ الأفيـاء
نزلت مـلائـكة السماء بنصره وأطاعـه الإصبـاح والإمساء
ولك الجواري المنشآت زواخراً تجري بأمرك والرياح [1] رُخاء

لقد كانت الحقبة التي عاشها ابن هانىء في إبان القرن الرابع الهجري حافـلة بالتصارع السياسي والتنازع المذهبي . وابن هانىء نفسه كان قـد اعتنق العقيدة الاسماعيلية منـذ حداثته ، وأغلب الظن أنه تشرّبهـا من أبيه الشاعر الأديب الذي كان في الوقت نفسه من دعاة الاسماعيلية [2] . ولعله كان يجنح للتقية خـلال إقامتـه في ربوع الأندلس ، وآية ذلك إشارته إلى بني أميـة في إحدى قصائده إذ قال : « .. وما نقموا إلا قديم تشيعي .. » . ويبدو لنا من استقراء شعر ابن هانىء أن عقيـدته الاسماعيلية ليست أمراً طارئاً ، بدليل ما تنطوي عليـه قصائده من اصطلاحات وأفكار تتسم بالعمق والتعقيـد وتنطوي على جانب من الصعوبة بالنسبة إلى القارىء العادي أو غير المتشيع .

ظاهرة الغلو :

لعل مفتاح شخصية ابن هانىء في مضمونه الشعري المبالغة والغلو والتهويل . ولا بد من الاشارة إلى أن هذه الظاهرة قد لفّت معظم الشعر العربي في ذلك العصر ، وشملت شعر الأندلسيين والمغاربة والمشارقة على حد سواء ، وقد أطلت

---

(١) هـــذا المعنى استمده الشاعر من قوله تعالى : « وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام » سورة الرحمن ، الآية ٢٤

(٢) ابن هانىء الأندلسي ، عارف تامر ٨

بوادرها في شعر أبي تمام ثم تجلت بارزة في مدائح المتنبي . ولم يكن ابن هانىء في ذلك بدعاً بين شعراء عصره .

على أن للغلو سبباً آخر عند ابن هانىء ، فهو شاعر عقائدي يتفجر إيمانه بعاطفة فوارة مزبدة لا تعرف الاعتدال ولا الحدود ، وهو يندفع وراء ممدوحه بهوى يكاد يبلغ الهوس ، ويضفي عليه من فرط انبهاره به وإعظامه له ما يكاد يخرجه عن صفات البشر ويجعله أقرب إلى الخوارق ، ومن هذا القبيل قوله في المعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم ، فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
هذا الذي ترجى شفاعته غدا ... حقاً وتخمد إن تراه النار

والمعز من جهة أخرى هو الإمام الرابع عشر لجده علي بن أبي طالب ، أو هو إمام (سابع الأسبوعين) على حد تعبير الاسماعيليين ، ولصاحب هذه المرتبة اعتبار خاص في نظر أشياعه [1] وبالإضافة إلى ذلك فالإمام في عقيدة الشيعة شخصية مغايرة لمألوف الناس لأنها تتسم بالعصمة .. وعلى ذلك يبدو الغلو في شعر ابن هانىء أمراً منسجماً مع معتقده هو وإن بدا للآخرين غير ذلك . ولعل هذا سبب نفور الكثيرين من مبالغاته هذه وذهاب بعضهم إلى حد تكفيره . وفي هذا الضوء ينبغي أن ننظر إلى مضمون أشعار ابن هانىء باعتباره منبثقاً من فلسفة العقائد الاسماعيلية ، الباطنية ، في مثل قوله :

---

(١) ابن هانىء الأندلسي ، عارف تامر ٥٩

ليست سماء الله ما ترونها لكن أرضاً تحتويه سماء

أو قوله :

ولله علم ليس يحجب دونكم ولكنه عن سائر الناس محجوب

على أن أكثر من تدارسوا شعر ابن هانىء في القديم وفي الحديث لم تسغ لهم مبالغاته هذه مهما يكن لها من جذور وحوافز . ولعل ما ينم على رأي غالبية القدماء في ذلك قول الحميدي في ابن هانىء : « ... ومدح المعز وغالى باستيجاز أوصاف أنكرت واستعظمت »[1] . وإذا كان هذا شأن القدماء ، وفي عصر شاعت خلاله المبالغة فلا شك في أن عصرنا هذا أقل استساغة لظاهرة الغلو التي يجنح اليها بعض الشعراء ، بعد أن لم يعد للأفراد ما كان لهم من هالة الاعظام . أما إذا سبرنا مبالغات ابن هانىء من الوجهة الفنية بعيداً عما حللناه من الوجهة الروحية والنفسية فعلينا ألا نقع في التعميم . فثمة مبالغات لا تنطوي على قيمة فنية حقيقية من نحو قوله :

ملك إذا نطقت علاه بمدحه خرس الوفود وأفحم الخطباء

أو قوله :

وما لسماء أن تُعد نجومها إذا عد آباء له وجدود

أو قوله :

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القَطر معدود ولا الرمل محسوب

أو قوله :

---

(١) جذوة المقتبس ، الحميدي ٨٩

إن الملوك وإن قيست اليك معاً   فأنت من كثرة بحر وهم نقط

فهذه المعاني تنطوي على سرف ونفج لا طائل منهما تجاه قدرات الانسان المحدودة مهما يكن هذا الانسان عظيماً ، وهي من جهة أخرى تفتقر إلى الخيال المجنح وطرافة التصوير الآسرة ، وأي طرافة في أن يوصف الملك بالفصاحة وأن يوصف سائر الناس في مقابله بالخرس ويصابوا بالإفحام ، أو أن تغدو مآثر آبائه وأجداده بعدد النجوم ، وأن تكون فتكات سيفه بالروم بعدد حبات الرمل وقطرات الغيث ..

وقد تغدو المبالغة سائغة في نحو قوله :

لي صارم وهو شيعي كحامله   يكاد يسبق كراتي إلى البطل

إذا المعز ، معز الدين سلطه   لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل

فالبيتان يمتازان بجمعهما فخر الشاعر بنفسه وبأسه إلى مديحه الخليفة الفاطمي بالعزيمة والمضاء . وهما في الوقت نفسه ينطويان على خيال جميل يتجلى في صورة السيف وهو يسابق صاحبه إلى عدوه [1] . وهي صورة موفقة لأنها تعتمد على تشخيص السيف بكائن حي تسري في معدنه قوة العقيدة من جسد صاحبه ومن ذراعه فاذا هما وحدة متلاحمة . ولا شك أن أسباب جمال هذه الصورة الحد من جموح المبالغة وسرفها باستعمال الشاعر كلمة يكاد . فالسيف يكاد يسبق حامله نحو المقاتلين ، وبذلك لم تعدُ هذه المبالغة حدود المبالغات المألوفة [2] ، حتى ما كان منها لدى الجاهليين كزهير وأمثاله . وهذا الحكم

(١) انظر كتاب الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٢٤٤

(٢) الأدب الأندلسي ، د . أحمد هيكل ٢٤٦

ينسحب أيضاً على البيت الثاني : فالسيف بتار لا يهدأ على حال ، ولا ينتظر دنو الآجال ، إنه في عجلة من أمره لا يلبث أن يبادر إلى الكماة بالموت يزرعه فيهم كلما علا وهوى .

الجزالة والقعقعة :

والجزالة من أبرز خصائص فن الشاعر ابن هانىء ، وهي طابع أكثر الشعر العربي القديم وبخاصة الشعر الحماسي ، فألفاظ ابن هانىء مجلجلة تقرع الأسماع قرعاً ، وقد ظل الشاعر حريصاً عليها متمادياً في طلبها إلى حد القعقعة دون أن يسمح للرقة والعذوبة والطلاوة أن تسري في شعره إلا غراراً . وهذا ما جعله أبعد من بعض معاصريه من الشعراء بل من بعض متقدميه في الزمان كابن عبد ربه ، عن سمة الحداثة . حتى إنه كان يغلو في ذلك حين يجنح إلى اصطناع القوافي الصعبة كالطاء والثاء والخاء أو ما يعنيه العروضيون باختيار النافر الشرود من القوافي بدلاً من الطيع الذلول . وما من ريب في أن هذا المنحى كثيراً ما يستتبع ظاهرة أخرى هي الغرابة اللفظية في عنصر القافية وبخاصة لدى شاعر مطيل طويل النفس كابن هانىء .

وجزالة الألفاظ أو رقتها ليست سمة حسنة في ذاتها إلا إذا أتت متسقة مع موضوعها معانقة لمضمون العمل الأدبي . وقد كان ابن هانىء يؤثر طرق الموضوعات الجليلة وتناول جوانب القوة والشدة ، من مثل وصف الجيوش وتصوير البطولات ومديح القواد والافتخار بالبأس ... وهذا من أسباب جودة شعره وجودة شعر المتنبي وأبي تمام ، على حين لم يبلغ هؤلاء الشعراء شأواً

مماثلاً في موضوع الغزل الذي يقتضي الرقة بسبب غلبة الجزالة عليهم حتى صارت طبعاً في تعبيرهم ومذهباً في فهمهم .

ومع ذلك فقد يجنح ابن هانىء في بعض شعره للرقة حين يلتفت إلى تصوير نوازعه الذاتية والتعبير عن هواجسه وإحساساته . وقد أعجب البلاغيون والأدباء كابن القارح في رسالته إلى المعري [1] بتصوير ابن هانىء لنفسه مشبهاً إياها بشمعة ، وجامعاً فيها سبعة أوصاف :

لقد أشبهتني شمعة في صبابة	وفي هول ما ألقى وما أتوقع
نحول وحزن في فناء ووحدة	وتسهيد عين واصفرار وأدمع

أما أبو العلاء المعري فلم يجد في جزالة الألفاظ المسرفة التي اتسم بها شعر ابن هانىء كبير غناء ، لأنها فيما بدا له ، لا تنطوي على عمق في المعاني ، ولهذا رماه بسهم النقد الحاد حين قال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً » [2] . كذلك وصف الحميدي ابن هانىء فقال « .. وهو كثير الشعر محسن مجود ، إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب على شعره » [3] .

ويبدو من سياق عبارة الحميدي ومن استدراكه خلالها أنه يرى في القعقعة ما يعيب شعر ابن هانىء . وهو مع ذلك ينصف الشاعر وينعته بالاحسان والتجويد على حين وصف أبو العلاء عبارته بالخواء دون أن يرى فيها جانباً من خير . وأغلب الظن أن المتنبي كان ماثلاً في ذهن أبي العلاء حين

(١) انظر الأبيات وتعليق ابن القارح عليها في رسائل البلغاء ، محمد كرد علي ٢٧٤
(٢) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ٣ : ٥
(٣) جذوة المقتبس ، الحميدي ٨٩

أصدر حكمه على ابن هانىء وإن لم يذكره ، وكثيراً ما كان ذكر ابن هانىء يستدعي ذكر أبي الطيب عند القدماء . ومما يجدر ذكره أن جزالة أبي الطيب وأبي تمام .. كانت تخفي وراءها عمقاً في المعنى وابتكاراً في الصورة ربما لم يبلغها ابن هانىء .

ومهما يكن من أمر فان ثمة صفات مشتركة بين ابن هانىء وأبي الطيب هي التي حفزت النقاد إلى المقارنة بينهما . ولعل منطلق هذه المقارنة تعاصر الشاعرين ، ثم اشتراك شعرهما بعلامح مميزة في طليعتها سمة الجزالة ووصف المعارك وتصوير البطولات . ولا شك في أن أوجه الشبه بين الشاعرين هي التي جعلت المغاربة يطلقون على شاعرهم لقب متنبي المغرب .

وجملة القول ، لقد وصف القدماء ابن هانىء - إذا استثنينا أبا العلاء - بكثير من الثناء ، فجعله لسان الدين بن الخطيب « من فحول الشعراء وأمثال النظم ، وبرهان البلاغة . لا يدرك شأوه ، ولا يشق غباره » وقال فيه ابن خلكان « ليس في المغاربة من هو في طبقته ، لا من متقدميهم ولا من متأخريهم ، بل هو أشعرهم على الاطلاق » ونعته الفتح بن خاقان بأنه « بهرج بافتتانه كل الفنون ، وله نظم تتمنى الثريا أن تتوج به وتقلد ، ويود البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولد » وقال فيه ياقوت « ابن هانىء أديب شاعر مفلق ، أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق . »

وعلى الرغم من معاني التقريظ المفرط والثناء العام التي تنطوي عليها هذه الأحكام فان ابن هانىء يبقى شاعراً كبيراً . ولعل من أهم عناصر شاعريته

ذاتيته المتفردة التي تتجلى في شعره بحيث تنعكس فيه شخصيته واضحة بكل سماتها ، إنه شاعر يصدر عما يعتقد بحرارة وإيمان ، وهو شاب مندفع حاد الطبع يتسم بصراحة وعنف قل أن اتسم بهما شاعر متشيع في الأدب العربي على كثرة هؤلاء الشعراء الذين انطوت نفوس أكثرهم على التقية . وشعره سجل حافل لأحداث عصره .

وهو أخيراً أقدم شاعر أندلسي يصل الينا شعره في ديوان ، وإن لم ينطو هذا الديوان على جميع شعره ، وكان غزيراً ، وبخاصة ما كان منه في مرحلة وجوده في الأندلس .

(١) طبع ديوان ابن هانىء في بيروت سنة ١٢٧٤ ﻫ ، ١٨٨٤ م وهو مرتب على حسب حروف الهجاء

ابن درّاج

كان الخليفة الحكم بن الناصر قد عهد بالخلافة في حياته إلى ابنه هشام ، وكان فتى قاصراً ، وأوكل إلى حاجبه محمد بن أبي عامر رعاية ابنه من بعده . وحين توفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ نودي بهشام الثاني خليفة ، وكان في الثانية عشرة من عمره . غير أن ابن أبي عامر الذي كان قد ارتقى إلى أسمى المناصب وخبر سياسة الدولة لم يلبث أن جنح إلى الاستئثار بالسلطة متنكراً لهشام ولأمه صبح ، وكانت هذه اسبانية الأصل تثق به وتعتمد عليه . ثم ما فتىء يتخلص من منافسيه واحداً بعد واحد[1] ، حتى خاص له الأمر ولأسرته من بعده . وهكذا استبد بالحكم وتلقب بالمنصور . وقد امتاز بذكاء وحزم وتدبير مكنته من التغلب على أعدائه في المقاطعات الشمالية المسيحية وانتقل من نصر إلى نصر ، حتى زرع الهيبة بالنفوس واستطاع أن يعد في أجل عهد القوة في حياة الدولة العربية الإسلاميه بالأندلس .

(١) استطاع الحاجب بدهائه أن يوقع بين منافسيه وخصومه ، فأقصى رؤوس الصقالبة بمساعدة الوزير المصحفي ثم انقلب على المصحفي نفسه بمساعدة القائد غالب ، ثم التفت آخر الأمر إلى غالب نفسه وقضى عليه . وأبعد الخليفة عن الساحة دون أن يبقى له من مظاهر الوجود غير الاسم حتى غدت خلافة بني أمية في طي النسيان . ويرجع الحاجب المنصور بنسبه إلى بني عامر إحدي قبائل اليمن ، وكان جده في عداد جند الداخل الذين وفدوا إلى الأندلس واستقروا فيها

وفي إبان عهد الحاجب المنصور وفد ابن دراج القسطلي إلى قرطبة فمدحه واستطاع أن يحظى باعجابه . ثم انقطع اليه وأخذ يصفيه أجمل شعره ويشيد بغزواته وانتصاراته ، على نحو يذكرنا بما كان من شأن المتنبي مع سيف الدولة. وقد ولد أحمد بن دراج في بلدة قسطلة غربي الأندلس سنة ٣٤٧ هـ من أسرة ذات جاه عريض من أصل بربري يرجع بها إلى قبائل صنهاجة . ولا نكاد نعرف شيئاً ذا بال من أخبار طفولته ونشأته ، حتى ليكاد اسمه يتألق على نحو مفاجيء إثر اتصاله بالحاجب المنصور في قرطبة *

ويعد ابن دراج أكبر شاعر في حقبة الاستبداد العامري ، وكان أيضاً ناثراً مجيداً أتاحت له جودة كتابته تسنم ديوان الإنشاء في بلاط المنصور . كذلك تعرض شاعرنا لحسد الحساد في البلاط لمنزلته عند الحاجب ، غير أنه أثبت من الجدارة والشاعرية ما مكنه من إسكات خصومه . وقد انعكس هذا في شعره وكان مبعث افتخار وزهو لديه . ثم اضطر ابن دراج بعد حين

---

* انظر ترجمته وأخباره في كتاب الذخيرة لابن بسام القسم الأول ، المجلد الأول ٤٣ - ٧٨ وجذوة المقتبس للحميدي ، الترجمة ١٨٦ ، ص ١٠٢ ، والصلة لابن بشكوال ، الترجمة ٧٥ ، ١ : ٤٠ ، وبغية الملتمس للضبي ، الترجمة ٣٤٢ ، والمغرب لابن سعيد ٢ : ٦٠ ، ٣٩٩ ، ٤٣٥ . والمطرب لابن دحية ١٥٦ ونفح الطيب للمقري ٣ : ١٩٥ . ويتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ١٠٤١ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ١١٦ ..

وانظر دراسة مسهبة عنه في مقدمة الديوان لمحمود مكي ، وكتاب الأدب الأندلسي لأحمد هيكل ٣١٩ وفي الأدب الأندلسي لجودة الركابي ٩١ . ومختارات من الشعر الأندلسي لرضوان الداية ٤١ . وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) د . لاحسان عباس ١٩١

إلى الرحيل عن قرطبة بسبب اضطراب أحوال البلاد ، وتنقل بين عدد من مدن الأندلس ، كما قصد إلى سبتة في أفريقية ومدح من اتصل بهم من أعلام الحكم ، حتى مات في سرقسطة سنة ٤٢١ هـ . امتاز ابن دراج بحسن سيرته وإيثاره حياة الجد بعيداً عما كان ينغمس فيه كثير من أدباء عصره من عبث ومجون .

* * *

ومن الطبيعي أن يغلب المديح على شعر ابن دراج بعد أن أمضى معظم سني حياته في صحبة الأمراء والكبراء ، وأن يكون في أكثر الأحيان شاعر القصر والبلاط .

على أن مدائح ابن دراج قد انطوت في كثير من الأوقات على موضوعات أخرى أخرجتها عن طابع التقريظ المحض والثناء الصرف ، من نحو وصف المعارك والبطولات ، أو تصوير الأسفار والترحل ، ومواقف الوداع والفراق ، ومشاعر الغربة واللوعة ، ومنازع الشوق والحنين . ومن هذا القبيل قصيدته الأولى التي القاها بين يدي المنصور العامري فكانت مبعث حظوته عنده وشهرته في قرطبة ، وقد استهلها بقوله مخاطباً امرأته : (١)

دعي عزمات المستضام تسير ... فتنجد في عُرض الفلا (٢) وتغور

لعل بما أشجاكِ من لوعة النوى ... يَعِز ذليل أو يُفَكُّ أسير

---

(١) انظر القصيدة في ديوان ابن دراج ٢٩٧

(٢) المستضام : الذي نزل به ضيم ، وتنجد من النجد وهو المرتفع من الأرض

ألم تعلمي أن الثواء هـو التوى / وأن بيوت العاجزين [1] قبـور

ذريني أرِدْ ماء المفاوز آجنـا / إلى حيث ماء المكرمات [2] نمير

فان خطـيرات المهالك ضُمنٌ / لراكبهـا أن الجـزاء خطـير

ثم انتقل إلى وصف وداعه لزوجه وابنه الصغير :

ولما تدانت للوداع وقـد هفا / بصـبري منهـا أنة [3] وزفـير

تناشدني عهـد المودة والهوى ، / وفي المهد مبغوم النداء [4] صغير

عيي بمرجوع الخطاب ، ولفظه / بموقـع أهـواء النفوس خبـير

تبوأ ممنـوع القلوب ومهـدت / لـه أذرع محفوفـة ونحـور

عصيت شفيع النفس فيه وقادني / رواح لتدآب السرى وبكور

وطار جناح البين بي وهفت بها / جوانح من ذعر الفراق تطير

ثم يصف مشقات السفر ومخاطره في الطريق إلى الممدوح :

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي / عليّ ورقراق السراب يمـور

لبان لهـا أني من الضيم جازع / وأني على مض الخطوب صبور

وقد أيقنت أن المنى طوع همتي / وأني بعطف العامري جـدير

---

(١) الثواء مصدر ثوى يثوي ، أي أقام . التوى : الهلاك

(٢) أرد من الورود وعكسه الصدور . المفاوز : مفردها مفازة وهي الفلاة التي يتعذر سلوكها لانعدام الماء فيها ، وهي من الأضداد . الماء الآجن : الآسن ، كريه المذاق لطول ركوده

(٣) هفـا : أسرع

(٤) البغام : صوت الظبية ، وبغم فلان صاحبه لم يفصح له عن قصده

هذه القصيدة في أصل موضوعها ترمي إلى مديح المنصور بن أبي عامر حاكم قرطبة وسائر الأندلس ، ومع ذلك فما بدا منها تمهيداً أو مقدمة للغرض الرئيسي إنما هو في نظرنا موضع الفن والجمال . فالأبيات الأولى تصوير جميل لما كان بين الشاعر وزوجته من حوار شجي ينم بشفوفية عذبة على ملامح كل منهما . إنه منـذ مطلع قصيدته يأبى عيش القناعـة والركود لأنه يتسم بعزيمة صادقة وهمة قعساء فلا عليه في سبيل مطامحه أن يضرب في آفاق الأرض باحثاً عن مكان ينبت العز ويدفع الضيم . وهو يمني زوجته المشفقة عليـه من أمر رحلته بالفرج بعـد الضيق ، واليسر بعد العسر . فما مساكن هؤلاء القانعين بحظوظهم القابعين في أماكنهم سوى قبور لهم آثروها لأنفسهم وهم على قيـد الحياة ، شأنهم في ذلك كشأن الماء الآسن .. وجـدير بهذا الرجل أن يقصـد إلى ذلك المورد العذب ، ولو كان في سبيل بلوغ هدفه أعظم المشاق والأهوال لأن وراء ذلك كله ما يبشر بأجزل العطاء جزاء وفاقاً .

وهنـا ، في أبياته التاليـة ، يصور ابن دراج موقف الوداع وما انطوى عليه من لوعـة وأسى ، حين أقبلت عليه زوجتـه بنفس جائشة ، وقد أطلقت من أعماقها زفرة حرى وأنيناً مكتوماً ، وهي لا تفتأ تناجيه وتبثه ما كان بينهما من حـلاوة الحب والوصال ، عسى أن تفلح في استبقائه ، حتى كادت تذهب بصبره واحتماله ، وتثنيه عن همه وعزمه . كل هذا وطفلها في المهد لا يدري من الأمر شيئاً ، إنه ينطق بأصوات مبهمة دون أن يكون بوسعه أن يفصح ، ولكنه مع ذلك عارف بمواطن تأثيره في نفوس والديه . ياله من طفل محبوب انفتحت له القلوب العصية التي طالما أعرضت عن الآخرين فاحتضنته الأذرع

وعانقته الصدور . ولكن برغم ذلك كله فقد تماسك هذا الأب وكبح جامح حبه وحنانه واختار الجانب الوعر من الحياة ، حيث كان لا بد له من الرحيل تاركاً امرأته المشفقة تعاني لوعة الفراق ، على حين استبدت بنفسه منازع الشوق والحنين .

وهكذا كان على الشاعر أن يمضي - من خلال أبياته الأخيرة - في سبيل غايته دون أن يثنيه عما اعتزم شيء ، متحملاً مخاطر الطريق صابراً على وطأة الخطوب ، حتى دانت له الأماني وتحققت الآمال ، وغدا جديراً باعزاز المنصور وعطفه .

لقد أجاد ابن دراج تصوير الصراع في نفسه وما كان يضطرب فيها من قوتين متعارضتين : عاطفة الحب العارمة تجاه الزوج والولد والتي تشده للبقاء ، ونزعة الطموح الجارفة التي تصرخ به للرحيل . ومن عوامل جمال القصيدة وقوف الشاعر عند هذه الجزئيات العاطفية في لقطات تصور ما كان من حاله وحال زوجته وولده ساعة الوداع ، مما ينطوي على رصد حي وبسيط للاحساسات الانسانية الصادقة التي تضطرب لها النفس في مثل هذا الموقف في كل زمان ومكان . وخير الشعر ما صدر عن تجربة ومعاناة .

كذلك كان ابن دراج بارعاً في ربطه بين وصف مشقات الطريق وبين موضوع المديح ، وذلك في انتقال سائغ عرف به كثير من شعراء المديح قبل ابن دراج ، ولكن قلة منهم استطاعوا أن يصوروا مواقف الوداع على هذا النحو من الدقة والاسهاب .

وقد يكون من أسباب اعجابنا بالقصيدة أن رحلة ابن دراج هذه إلى قرطبة ، حيث المنصور بن أبي عامر ، لم تكن رحلة صورية أو وهمية كما ألف الداحون وصف أمثالها ، ولكنها كانت رحلة حقيقية استمد الشاعر أوصافها من واقعه الذي كان يعيشه ، ومن هنا جاءت جزئياتها نابضة بالحياة . ولا شك في أن اتفاق هذا الوصف الواقعي مع تقاليد الشعر العربي من ذكر النسيب وحلاوة الذكرى ثم وصف الرحلة الشاقة إلى الممدوح ، كل ذلك قد زاد القصيدة بهاء باعتبارها تتسم بالقدم والحداثة معاً أو بالأصالة والتجديد .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع القول إن رائية ابن دراج قصيدة جديدة متجددة ، وهي أيضاً ، وفي الوقت نفسه ، تظل دائرة في فلك القديم . وإذا كان في ذاتية موضوعها وتفرد الشاعر في معاناته ورصده لأحاسيسه ما يسمها بالحداثة فان في العديد من صورها ومعانيها ما يشدها إلى أساليب القدماء . فالتصريع ظاهرة بديعة ما زال شاعرنا حريصاً عليها ، كذلك ذكره للسرى والبكور وجناح الشوق ثم وصفه للهواجر واللظى والسراب ... ونحو ذلك مما هو أبعد عن بيئة الأندلس وألصق ببيئة صحاري جزيرة العرب .

ومما يزيد في توكيد ظاهرة القديم المحدث في شعر ابن دراج التي ما زالت تتمثل فيه على النحو الذي عرف به بعض أسلافه في العصور الأندلسية المتقدمة أن هذه القصيدة إنما نظمها ابن دراج تلبية لرغبة ممدوحه الحاجب المنصور حين طلب اليه أن يعارض قصيدة أبي نواس [1] التي مطلعها :

---

(١) القصيدة في مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر ، انظر خبرها في ديوان ابن دراج ، المقدمة ص ٤٦

أجارة بيتينا ، أبوك غيور ومیسور ما يرجى لديك عسير

ولا فرق في أن يكون ابن أبي عامر أو ابن دراج قد جنح إلى المعارضة ، ما دام هذا يعني أن الحياة الأدبية في الأندلس ما زالت تتطلع ، حتى ما بعد القرن الرابع ، إلى المشرق وتحرص على مباهاة المشارقة . ومما يجدر بنا أن نلاحظه أن ظاهرة المعارضة هنا لم تعد تنطوي على جانب المحافظة المحض ، لأن هذه المعارضة إنما تناولت رأس المجددين في العصر العباسي وهو أبو نواس بالإضافة إلى استقلال الشاعر بفنه وتفرده في تجربته ونأيه عن الاحتذاء .

* * *

ومع أن قصائد المديح هي الغالبة على شعر ابن دراج فانها كثيراً ما تنطوي على موضوعات أخرى من وصف للأسفار ومشاقها ، أو تصوير للبحر وأهواله . كما يبقى في قصائده هذه حيز واضح على الدوام لمشاعره الذاتية وبخاصة ما كان منها تجاه أسرته وأولاده .

أما الملامح الأندلسية التي ظهرت بوادرها لدى يحيى الغزال وأحمد بن عبد ربه وغيرهما من الشعراء الذين سلفوا فانها تبدو لدى ابن دارج أبرز وأجلى ، فهو يكثر من ذكر أسماء ملوك الاسبان وأمرائهم وقادتهم ، كما يورد العديد من أسماء الأماكن والمدن الاسبانية من خلال وصف المعارك وتصوير جوانب الحياة المتطورة في المجتمع الأندلسي . ولهذا اتسم كثير من شعره بالطابع المحلي وازدادت هويته الأندلسية وضوحاً . ومن جهة أخرى يعد ابن دراج من أغزر الشعراء شعراً وأوفرهم نتاجاً ، ولعل ما ساعد على ذلك ما عاشه من عمر مديد

ثم ما كانت حياة البلاط الحافلة تتطلبه من دأب على النظم [1] .

وقد غدت لابن دراج منزلة سامية بين معاصريه فأشادوا به وأقروا له بالتقدم ، ومنهم ابن بسام إذ قال فيه [2] : « كان أبو عمر القسطلي وقته لسان الجزيرة شاعراً ، وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملي لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها » . أما ابن حزم فقد باهى به المشرق حين قال [3] : « ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو ابن برد وحبيب والمتنبي » . وقد ذاع ذكره في المشرق فترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر وأشاد بشعره واختار منه جانباً ، وكان مما قال فيه [4] : « كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول » .

---

(١) شعر ابن دراج مجموع في ديوان كبير الحجم ، وقد حققه وقدم له بترجمة مسهبة الدكتور محمود مكي ، وصدر سنة ١٩٦١ بدمشق

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ٤٤

(٣) رسالة ابن حزم « في فضل الأندلس وذكر رجالها » الصفحة الأخيرة

(٤) يتيمة الدهر ٢ : ١١٦

ابن شُهيد

هو أبو عامر*، أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، ولد سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٢ م أيام الحاجب المنصور . وأسرة أحمد بن شُهيد تنحدر من قبيلة أشجع المضرية ، وهي أسرة شامية لاجئة استقرت في الأندلس أيام الداخل بعد أن هرب شُهيد أحد جدود الشاعر من بطش العباسيين . وكان جده أحمد بن الملك وزيراً للناصر ، وهو أول من لقب بذي الوزارتين . أما أبوه فكان من أخلص أعوان الحاجب المنصور الذي ولاه شرقي الأندلس مدة طويلة ، وكان واسع الثراء مقبلاً على الملذات .

---

* انظر ترجمته المسهبة في مقدمة ديوانه ٥ : ٧٨ بقلم يعقوب زكي جامع أشعاره ومحققها . وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ٢٧٠ - ٣٠٢ ، د . إحسان عباس والأدب الأندلسي د . أحمد هيكل ٣٩٤ - ٤٢٤ وابن شـهيد للمستشرق شارل بيلا ، نشر عمان

وفي المصادر القديمة : الذخيرة الجزء الأول من القسم الأول ١٦٧ لابن بسام ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد ١ : ٧٨ . وجذوة المقتبس للحميدي ، الترجمة رقم ٢٣٢ وبغية الملتمس للضبي ، الترجمة رقم ٤٣٧ . والمطرب لابن دحية ١٥٨ . ونفح الطيب للمقري ١ ، ٢ ، ٤ ومطمح الأنفس لابن خاقان ٦١ . وإعتاب الكتاب لابن الأبار ٧٤ . ويتيمة الدهر للثعالبي ١ : ٣٨٢ . ومعجم الأدباء لياقوت ٣ : ٢٢٠ . ووفيات الأعيان لابن خلكان ١ : ٩٥

وهكذا نشأ الشاعر في أحضان النعمة والترف ، كما تربى في كنف المنصور نفسه ولقي عطف زوجته ونال هداياها . وهو سليل رياسة وشعر ، نظم أشعاره وهو فتى ، كما نبغ في النثر وعرف برسالته « التوابع والزوابع » . وقد أغناه ثراؤه عن طلب الرزق فجنح إلى اللهو والمجون ووجد من الوقت ما أتاح له إشباع ميله إلى الأدب . وهذا ما جعله أيضاً يطمح إلى بلوغ بعض المناصب العالية ، وتحقق له ذلك فأصبح وزيراً إلى حين قصير خلال فترة حافلة بالفوضى والاضطراب . ولعل أبرز حدث سياسي في عصره فتنة البربر التي اجتاحت قرطبة سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م وعاثت فيها تقتيلاً وتدميراً . وهذه المأساة أثرت في نفسه فانطوى حزناً على قرطبة يرثيها بلوعة ، وكان آنئذ في إبان شبابه [(١)] :

ما في الطلول من الأحبة مُخبر	فمن الذي عن حالها نستخبر
فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكي بعينٍ دمعُها متفجر

* * *

كان ابن شهيد مصاباً بالصمم ولكن ذلك لم يحل دون إقباله على الحياة واستمتاعه بها ، وقد اشتهر بين معاصريه بانغماسه في اللهو . ويبدو أن جرأته على المتزمتين والجامدين ، وبخاصة من الفقهاء قد ألبت عليه الخصوم ، فاستغلوا هذا المسلك فيه ودأبوا على التشهير به . وما أورده صاحب الذخيرة بصدد مجونه قول ابن حيان فيه إنه « رجل غلبت عليه البطالة فلم يحفل في إيثارها

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، القصيدة ٢٦ ، ص ١٠٩

بضياع دين ولا مروءة ، فحط في هواه ، حتى أسقط شرفه ، ووهم نفسه ، راضياً في ذلك بما يلذه ، فلم يقصر عن مصيبة ، ولا ارتكاب قبيحة » [1] . والحق أن شعره لا ينطوي على ما يصمه إلى هذا المدى .

وانسمت نفس ابن شهيد بالمرح والميل إلى الدعابة وإيثار الهزل ، على غرار ما ألفه كثير من الشبان في تلك العهود الأندلسية ، وبخاصة من كان منهم ذا ميل إلى الفن والجمال . وتبعاً لذلك وبالإضافة اليه كان ابن شهيد من ذوي الأمزجة الحادة ، وهذه الحدة - فيما يبدو - زادت شخصيته تميزاً وطرافة . ومن مظاهر هذا المزاج تقلب منازعه وأهوائه وقلة استقراره على حال . وقد لمس ذلك فيه صديقه ابن حزم حين نفى عنه سمة المشاق والمحبين ووصفه بأنه « تزيا باسم الحب وهو ملول ، فليس منهم ، وحقه ألا يتجرع مذاقه ، وينفى عن أهل هذه الصفحة ولا يُدخل في جملتهم .. ولو وصف لي واصف بعض ما علمته منه لما صدقته .. ولقد كان أبو عامر يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد يأتي عليه ، حتى يتملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد . فاذا أيقن بتصيرها اليه عادت المحبة نفاراً وذلك الأنس شروداً .. هذا كان دأبه حتى أتلف من عشرات الوف الدنانير عدداً عظيما .. وأما إخوانه فانه تبدل بهم في عمره على قصره مراراً . وكان لا يثبت على زي واحد .. حيناً يكون في ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك » [2] .

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٦٢

(٢) طوق الحمامة في الالفة والألاف لابن حزم ٧٣

ثم يصف لنا ابن حزم هيئة ابن شهيد فيقول « وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف عنده الحدود ، وتكل الأوهام عن وصف أقله . ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لا لشيء ، إلا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوارٍ كن علقن أوهامهن به .. » ثم يتناول ابن حزم مواهبه بقوله « وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض .. » [1] .

كل هذه الصفات جعلت من ابن شهيد رجلاً شديد الاعتداد بنفسه ، وطبيعي في مثل حاله أن يمتلكه الاختيال والعجب وتمتلىء نفسه بالعزة والزهو . لقد فتح عينيه على بريق الذهب ووجد العيش رهواً ناعماً وأوتي نسباً رفيعاً وبيتاً عريقاً ، كما حباه الله شباباً غضاً وجمالاً أخاذاً .

ولم يكن ابن شهيد واسع الاطلاع غزير العلم ، ولعل حياته المترفة صرفته عن الدأب والجد فاكتفى بقراءة ما يغذي ميله ويغني قريحته من آثار الأدباء ، وبخاصة شعر الأمويين والعباسيين ، ولهذا كانت موهبته أقوى من ثقافته ، وذوقه أكبر من علمه ، وبديهته أغنى من فكره . ولعل طبيعته المرحة جعلته ينصرف عن معالجة الموضوعات القاتمة ولا يجيد في غرض

(١) طوق الحمامة في الالفة والألاف لابن حزم ٧٤

الهجاء[1] . ومن رقيق شعر ابن شهيد في الغزل :

ولما تملأ من سكره فنام ونامت عون[2] العَسس

دنوت اليه - على بعده - دنوَّ رفيق درى ماالتمس

أدب اليه دبيب الكرى وأسمو اليه سمو النفس

أقبّل منه بياض الطُلى وأرشف منه سواد[3] اللعس

فبت به ليلتي ناعماً إلى أن تبسم ثغر[4] الغلس

وتتسم هذه الأبيات بالسهولة والرقة ، فهي عذبة تتسربل بغنائية محببة ، يزينها هذا القص المفعم بالحركة بفضل توالي الأفعال مثل : تملأ ونام ودنوت وأدب وأسمو وأقبل وأرشف .. والصور سائغة برغم أنها مألوفة في الشعر لوقوعها في سياقه ومناسبتها لموضوعها كتشبيه سعيه الرقيق إلى الحبيب بدبيب الكرى ، وصعوده اليه بسمو النفس ... وربما أكسب الأبيات مزيداً من الجمال بحرها المتقارب بايقاعه الواضح المنتظم الذي يوحي بالحركة ، فضلاً عن التوازن بين شطري البيت الرابع وما انطوى عليه من المقابلة بين بياض الطلى وسواد اللعس .

وقد استحسن القدماء في أبيات ابن شهيد دقة الوصف ورقة التعبير ، وكان ابن بسام في عداد المعجبين بها ، فهو يورد مشهور قول امرىء القيس :

---

(١) ابن شهيد ، شارل بيلا ٤٨

(٢) في رواية أخرى تمدد ، والعسس : الحرس

(٣) الطلى : مفردها طلية وهي العنق . واللعس : سمرة مستحبة في الشفاه

(٤) الغلس ظلمة أواخر الليل

سموت اليها بعد ما نام أهلها　　　سمو حباب الماء حالاً على حال

ثم يقول : « ونظم أبو عامر بن شهيد في هذا المعنى بعينه خمسة أبيات استحسنها جميع النقاد وغنى عليها المغنون »[1] . ويذهب الشقندي إلى مدى أبعد حين يقرر أن أبا عامر أحرز قصب السبق وسرق معنى امرىء القيس فألان خشونته واستبدل بها رقته[2] .

فغزل ابن شهيد ـ كما هو جلي ـ ينطوي على المجون والهزل من غير فحش ولا سخف خلافاً لما رماه به بعض الجامدين من الخصوم وفي رأسهم ابن حيان . بل إن من شعر ابن شهيد في غزلياته العذبة ما ينم على فرط حساسية ورهافة مزاج ورقة طبع ، وذلك في مثل قوله[3] :

ما أطربت فوق الغصون حمامة　　　إلا رأيت دموع عيني تسكب

وإذا الرياح تناوحت ألفيتني　　　بين الصبابة والأسى أتقلب

يا عاذلي في الحب مهلاً بالأذى　　　لو كنت تعشق ما ظللت تؤنب

كم حاولت نفسي السلو فطالبت　　　أسبابه جهداً فعز المطلب

وبحق ما يقوله المستشرق شارل بيلا من أن « ابن شهيد وهو ذو نفس حساسة وذكاء حديد لا يرى في الشعر لهواً باطلاً ، بل ضرورة نفسية تسمح له بالفرار من جو يتكبد فيه المكاره والبلايا »[4] إنه يعبر عن منازعه

---

(١) الذخيرة ، الجزء الأول من القسم الأول ٢٤٤ ـ ٢٤٥

(٢) انظر كتاب : ابن شهيد ، شارل بيلا ١٠٩

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، القصيدة رقم ٦ ص ٨٨

(٤) ابن شهيد ، شارل بيلا ١٢٢

ومنازع كل إنسان بأمانة وأصالة وصدق ، وذلك من خلال لحظات شجية من أيام سجنه فيقول [1] :

وما فيَّ إلا الشعر أثبته الهوى	فسار به في العالمين فريد
أفوه بما لم آته متعرضاً	لحسن المعاني تارة فأزيد
فان طال ذكري بالمجون فانني	شقي بمنظوم الكلام سعيد
وهل كنت في العشاق أول عاقل	هوت بحجاه أعين وخدود
وإن طال ذكري بالمجون فانها	عظائم لم يصبر لهن جليد

* * *

وبرغم كثرة خصوم ابن شهيد فقد اكتسب ود العديد من رجال العلم والأدب بقرطبة ، في طليعتهم الفقيه الشاعر ابن حزم . وكانت سناهما متقاربتين فانعقدت بينهما صداقة راسخة امتدت إلى آخر العمر ، وكان من ثمارها جملة من الرسائل والأشعار .

وعندما اشتد المرض على ابن شهيد افتقد في وحشته صفيه ابن حزم ، فكتب اليه يبثه شوقه وحنينه ، ويذكره بعهود الإخاء والمودة ، ثم رغب اليه أن يؤبنه ويشيع ذكره ، وراح يقول بنبرة شجية [2] :

ولما رأيت العيش ولى برأسه	وأيقنت أن الموت لا شك لاحقي
تمنيت أني ساكن في غيابة	بأعلى مهب الريح في رأس شاهق

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، القصيدة رقم ١٨ ص ٩٩

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، القصيدة رقم ٤٧ ص ١٣٣

كأني وقد حان ارتحالي لم أفز ... قديماً من الدنيا بلمحة بارق

فمن مبلغ عني ابن حزم وكان لي ... يداً في ملماتي وعند مضايقي

عليك سلام الله إني مفارق ... وحسبك زاداً من حبيب مفارق

فلا تنس تأبيني إذا ما فقدتني ... وتذكار أيامي وفضل خلائقي

وإني لأرجو الله فيما تقدمت ... ذنوبي به مما درى من حقائقي

فأجابه ابن حزم بعبارات تنم على فيض من مشاعر الاخلاص والود :

أبا عامر ناديت خلاً مصافياً ... يفدّيك من دُهم الخطوب الطوارق

وآلمت قلباً مخلصاً لك ممحضاً ... بودك موصول العرى والعلائق

وقد تمنى له في سائر أبياته الفرج بعد الشدة ومحضه حبه ووفاءه .

ولم تطل أيام الهناء بابن شهيد ، فقد أصابه الفالج فجعله طريح الفراش وهو ما يزال بعيد الهمة شديد الطموح . وبذلك حدث انعطاف في نفسه المرهفة انعكس جلياً في شعره الوجداني الذي غنى به مشاعره الشجية وضمّنه نجواه تجاه الحياة . ويبدو أن هذه المرحلة الأخيرة من حياته قد حفزت قريحته على النظم فوجد في الشعر ما يسليه . لقد انطوى على نفسه واستسلم إلى مصيره ، فغلب التشاؤم على قصائده ، حتى إنه دأب على توقع الموت قبل وقوعه وعمد إلى رثاء نفسه قبل حين الرثاء . ومما أوصى به أن يكتب على قبره وقد تصور نفسه في داخله [1] :

يا صاحبي قم فقد أطلنا ... أنحن طولَ المدى هجود

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، القصيدة رقم ١٧ ، ص ٩٨

فقال لي : لن نقوم منها ما دام من فوقنا [1] الصعيد
تذكرُ كم ليلةٍ لهونا في ظلها ، والزمان عيد
وكم سرور همى علينا سحابةً ثرةً [2] تجود
كلٌ كأن لم يكن تقضّى وشومه حاضر [3] عتيد

ثم لم يلبث ابن شهيد بعد ذلك حتى توفي ، وكان ذلك سنة ٤٢٦ هـ ، ١٠٣٥ م ، ففارق الحياة وهو في الرابعة والأربعين من عمره دون أن يجوز طور الشباب . « ولم يُشهد على قبر ما شهد على قبره من البكاء والعويل ... وأقام عليه الصلاة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، ثم رثاه عدة شعراء ... » [4] .

* * *

لقد أوتي ابن شهيد كل ما يصبو إليه امرؤ من حسب ونسب ومن مال وجمال ، وحباه الله فضلاً عن ذلك موهبة في النظم واقتداراً على النثر .. حتى لقد لمس معاصروه منه ذلك ، فقال له أحد أصحابه مرة « إنك لآت بالعجائب وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتي منك » [5] .

ومع أن ابن شهيد متفرد بشعره تفرده في شخصيته وحياته ، فكثيراً ما

(١) الصعيد : الأرض والتراب والحجارة
(٢) همى يهمي : سال . الثر من العيون أو السحب : الغزير
(٣) العتيد : المستعد والمهيأ
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام ، المجلد الأول من القسم الأول ٢٨٢ ، ٢٨٩
(٥) نفح الطيب للمقري ٢ : ٨٠٧

كان يؤثر البقاء في فلك الشعراء المتقدمين ، فالأندلسي يظل أبداً مشدوداً بخيط ما إلى أرومته وأصالة تراثه ومهد عروبته . لقد تطلع ابن شهيد إلى امرىء القيس في لاميته [1] وابن أبي ربيعة في رائيته [2] ، كما حاكى أبا نواس والبحتري . ولم يكن هذا منه عن تقليد واحتذاء بقدر ما كان عن مباهاة واعتداد . فثقته الزائدة بنفسه وازدهاؤه بشاعريته وشعوره بتفرده وتميزه ... كانت تحول بينه وبين الذوبان في فلك الآخرين . على أن هذا الاقتراب منهم كان يثير في وجهه تهمة بعض خصومه بالانتحال . وأغلب الظن تبعاً لما عرفنا من مزاجه أنه كان يثور لهذه التهمة ويرد بحدة وعصبية على من يقذفه بها . وعلى ذلك اتسم شعره بمظهرين ، فكان في شطر منه متصفاً بالجزالة قريباً من روح المشارقة ، وكان في شطره الآخر أدل على ذاتيته وبخاصة فيما كان من غزله واخوانياته وخمرياته ... وهو في كل حال شاعر مطبوع ، ولم يتكسب بشعره ، ويمتلك ناصية الصناعتين .

---

(١) انظر لاميته في الديوان برقم ٥٣ ص ١٤٠

(٢) انظر أيضاً ديوانه القصيدة رقم ٢٤ ص ١٠٧

ابن حزم

هو أبو محمد علي بن سعيد بن حزم * . ولد سنة ٣٠٤ هـ ، ٤٩٤ م في قرطبة عاصمة الأندلس من أسرة مترفة عرفت بالجاه والثروة . فأبوه كان وزيراً للحاجب المنصور ولابنه المظفر بعده ، فرتع ابن حزم خلال نشأته في رغد من العيش وفي ظل النعيم والقصور . ولكن فتنة البربر الهوجاء التي اجتاحت قرطبة سنة ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م بعد حصار مديد مرير فأطاحت ببني عامر وزعزعت بني أمية ... كوته أيضاً بنارها ، وكان لها في نفسه ونفس صديقه

* انظر ترجمته وأخباره في : الذخيرة ، المجلد الأول ، القسم الأول ص ١٤٠ جذوة المقتبس للحميدي ٢٩٠ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ٩٣ . المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ١ : ٣٥٤ . نفح الطيب للمقري ١ : ٣٦٤ . مطمح الأنفس لابن خاقان ٥٥ . بغية الملتمس ، رقم ١٢٠٤ . طبقات الامم لصاعد ٨٦ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥ : ٧٥ . شذرات الذهب لابن العماد ٣ : ٢٩٩ الصلة لابن بشكوال ٣٩٥ . سير أعلام النبلاء للذهبي ، الجزء الخاص بابن حزم .
ومن الدراسات الحديثة : تاريخ الأدب الأندلسي ، د . إحسان عباس ، (عصر سيادة قرطبة) ٣٠٣ . تاريخ النقد الادبي في الاندلس ، د . رضوان الداية ٣٠٧ الأدب الأندلسي د . أحمد هيكل ٣٧٥ . ابن حزم الاندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، سعيد الافغاني . ابن حزم ، محمد أبو زهرة . ابن حزم د . زكريا ابراهيم . ابن حزم صورة أندلسية ، د . طه الحاجري

ابن شهيد بل في نفس جيله تأثير بالغ ، بحيث أدى ذلك إلى حدوث انعطاف في حياته . وقد لقيت أسرته من جراء هذه الفتنة عنتاً بسبب صلاتها الوثيقة ببني أمية وميلها اليهم . واضطر ابن حزم إلى الانقطاع عن العلم والخروج من قرطبة وهي على تلك الحال البائسة ، والألم يعتصر قلبه على ما آلت اليه مدينته الجميلة . فانصرف إلى العلم من جديد ، وأخذ يعب من ينابيع المعرفة . حتى لقد قطع صلته بعهد الصبا وحياة الدعة ، ثم بدا وكأنه ولد من جديد . ومن قبل كانت له مشاركة في السياسة في أوقات ومناسبات ، وناله الأذى من جراء ذلك وسجن لأمد قصير من حياته . وكانت قد أسندت اليه الوزارة سنة ٤١٤ هـ ، ١٠١٤ م قبيل انهيار الحكم الأموي .

« والفترة التي عاش فيها ابن حزم كانت بمثابة فترة انتقال من عهد الخلافة الأموية إلى عهد حكم الطوائف ، فلم يكن من الغريب عليه أن يتأثر في تفكيره وأسلوب حياته بما اعتور بلاده من تقلبات وما اختلف عليها من أحداث »[1] . كان جواب آفاق ، أمضى شطراً من حياته دائب الترحل والسفر موزع القلب ، فهو كما قال[2] :

لم تستقر به دار ولا وطن	ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من رهو السحاب فلا	تزال ريح إلى الآفاق تدفعه
جسم ملول وقلب آلف فاذا	حل الفراق عليه فهو موجعه

على أن عالمه الأثير كان في كل حال الانهماك في رحاب العلم والأدب والفقه

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٧٤

(٢) طوق الحمامة في الألفة والألاف ٨٢

والتأليف والفكر والجدل . واتسم نتاجه بالغزارة والتنوع ، إذ كانت حصيلة حياته الحافلة بالدأب « ثروة ضخمة بلغت فيما رواه لنا ابنه الفضل أبو رافع حوالي اربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة » [1] وقد نعته تلميذه الحميدي بقوله « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ... » [2] .

وجملة القول كان ابن حزم متعدد المواهب متنوع الجوانب ، ومن أفذاذ الأندلس وأعلام العرب ، امتاز بشاعريته وباقتداره في حقول النثر والنقد والتاريخ والعقائد والتفسير والفقه والملل والنحل وعلم الكلام وعلم النفس ... كما كان مفكراً ممتازاً ثاقب النظر دائباً على البحث . وقد جلبت عليه آراؤه المتميزة ونظراته الثاقبة سخط الفقهاء في عصره ، فجعلوا يجهدون في الكيد له ، وأصل مذهبه الأخذ بالتفسير الظاهري لنصوص القرآن والسنة مهاجماً في ذلك أهل القياس وأصحاب الرأي والاجتهاد على حد سواء . وكان يمعن في الذود عن مذهبه الظاهري ولو عاند في ذلك غالبية العلماء وألب عليه جمهرة الفقهاء ، ففي اعتقاده أن أخذ الأكثرية من الناس بفكرة ما لا يعني بالضرورة أن الحق بجانبهم . وقد لقي ابن حزم من جراء طبيعته الجدلية عنتاً من معاصريه رأيناه يعبر عنه في مناسبات متعددة موضحاً منحاه الفكري ومصوراً جوه الصاخب [3] :

---

(١) ابن حزم الأندلسي ، د . زكريا ابراهيم ٨٩

(٢) جذوة المقتبس ، الحميدي ٢٩١

(٣) الصلة ، ابن بشكوال

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت		أقوالهم ، وأقاويل العدا محن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا		أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن
وأنني مولع بالنص لست إلى		سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بها		في الدين ، بل حسبي القرآن والسنن

« ويظهر أن العداء الذي ابتلي به ابن حزم قد اتسع حتى شمل بعض أفراد أسرته ، فقد ناصبه العداء ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم ، وكان حرياً به أن يقف إلى جانبه في محنته ، ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه بدلاً من أن يعينه على الزمان »[1] وهكذا يبدو لنا ابن حزم كمن كان يخوض حرب جدال وخصام مع معاصريه . ولا شك أن هذا الحال قد حز في نفسه وأورثه كثيراً من المرارة ، ولهذا راح يقول بحسرة وأسى :

إني لأعجب من شأني وشأنهم		واحسرتا إنني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه		إلا وطارت به الأظعان والسفن
أما لهم شغل عني فيشغلهم		أو كلهم بي مشغول ومرتهن
كأن ذكري تسبيح به أمروا		فليس يغفل عني منهم لسن

وكان طبيعياً أن يتصدى الفقهاء بحزم لابن حزم . لقد ضاقوا به وسخطوا عليه ولم يحتملوا تكفيره لبعضهم فعمدوا إلى استعداء الحكام عليه واستصرخوا علماء الأمصار ضده ، واستطاعوا أن يثيروا حفيظة المتضد بن عباد نحوه ، فلم يتورع عن احراق مصنفاته على ملأ من أهل اشبيلية ، مسايرة للعامة وإرضاء للفقهاء .

---

(١) ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، سعيد الافغاني ١٣٦

« ولا بد من أن تكون هـذه الحادثة قـد تركت وقعاً سيئاً في نفس ابن حزم ، فما كانت كتب العالم إلا بُضعة من نفسه » [1] ، فكان مما قاله في هذه المحنة [2] :

فان يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي
تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

* * *

وثمة نمط آخر من الشعر أجاد فيه ابن حزم ولعله تفرد به بين أدباء الأندلس ، إنه الشعر الفلسفي الذي تخفت فيه نبرة التحدي وتخف خلاله حدة الخصام ، حيث يغدو المجال رحيباً في عالم الفكر ويكون بوسع العقل أن يبلغ أعلى قمم التجريد الذهني [3] :

أمن عالم الأملاك أم أنت انسيُّ	أبن لي فقد أزرى بتمييزي العِي
أرى هيئة انسانية غير أنه	إذا أُعمل التفكير فالجِرم عُلوي

(١) ابن حزم الأندلسي ، د . زكريا ابراهيم ٤٦
(٢) معجم الأدباء ، ياقوت ١٢ : ٢٤٨
(٣) الأبيات من كتاب « طوق الحمامة » ابن حزم ١٠

تبارك من سوّى مذاهب خلقه   على أنك النور الأنيق الطبيعي
ولا شك عندي أنك الروح ساقه   الينا مثال في النفوس اتصالي
عَدمنا دليلاً في حدوثك شاهداً   نقيس عليه ، غير أنك مرئي

إن الأفكار هي قوام الأشعار لدى ابن حزم ، وإن العقل هو الذي يلف أكثر أدبه ، وذلك بحكم تكوينه الفكري والعلمي . فابن حزم كما نعته الأقدمون « أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار »(١) وإن طبيعة مؤلفاته تنبيء عن هذا المنحى في أدبه وفي مقدمتها كتابه الجليل « الفِصَل ، في الملل والنحل » ، وهو من أشمل ما صنف في الديانات والمذاهب والعقائد ، وكتاب « جمهرة أنساب العرب » وهو ذو طابع علمي تاريخي . أما كتابه « طوق الحمامة ، في الألفة والألاف » فيمتاز بالأصالة وعمق التحليل النفسي ، ويعد أوفى دراسة موضوعية لعاطفة الحب كتبها أديب عربي في القديم ، وهو ذو طابع أدبي طريف ، وقد انطوى « طوق الحمامة » في الوقت نفسه على كثير من أشعار ابن حزم وفي طليعة ذلك غزله .

وابن حزم ـ على تفقهه وتدينه ـ جياش العاطفة شديد التأثر بالجمال . ومما ينم على تذوقه لمحاسن المرأة قوله (٢) :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها   فقلت لهم : هذا الذي زانها عندي

(١) نفح الطيب ، المقري ١ : ٣٦٤
(٢) الأبيات مستمدة من طوق الحمامة ٤٦

يعيبـون لون النور والتبر ضِلةً لرأي جهول ٍ في الغواية ممتـد
وهل عاب لونَ النرجس الغض عائب ولونَ النجوم الزاهرات على البعد
وأبعدُ خلق الله من كل حكمة مفضل جِرم فاحم ِ اللون مسود
به وصفت ألوان أهل جهنم ولبسة باك ٍ مثكل ِ الأهل محتـد
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد

وتنطوي هـذه الأبيات على دلالات اجتماعية ونفسية وسياسية ، فبياض الأجساد وشقرة الشعور أصبحتا في عصر ابن حزم شائعتين في المجتمع الأندلسي بخصائصه الجديدة المتميزة ، فلم تعـد الوجوه السمر والشعور الفاحمة سائدة في هيئات الأندلسيين وسحنهم . وتشف الأبيات عن اعتداد الشاعر بذوقه وثقته بنفسه ولو كان في ذلك ما يغاير رأي سائر الناس ، وهذا ما دأب عليه أيضاً طوال حياته من جهره بأفكاره وحرصـه على إعلان الحقيقة دون أن يهتم بما ينجم عن ذلك من رضى أو سخط . كما تعكس القصيدة من جهة أخرى نزعة ابن حزم إلى الاستدلال العقلي والقياس المنطقي وتنم على ميـله إلى البرهان والمحاجة . أما الطبيعة الأندلسية فقد غدت ركناً في الشعر العربي في الأندلس نرى ملامحها الجميلة خلال ما ذكره الشاعر من النور والتبر والنرجس والنجوم ... وأما البيت الأخير فهو يكشف دون لبس موقف ابن حزم السياسي الذي كان هواه مع بني أمية ، ولهـذا عمـد إلى التعريض بالعباسيين واستغل ، بذكاء ، عنصر المقابلة بين البياض والسواد ، منتقلاً ببراعة من صعيد الغزل إلى صعيد السياسة ، بعد أن آثر رايات بني أمية البيض على رايات بني العباس السود .

ومن شعره المبثوث في كتابه الجميل « طوق الحمامة في الألفة والألاف »

قوله في الغزل أيضاً [1] :

وددت بأن القلب شُق بمدية ... وأدخلتِ فيه ثم أطبقَ في صدري
فأصبحتِ فيه لا تحلين غيره ... إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فان أمت ... سكنتِ شغاف القلب في ظُلَم القبر

فطابع العقل يطل أيضاً من خلال هذه الأبيات على غرار ما عهدناه قبلها ، فهناك ما يشير إلى أثر التفقه لدى الشاعر في كلمات الغواية والضلة والرشد وجهنم ... وهنا الحلول والقيامة والحشر وما بعد الحياة ..

ويتجلى هذا الجانب العقلي وتلون ثقافة ابن حزم بالفلسفة والعقائد على نحو بارز في جانب آخر من أشعاره ، من نحو قوله فيمن يهوى حبيبين :

كذب المدعي هوى اثنين حتماً ... مثلما في الأصول أكذب ماني
فكما العقل ليس يدري ... خالقاً غير واحد رحمان
فكذا القلب واحد ليس يهوى ... غير فرد مباعَد أو مدان

فالشاعر يؤمن بالوحدانية سواء على صعيد الدين أو الحب . وهو في الوقت نفسه يُشير إلى تعاليم المانوية الثنائية التي سرت إلى العرب من الفرس ، وكان ابن حزم عليماً بهذه الأفكار ، كما انطوى هذا الشعر على ألفاظ المناطقة والفقهاء والقضاة مثل : الحتم والمدعي ، والكذب والأصول ..

وكثيراً ما يجنح الشاعر إلى التلميح دون التصريح مؤثراً المعاني البعيدة وطرائق التعبير الباطنية أو الصوفية ، وذلك ما جعل جانباً من شعره يتسم

(1) طوق الحمامة ، ابن حزم ٩٢

بالتجريد ولا يسلس قياده للقارىء العابر بيسر . وهذه سمة تكاد تكون فريدة في ابن حزم وقلما اتسم بها من عرفنا من شعراء الأندلس .

وإذا كان أعذب الشعر ما اندفق من الشعور ، فان أجمل ما نظمه ابن حزم ما كان صادراً عن صميم وجـدانه وعاطفتـه ، ومعبراً عن خالص منازعه ومشاعره ، ومن هـذا القبيل ما نظمه عن تجربة ومعاناة في قصيـدته السائرة التي منها هذه الأبيات (١) :

أنا الشمس في جو العلوم منيرةً	ولكن عيبي أن مطلعيَ الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع	لجدَّ على ماضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابةٌ	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان يُنزل الرحمن رحلي بينهم	فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل : أغفلته وهو حاضر	وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يُدرى أن للبعد غصةً	وأن كساد العلم آفته القرب
فوا عجبا ، من غاب عنهم تشوقوا	له ، ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق	على أنه فِيحٌ مذاهبه (٢) سُهب
وإن رجالاً ضيعوني لضُيَّع	وإن زماناً لم أنل خصبه (٣) سَغب

(١) انظر الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ١٤٥ وجذوة المقتبس للحميدي ٢٩٢ ، وقد خاطب بالقصيدة قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن أحمد بن بشر

(٢) فيح : مفردها افيح وفيحاء أي واسعة . والسهب والسهوب : مفردها سهب وهو الأرض الممتدة التي لا زرع فيها

(٣) سغب يسغب سغباً : جاع فهو سغب

فالأبيات مفعمة بأشجى المشاعر ، تتجلى خلالها نفس الشاعر المرهفة وقد انطوت على الحسرة والمرارة واستبد بها الحزن والأسى . وابن حزم يشعر بالغربة في أرضه ووطنه ويعاني من الوحشة بين أهله وعشيرته ، وما ذلك إلا لأن قومه لا يقدرونه حق قدره ، إذ لا عيب فيه عندهم سوى أنه أندلسي ، ولو كان مشرقياً لكان له شأن آخر بينهم ، ولكن لا كرامة لنبي في قومه . وهكذا راود أحلامه الرحيل إلى العراق وتخيل نفسه في أشعاره أنه في سبيل تحقيق أمنيته ، وعندئذ سيفتقده قومه ويشعرون بفضله فيغالبهم الندم لأنهم تجاهلوه وهو ماثل أمامهم ، وأغفلوه وهو مقيم بينهم ، وإذ ذاك تهفو اليه نفوسهم ويتسقطون أخباره من خلل رسائله وكتبه . وهكذا ، وبعد فوات الأوان ، يدرك قومه الحقيقة المرة عندما يتجرعون غصص الفراق والبعد . حقاً إن شر ما يبتلى به العلماء أن علمهم لا شأن له في وطنهم . وإنه لأمر عجاب ـ كما يرى ابن حزم ـ أن يلقى المرء الإعراض والعقوق في بلده ، على حين يحظى بالعطف والتقدير عندما يغيب عن نواظر قومه ويحط رحله في أرض غير أرضه وبلد غير بلده . إن موطناً كموطن الشاعر في الأندلس يضيق عن مثله إنما هو ضيق حقاً برغم اتساع رقعته وامتداد مسالكه ، أليس في تضييع قومه له ولأمثاله سوى ضياعهم هم أنفسهم . إن زماناً يبخل بفضله على أبنائه لهو زمان شحيح جديب .

وعلى الرغم مما لقيه ابن حزم في الأندلس ، وطنه ، من عنت ... وما عاناه بين أهله من رهق ، فان حبه لبلاده وأمته كان عارماً . ولعل ما لمسناه في قصيدته البائية السالفة وسائر ما أورده في كتابه « طوق الحمامة » من هذا

القبيل من شعور بالمرارة إنما كان نابعاً من شدة تعلقه بوطنه وقومه ، حين خابت آماله فيما كان يرجوه منهما من تفهم وتقدير ، وهو الذي دبج رسالته الرائعة في « فضل الأندلس وذكر رجالها » وأشاد بعلمائها وباهى بشعرائها وتاه على المشرق بأعلامها . وهو الذي قال مزدهياً بمغربيته ، معتداً بأندلسيته :

ويا جوهر الصين سحقاً فقد غنيت بياقوتة الأندلس

وهكذا ظل ابن حزم من خلال الحياة الحاميـة التي عاشها مثالاً لحرية الفكر وصلابة المبدأ ، كما ظل منارة لقومه وخادماً لتراثه . وما زال يدأب على العطاء حتى بلغ الثانية والسبعين من عمره الحافل ، فتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، ١٠٦٤ م عن اربعمئة أثر مصنف .

* * *

لقد حرص ابن حزم على أن يكون صاحب مذهب ، مذهب في الفقه وفي الحب ، وفي الشعر . إنه دحض تملق المحب الذي يدعي هوى اثنين لأن التعدد دليل الشهوة على حين يرى الوحدانية قوام الحب . ومن جهة أخرى فان صدق التجربة والمعاناة في رأي ابن حزم قوام الشعر الحق . وانطلاقاً من هذا المفهوم أخذ على الكثيرين من معاصريه لجوءهم إلى الافتعال في الشعر « وسخر من الدموع الغزار التي يذرفونها على ديار الحبيبة أو خيامها التي خلفتها .. ورأى أن الكلام الذي أكثر الشعراء منه في وصف بهجة الوصل لا يطابق الواقع إلا في قليل » [1] .

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٧٥

وابن حزم نفسه انطلق في شعره من المفاهيم التي دعا اليها ، فلم يكثر من استعمال المجازات والتشبيهات وأضرب البلاغة ، كما لم يقع في السرف العاطفي بل كان يؤثر المنحى الطبيعي والجو العفوي ، ويجنح لعرض النفس على فطرتها ، والطبع على سجيته .

ومع ما عرفنا من شعر ابن حزم وما لم نعرف [1] ، فان نبوغه الحقيقي في نظر معظم النقاد والباحثين إنما يتجلى في مجالات أخرى ، حيث ينطلق في رحاب العقل ومذاهب الفكر ، ليبقى آخر الأمر نسيج وحده فيمن أنجبتهم الأندلس .

---

(١) لم يجمع ابن حزم شعره في ديوان بل تركه مبعثراً يتركز شطر منه في كتابه طوق الحمامة . وقد جمعه من بعده تلميذه الحميدي ورتبه على الحروف ، غير أن المجموعة لم تر النور إلى الآن

الشعر الأندلسي

في

عهد الطوائف

تمهيد : الحياة الأدبية في ظل الطوائف

عندما غربت شمس القرن الرابع وأطل فجر القرن الخامس بدا جلياً أن عهد المنعة والوحدة في ربوع الأندلس قد آذن بالمغيب . لقد استطاع الحاجب المنصور أن يطيل أمد سيادة قرطبة وأن يمد في أجل الدولة العربية الواحدة ، بفضل ما أوتي من بأس وحزم . كان كل شيء مرتهناً بقوة الحاكم واقتداره . فما إن زال هـذا الحاكم حتى انطلقت المطامع واشرأبت الأهـواء وسادت الفوضى ، وأصبح متعذراً الحفاظ على وحدة البلاد . وهكذا صارت الدولة إلى دول ، وغدا لكل دولة ملك أو أمير . وراحت هذه الممالك تتصارع ويكيد بعضها لبعض ، وجعل كل حاكم يتربص بالآخر ويتطلع إلى ضم ملكه اليه والانقضاض عليه ، على حين كان في الوقت نفسه يتوجس خيفة من جاره ويدأب على الحـذر منه ، ويجهـد في إنفاق المال على الحصون والقـلاع ، والاستكثار من المرتزقة والأعوان . حتى غدت مشكلة الحدود الداخلية تستأثر باهتمام الحكام ، وبذلك انكشفوا أمام العدو واستسلموا لمشيئته ، ورضوا بدفع الجزية اليه ، بـل كثيراً ما استعانوا به على إخوتهـم وأبناء عمومتهم في سبيل

استرداد حقوقهم أو تحقيق مآربهم [1] .

« استيقظت اسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا ، كان ذلك عصر (السيد القمبيطور) . ثم إن أهل المغرب - فيما يلي الزقاق - نظموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة . وبين ناري النصارى في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد وهن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده . ومثل هذا الحال جدير بأن يشتكى منه » [2] . ومن هنا قال ابن رشيق القيرواني :

مما يزهدني في أرض أندلس　　　أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها　　　كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

*　　*　　*

وإذا كان لكل دولة حاكم جيش وحصون وأعوان ... فقد كان لها في مقابل ذلك حياة أدبية وفكرية ، وبلاط تنعقد فيه مجالس العلماء وحلقات الشعراء . فعلى الرغم من أن الأندلس غدت في القرن الخامس الهجري مقسمة

(١) من الأحداث المؤسفة أن حاكم طليطلة في دولة بني ذي النون يحيى القادر استعان بألفونسو ليعيده إلى الحكم بعد أن أطاح به بعض خصومه فكان أن استولى الفونسو على طليطلة مغتنماً هذه الفرصة الذهبية .. كذلك تحركت مطامع المعتمد بن عباد وحدثته نفسه بتوسيع رقعة ملكه وضم مملكة غرناطة اليه ، فاتفق مع ألفونس أيضاً على أن يحتلاها معاً ، ورضي أن يدفع له الجزية .. غير أن ألفونس آثر المضي في استخلاص البلاد لنفسه ولم يعد يرضيه جزية أو نحوها . وعندئذ أدرك ابن عباد خطورة الأمر فاستعان بالمرابطين في أفريقية

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٧٧

سياسياً إلى إمارات عديدة متناحرة ، فقد نجم عن هذه التجزئة تنافس الأمراء في مضمار العلوم والفنون . وهـذا نفسه ما حدث في المشرق حين قامت على أنقاض سيادة بغـداد المنهارة حواضر أخرى متباعدة غـدت مراكز حضارية ناشطة .

« ومن هنا كان هذا الزمان عصراً عظيماً للشعر والشعراء ... وكان لكل أمـير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه : فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعـلم الغزير ، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبـذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعـلوم ، وبز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنـثر الجميل المسجوع . أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهـم جميعاً يلقى منهـم كل رعاية ، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل »[1] .

وفي هذا الصدد يصور المستشرق غارسيا غوميس الحياة الأدبية في هذه الحقبـة وبخاصـة جواء الشعر والشعراء بقوله إن « الشعراء مضوا يقطعون الأندلس طـولاً وعرضاً ينتجعـون قصـور الأمراء حيث يظفرون بالمـأوى والصلات ، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر ، وتدرج أسماؤهم في سـجلات الدواوين ، وتقرر لهم الأرزاق ، وتخلع عليهم وظائف التدريس ... وكان كبار القوم من مـلوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء لا يتراسـلون إلا شعراً . فكانوا يتهادون رقاعـاً صغيرة تحمـل عبارات الدعـوات والاعتذارات

(١) الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة حسين مؤنس ٤٥

والأهاجي ، أو يرفقونها بهداياهم أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم ، كلها منظومـة شعراً يشبهون أنفسهم فيـه بالنجوم والزهور ، حتى أصبحت حياتهم كلها شعراً صرفاً » [١] .

لقد بقيت الشخصية الأندلسية متألقة في الأندلس بفضل جذورها البعيدة عبر القرون التي سلفت . وتجلى ذلك حتى في عهد تسلط المرابطين بعد ذلك ، شأن اليونان قـديماً ، إذ قهرهم فاتحوهم الرومان سياسياً ذات يوم ، ولكنهـم قهروهـم حضارياً . وحتى في المغرب الذي انتقـل اليـه حيناً مركز الثقـل السياسي ، كان أدباؤه ، في معظمهم ، أندلسيين لا مغاربة [٢] ، وكانت الروح الأندلسية تطبع الحياة الأدبية في تلك الربوع إلى جانب سلطان التأثير المشرقي الباقي .

(١) الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة حسين مؤنس ٤٦
(٢) انظر تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس ٩

ابن زيدون

ابن زيدون ، هو أبو الوليد ، أحمد بن عبد الله المخزومي . ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، ١٠٠٣ م . وقبيلة مخزوم من أشهر بطون قريش ، وقد وصل بعض رجالها إلى اسبانيا أوائل الفتح العربي وكانوا من أشياع بني أمية ، ومنهم تحدر الشاعر ابن زيدون . وقد نشأ الشاعر في كنف والده ، وكان فقيهاً وقاضياً من أعلام المذهب المالكي ، « واسع الثقافة ، غزير العلم ، مشهوراً بالبلاغة ، معروفاً بمكارم الأخلاق ، وكان على حظ وافر من الثراء أتاح له ـ مع علمه وخلقه وفصاحته ـ أن يكون ذا شأن في بلده ، وكان معدوداً في علية القوم »[1] . تتلمذ ابن زيدون على علماء عصره في قرطبة ، وتمكن في اللغة والرواية ، وعرف بثقافة واسعة تركت مياسمها على رسائله ، وعلى قصائده .

وقد انعقدت بين أبي الوليد ابن زيدون الشاعر وبين أبي الوليد بن جهور ولي العهد مودة راسخة ظلت أمداً طويلاً قبل تولي ابن جهور زمام الأمور واستمرت بعده .

وما كاد ابن زيدون يبلغ العشرين حتى دفعته الأحداث العاصفة ومطامحه

---

(١) ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ، من سلسلة أعلام العرب ، علي عبد العظيم ٦٤

المتوثبة إلى الخوض في غمار السياسة ، يحفزه على ذلك عراقة نسبه ومنزلة أسرته وتعدد مواهبه . وأغلب الظن أنه استطاع أن يسهم في توجيه الصراع لمصلحة آل جهور ، وأن يكون من أبرز القرطبيين الذين حملوا الجهوريين إلى الحكم ووطدوا لهم الملك سنة ٤٢٢ هـ . وهكذا أسندت اليه الوزارة حيناً من الزمان ، كما عهدت اليه السفارة لدى بعض ملوك الطوائف ، فكان خير من توكل اليه الأمور في كل حال .

غير أنه غدا مألوفاً في مثل هذه الأحوال المضطربة أن يكتوي المرء بنار السياسة فيكثر منافسوه ويكيد له الحساد ويتألب عليه الحاقدون . فقد حدث أن حلت القطيعة بين الشاعر وبين أميره ابن جهور الأب حاكم قرطبة ، ولم يلبث ابن زيدون أن جرد من الوزارة وغيب في السجن . فراح يندب حظه ويترجى ويستعطف ، ويخاطب أبا الحزم بن جهور في رسالته الجدية بأن « لا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق » .

ومن جهة أخرى لا يبعد أن تكون نفس ابن زيدون المتعطشة إلى المجد هي التي سولت له أن يتغير على آل جهور ، وهو من عرفنا اعتداداً وطموحاً . ولسنا نتوقع من شاعر مثله مدل بنفسه أن يطأطيء الرأس أمام حاكم يعتقد أنه شارك في صنعه وأسهم في رفعه . وربما جال في خاطره أنه كما استطاع في يوم ازاحة حاكم فهو قادر في يوم آخر على الإطاحة بحاكم ، ولم لا يستخلص الأمر لنفسه هذه المرة ؟ أليس في تذمر الناس الذي أخذ يعلو ، وفي حنينهم إلى عهد الخلافة الأموية الذى أخذ يطغى ، ما يغريه بتحقيق مطامحه ؟ أليس بوسعنا أن نرى في هروبه من قبضة الجهاورة بقرطبة ولوذه بأكناف العباديين

في اشبيلية ما يرجح هـذا الرأي ؟ فمن الباحثين من يجنح إلى أن منافسه ابن عبدوس الوزير ، وكانت بينه وبين ابن زيدون خصومـة بسبب ولادة ، هو الذي دفع به إلى السجن حين عزا إليه أنه يحاول القيام بالثورة والإطاحة بحكم الجهوريين ، فوضعت في يديه الأغلال وقـدم إلى المحاكمـة [1] . وإن أشد ما يخشاه الحكام هـو تطلع من حولهم إلى السلطة ، وهم لا يتورعون عند الضرورة عن ضرب أقرب المقربين اليهم ولو كانوا اخوة لهم بل أبناء .

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن زيدون في سجنه مرارة الذل بعد العز ، والشقاء بعد السعادة . فكانت تجربة جديدة وحادة في حياته تركت أبلغ الأثر في نفسه .

* * *

على أن حب ابن زيدون لولادة هو الذي ملك عليه قلبه وأفعمه بالمرارة ، إذ لم ينعم معها بالوصال إلا غراراً . وهكذا اصطلح عليه السجن والهجر فكاد يذوب أسى ولوعـة ، وعاش حيناً من الزمان بين مـد الأمل وجزر اليأس يستعيد ذكرياته العذاب وأيامه الخوالي حتى صهرته الآلام وأخنت عليه الأيام ، واكتسب شعره من ذلك كله غنى ومضاء .

وولادة هـذه هي بنت المستكفي بالله ، الخليفـة الأموي الذي جاء قبل الخليفة الأخير في الأندلس . وقد بويع سنة ٤١٤ هـ ، ولم يستتم حكمـه عامين في فترة شديدة الاضطراب . وكان ماجنـاً متهتكاً ، ومما جاء في ذخيرة ابن

---

(١) ابن زيدون ، د. شوقي ضيف ٢٣

بسام عنه أنه « لم يجلس في الامارة مـدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص » [1] ، وأنه « كان مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً من كل خلة تدل على فضيلة ، معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانيـة ، أسير الشهوة » .

أما ولادة ابنة هـذا الخليفة فكانت كما تصفهـا كتب الأدب والتراجم امرأة مترفة ذات نصيب وافر من الذكاء والجمال . وقد عرفت بقوة شخصيتها وبجرأتهـا واستهتارهـا ، وكانت شاعرة مبدعـة تهوى الأدب وتجيـد الغناء ، وتحسن الضرب والايقاع على الآلات الموسيقية [2] ، حتى إنهـا جعلت من بيتها مراداً لرجال الفكر وأعيان المجتمع « وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حـلاوة عشرتهـا ، إلى سـهولة حجابهـا ، وكـثرة منتابها [3] » . وكانت تحسن الضرب والايقاع على الآلات الموسيقية ، « كل ذلك كان يشع حولها السحر والفتنة ، فتهوى اليها افئدة الشعراء من قرطبـة وغير قرطبة ، فـلا تفتأ تتصباهم ، وتشعل في قـلوبهم نار الهوى والهيام » [4] فحرص الكـثيرون على لقائهـا وتنافس العـديدون على وصالهـا ، وكان أبرزهم الوزيرين ابن عبدوس وابن زيدون . ويبدو من خلال سيرتها أنها امرأة لعوب

---

(١) الذخيرة : القسم الأول ، المجلد الأول ٣٨٧ ، ٣٨٠

(٢) ابن زيدون ، د . شوقي ضيف ١٩

(٣) الذخيرة ، ابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ٣٨٠

(٤) ابن زيدون ، د . شوقي ضيف ٢٠

ذات مزاج فائر متقلب ، ولهذا تابت على الراغبين ولم تمحض ودها كاملاً أحداً من المعجبين ، مؤثرة في ذلك كله أن تعيش حياتها وفق مشيئتها ورغائبها . وبوسعنا أن نلمح في سلوكها ومزاجها أثراً من طبيعة أبيها ونزواته فضلاً عن تأثرها في نشأتها بحياة الانطلاق التي عرفت بها أسرتها . ومما اشتهرت به بيتان لها نظمتهما وطرزتهما فيما يقال على شقي ثوبها [1] :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وعلى الرغم من أن هذا الشعر ، إن صح خبره ، لا يعدو - في رأينا - حد الاثارة من قبل صاحبته بغية لفت الأنظار واستقطاب الاهتمام لدى الرجال فانه يدل بجلاء على ما بلغته المرأة العربية في المجتمع الأندلسي أو في بعض طبقاته الاجتماعية من تحرر وانطلاق . كما ينطوي من جهة أخرى على صورة بارزة للشخصية الأندلسية في صفاتها الجسدية المستحدثة التي أخذت تتجلى بوضوح نتيجة للتمازج الجنسي بين العرب والاسبان . حتى لقد أخذت مقاييس الجمال في التبدل وأصبح للشقرة والبياض أنصار وهواة ، وقد رأينا ابن حزم في عداد هؤلاء . وبهذه السمات الجسدية وصف ابن زيدون ولادة بجسدها البض الأبيض وبشعرها الذهبي الأشقر :

ربيب ملك كأن الله انشأه مسكاً ، وقدّر إنشاء الورى طينا
قد صاغه ورِقاً محضاً وتوَّجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

(١) الذخيرة ، القسم الأول من المجلد الأول ٣٨٠

وكما عرف عنترة بعبلة وقيس بليلى وجميل ببثينة وكثير بعزة .. عرف أيضاً ابن زيدون بولادة ، فقلما ذكر إلا بها وقلما ذكرت إلا به . لقد كانت النور الذي أضاء قلبه كما كانت النار التي لذعت فؤاده . وتبقى ولادة من جهة أخرى مثالاً حياً على الظاهرة التي اتسم بها الأدب العربي في الأندلس من خلال ملمح من أبرز ملامحه وهو بروز النساء الشاعرات في الحياة الأدبية للمجتمع الأندلسي .

وأخبار ابن زيدون مع ولادة تملأ كتب الأدب ، وقد حظيت باهتمام كل من أصحاب الذخيرة وقلائد العقيان ونفح الطيب ... ومن هذا القبيل ما ذكره ابن بسام من قول أبي الوليد ابن زيدون يصف أول لقاء لهما : « كنت في أيام الشبابِ ، وغرة التصابي ، هائماً بغادة ، تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء ، كتبت إليّ :

ترقّب إذا جن الظلام زيارتي ... فاني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا ... وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر

ويمضي صاحب الذخيرة في وصف هذه الخلوة على لسان ابن زيدون فيقول [1] « فلما طوى النهار كافوره ونشر عنبره [2] أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل . فملنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج [3] ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل

---

(١) الذخيرة ، المجلد الأول من القسم الأول ٣٧٧

(٢) المراد بالكافور البياض مجازاً وبالعنبر السواد

(٣) مدبج : منقوش مزين بالزهر ، سجسج : معتدل لطيف

أنهاره . ودر الطل منثور ، وحبب الراح مزرور [1] ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا أليم ما بقلبه . وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور ... فلما انفصلنا صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودع الصبر محب ودعك	ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن	زاد في تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى	حفظ الله زمانا [2] اطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم	بت أشكو قصر الليل معك

وتكرر اللقاء في حدائق قرطبة ، وابتسمت الدنيا للحبيبين ، وراح ابن زيدون يصور سعادتهما الغامرة فيقول وكأنه غير مصدق ما كان فيه :

لقد بلغتني دواعي هواك	إلى غاية ما جرت لي ببال
فقل للهوى يجر ملء العنان	فميدان قلبي رحيب المجال

ولكن أيام السعد ما لبثت أن انقلبت إلى شقاء ، وسرعان ما حدثت الجفوة بين المتحابين . ثم كانت القطيعة المرة التي أورثت نفس ابن زيدون المعذبة جرحاً بليغاً ظل ينزف ألماً طوال حياته .

ولقيت ولادة في ذلك الحين أبا عامر بن عبدوس ، وكان كلفاً بها يطمع في أن يظفر بودها ، ولكنه لم يكن لديه من المواهب ما لدى ابن زيدون فكان

---

(١) الحبب : الزبد . وفي رواية ، الجيب ، وهو القلب وداخل كل شيء

(٢) السناء : الرفعة والمجد ، والسنى : النور والضياء

يغطي ذلك ويعوضه بماله المريض . وقد حذره ابن زيدون وأنذره ودبج اليه رسالته الهزلية المطولة ، فاستشاطت ولادة تجاهه غضباً وازدادت عنه إعراضاً .

ولا نكاد نقع على سبب أوضح لما حدث بين ابن زيدون وولادة ، فابن بسام في ذخيرته يذكر أن الشاعر طلب من جارية سوداء تدعى « عتبة »[1] أن تعيد على مسمعه لحناً غنته فاستحسنه ، فظنت ولادة به سوءاً وأنه كان يغازلها من دونها ، فاشتعلت في نفسها الغيرة واستبد بها الغضب وراحت تعاتبه بأبيات تنطوي على التعالي والمرارة ، وبدأ قلبها يتحول عنه . ويرى الدكتور جودت الركابي « أن هذا السبب ليس وحده الذي أدى إلى الجفاء ثم القطيعة ، فقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد ترك في نفسها أثراً سيئاً ، وهي بنت خليفة أموي ، فجاءت الغيرة تذكي في نفسها شتى الوساوس »[2] . وهذا رأي وجيه . ومع ذلك ، ففي رأينا أن ما قام به ابن زيدون من عمل سياسي لم يكن خافياً على أحد ، وكانت ولادة أيضاً على علم به أثناء علاقتها الحسنة مع الشاعر ، فما معنى أن تحاسبه على موقفه ذاك بعد حين ؟ أغلب الظن أن ولادة ذات النفس الفائرة والطبيعة المتقلبة هي التي تغيرت على ابن زيدون وتعلقت بوزير آخر ذي شأن هو أبو عامر بن عبدوس دون أن ترعى لحبها عهداً . على أنه إذا صح أن ولادة حقدت على ابن زيدون لانحيازه إلى الجهاورة ضد بني أمية الذين تنتمي هي اليهم مع والدها ، فمعنى ذلك أن ابن زيدون أغضب بعمله هذا ولادة ، ثم لم يستطع أن يحتفظ طويلاً بثقة آل جهور ،

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٨١

(٢) انظر ما كتبه الدكتور جودت الركابي باسهاب في كتابه : « في الأدب الأندلسي » ١٧١

فباء بخسران مبين .

وبدا ابن زيدون في هذه المرحلة وكأن الدنيا قد أدبرت عنه .

* * *

وتشاء الأقدار أن تتكاثر على ابن زيدون المحن ، حين نقم منه أيضاً أبو الحزم ابن جهور . وما هي إلا عشية وضحاها حتى وجد نفسه في قرارة السجن . لقد راح يندب حظه ويجهد في إلانة قلب حبيبه اليه ، واستدرار عطف مليكه عليه ، ولكن دونما جدوى وكأنما كان في الآذان وقر ، أو كأن القلوب قدت من صخر .

ها هو ذا ابن زيدون في أعماق السجن يستعطف ابن جهور ، مستهلاً قوله بمناجاة ولادة [1] :

ما جال بعدكِ لحظي في سنا القمر	إلا ذكرتكِ ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذَماء الليل من أسف	إلا على ليلة سرَّت مع [2] القصر
فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لي	إن الحوار لمفهوم من الحَور
لم تَطو بُرد شبابي كَبرة وأرى	برق المشيب اعتلى في عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصِّبا كثب	وللشبيبة غصن غير [3] مهتصر
لا يَهنأ الشامتَ المرتاح خاطره	أني معنَّى الأماني ضائع الخطر

(١) ديوان ابن زيدون ٢٥٠

(٢) الذماء : بقية الروح ، وهنا بقية الليل

(٣) أدخل ابن زيدون السجن سنة ٤٣٢ على وجه التقريب وسنه تقارب الثامنة والثلاثين ثم تمكن من الهرب بعد بضعة عشر شهراً

إن طال في السجن إيداعي فلا عجب — قد يودع الجفنَ[1] حدُّ الصارم الذكر

وإن يثبّط أبا الحزم الرضى قدر — عن كشف ضري فلا عتب على القدر

وزير سلم كفاه يمنُ طائره — شؤم الحروب، ورأي محصَد[2] المِرر

أغنت قريحته مُغنى تجاربه — ونابت اللمحة المجلى عن الفكر

قد كنت أحسبني والنجمَ في قَرَن — ففيم أصبحت منحطاً إلى[3] العفَرِ

لا تله عني فلم اسألك معتسفاً — ردَّ الصبا بعد ايفاء على الكبر

هبني جهلت فكان الجهل سيئة — لا عذر منها سوى أني من البشر

إن السيادة بالاغضاء لابسة — بهاءها، وبهاء الحسن في الخفر

فاشفع أكن مثل ممطور ببلدته — جذلان بالوطن المألوف والوطر

والموضوع الرئيسي لهذه القصيدة التي تبلغ خمسة وخمسين بيتاً هو الاستعطاف . وإذا كان النسيب هو المقدم في تقاليد الشعر العربي فيمكن القول إن ابن زيدون أيضاً بقي في فلك هذه التقاليد حين استهل قصيدته متغزلاً بولادة ، ذاكراً عهده معها في بضعة عشر بيتاً ، ولكن مع فارق ذي شأن ، وهو أن معاني الشاعر في غزله هنا كانت معاناة حقيقية حارة وتعبيراً صادقاً عن واقع نفسي حي .

وهذه النفحة الوجدانية تسري في سائر أعطاف القصيدة ، مما يجعلها تتسم بالذاتية وتتسربل بالغنائية لانطوائها على شكوى الشاعر وبث همومه

---

(١) جفن السيف : غمده

(٢) المحصن : المحكم والسديد ، والمرر : مفردها مرة ، وهي القوة أو حدة الذكاء

(٣) العفر : التراب

ووصف أحواله في ظلام سجنه . ها قد ساء به المآل حتى بات أمره بادياً للعيان ، وعلى الرغم من أنه ما زال في ريعان العمر فقد هجم المشيب عليه قبل أوان الشيب وهو ما يزال مقبلاً على الحياة وقطوف الشباب دانية .

وكما عهدنا لدى أبي الطيب من تظاهر بالقوة والبأس أمام الخصوم والحساد ، أو لدى أبي ذؤيب من تجلد وصبر أمام الشامتين في مواقف عاطفية مشابهة ... حرص ابن زيدون أيضاً على التذرع بالصبر كيلا يتيح للحاقدين فرصة التشفي منه ، فهو يدعي بأنه ما زال ذا مكانة وهيبة ، ويحاول أن يوهم خصومه المتربصين به بأن وجوده في السجن لا يعدو أن يكون حادثاً عارضاً ليس فيه ما يشين أو يعيب ، فمن طبيعة السيف أنه يأوي إلى غمده ويغيَّب بين جدرانه .

ويلتفت الشاعر السجين إلى ابن جهور محاولاً أن يكسب وده ويحظى بعطفه ، فيلتمس له بعض العذر في إطالة أمد سجنه ، ويحمّل القدر هذه التبعة دونه ، ثم يمضي في تقريظه والاشادة بمزاياه بمعان تنطوي في معظمها على المديح .

على أن هذا المديح يمتاز بأنه مغاير لما عهدناه لدى كثير من الشعراء الذين يجزلون الصفات لممدوحيهم بحيث تبدو قصائدهم متشابهة أو متماثلة تصلح لأن تقال في هذا وذاك دون أن تحمل السمات الحقيقية للممدوح . فابن جهور الذي نقف على ملامحه في قصيدة ابن زيدون هو نفسه الذي عرفناه في حقيقة صفاته وسجاياه من خلال كتب الأدب والتاريخ . إنه لم يجعله مثال الشجاعة والكرم على غرار ما درج عليه المداحون ، بل رأى فيه رجل سلام ، وبهذه

الصفة عرف ابن جهور بين معاصريه حين جنب قومه بحكمته كثيراً من سفك الدماء ، على حين كان الحكام المجاورون يتعطشون اليها . كذلك أوضح ابن زيدون أن ابن جهور وإن لم يكن رجل سياسة حين حمله الناس إلى كرسي الملك ، فقد أوتي فطرة سليمة أغنته عن الممارسة الطويلة ، كما كفته وقدة ذكائه مؤونة تقليب الرأي وإعمال الفكر .

ثم يعود ابن زيدون إلى وصف حاله بعد أن دأب على محاولة بلوغ قلب مليكه عساه يرق . إنه يشكو سوء حظه بمرارة وأسى ، فبعد أن كان سعده في أعلى عليين ارتد إلى أسفل السافلين .

وابن زيدون يبدو لنا في رائيته هذه مؤثراً التعبير عن مشاعره ومنازعه داخل الاطار التقليدي الذي ارتضاه الأندلسيون حين وجدوا في جوانب منه ما يلائم ميولهم في الاقبال على التزيين والزغبة في التأنق ، فتمسكوا ببعض هذه الخصائص ، وربما مضوا بها إلى شوط أبعد . فالشاعر يحرص على التصريع في مطالع قصائده ، وهو بالإضافة إلى ذلك يجانس في هذه القصيدة بين الحوار والحور ، وبين الوطن والوطر . كما يطابق بين السلم والحرب ، والاستطالة والقصر ، والنجم والعفر ، والصبا والكبر ...

ويتجلى خياله التقليدي أيضاً في تصويره الليل بكائن حي لم يبق منه إلا ذماء ، والشبيبة بدوحة وارفة الأغصان . كذلك تشبيهاته البليغة التي اعتمدت على إضافة المشبه إلى المشبه به ، من مثل برد الشباب وبرق المشيب ...، وأخيراً في تشبيهه الضمني الذي يقارن فيه نفسه ـ وقد غدا نزيل السجن ـ بالسيف وقد آوى إلى غمده .

ولم يكتف ابن زيدون بهـذه القصيدة وأمثالها من منظومه الذي راح يستعطف فيه حاكم قرطبة ، بل عمـد إلى تدبيـج رسالة من منثوره إمعاناً في محاولة استغفاره وإلانة قلبه ، إنها الرسالة الشهيرة التي تعرف بالرسالة الجـدية ، ولكن دون جدوى .

وقد يبدو من المفيد أن يتاح لناقد في مثل هـذه الحال أن يرصد تلك المواقف المتشابهة لدى عدد من شعراء العربية الذين تعرضوا لمثل ما تعرض له ابن زيدون ، كأن يقارن بين شعره هذا وبين اعتذاريات النابغة تجاه النعمان ، أو استعطاف الحطيئـة لعمر ، أو روميات أبي فراس وعتاب المتنبي في أمـير بني حمدان .

* * *

وإذ تشتد وطأة السجن على ابن زيدون ويطول استعطافـه لابن جهور دون جدوى ينطوي على نفسه ، ويطلق العنان لتأملاته ، ويلوذ في هذا الضيق بصديقه أبي حفص بن برد ، فيناجيه على البعـد ، ويبسط اليه حاله وما يعانيه من مرارة وأسى ، فيقول :

ما على ظـني بـاس ... يجرح الدهر وياسو
ربمـا أشـرف بالمـر ... ء على الآمال ياس
ولقـد ينجيك إغفـا ... ل ويرديك احتراس
ولكم أجـدى قعود ... ولكم أكدى [1] التماس

---

(١) أكدى المرء : بخل وقل عطاؤه أو انقطع ، وأجدى أغنى وأفاد

وكـذا الدهر إذا ما عز ناس ذل نـاس

نلبس الدنيـا ولكن متعـة ذاك اللبـاس

يا أبا حفص وما سا واك في فهـم[1] اياس

من سنا رأيـك لي في غسق الخطب اقتباس

ما ترى في معشر حا لوا عن العهد[2] وخاسوا

ورأونـي سـامريـاً يتقى منه[3] المِساس

أذؤب هامت بلحمي فانتهاس[4] وانتهاش

كلهم يسأل عن حا لي ، وللذئب[5] اعتساس

إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس

ولـئن أمسيت محبوساً فللغيـث احتبـاس

يلبـد الورد السبنتى وله بعـدُ[6] افـتراس

فتأمـل كيف يغشى مقـلةَ المجـد النعـاس

ويُفت المسك في التر ب ، فيوطا ويداس

---

(١) اياس بن معاوية من أذكياء العرب الذين يضرب المثل بفطنتهم ، وقد ذكره أبو تمام أيضاً في قصيدة سينية أخرى

(٢) خاسوا : غدروا ونكثوا

(٣) السامري : كان من قوم موسى ، ثم عبد العجل وأضل بني اسرائيل ودعاهم إلى الشرك لما خرج موسى النبي لمناجاة ربه ، فعاقبه الله بأنه لا يمس انساناً إلا أدركتهما الحمى معاً ، فتحاماه الناس .

(٤) الانتهاش : الأخذ بالأضراس والانتهاس الأخذ بمقدم الأسنان

(٥) اعتس : طاف بالليل

(٦) الورد : من أسماء الأسد ، والسبنتى : الجريء

لا يكن عهدك ورداً   إن عهدي لك آس
وأدر ذكري كأساً   ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالي   إنما العيش اختلاس
وعسى أن يسمح الدهـ   ـر ، فقد طال[1] الشماس

هـذه الأبيات زفرة حرى ينفثها الشاعر المعنّى من قرارة سجنه . وأغلب الظن أنه نظمها في ساعة أسى تقرب من اليأس ، أو أنه نظمها بعد أمـد من نظم القصيدة الرائيـة السابقة . فالقصيدتان برغم صدورهما عن ابن زيدون في السجن تبدوان معبرتين عن حالين مختلفين بعض الشيء خلال أزمـة الشاعر . فابن زيدون يتراءى لنا هنا وقد تطامنت نفسه وران عليه الأسى بعد أن طال عليه الأمد في سجنه ، كما انصرف عن تهديده ووعيده للكائدين والشامتين ، على حين حل محل ذلك كله عمق التأمل وبعـد النظر تجاه الحياة وصروفها وتقلبها . حتى إن الشاعر ليجنح إلى أن يفلسف رؤيته لهـذه الحياة فيعريها ويكشف زيفها في نظرات متفحصة نافذة . ويبدو لنا الشاعر في محنته وبعـد أن رأى سبل النجاة مسدودة في وجهـه كمن يؤمن بأفكار الجـبريين ويستسلم لمشيئة الأقـدار ، ملبساً ذلك كله وشاحاً قاتمـاً من التشاؤم . فالدهر قلّب ، يجرح ويأسو ، والمرء فيه كريشة في مهب الريح ، لا حول له ولا قوة ، وليس ثمـة في الدنيـا ناموس ثابت تتوالى بموجبـه الحوادث على نحـو معلوم أو نسق مرسوم . فالمرء قد يبلغ شاطىء السلامة برغم إغفاله وإهماله ، وقد يؤول إلى الهلاك برغم حيطته وحـذره .. ألا كم حظي بالرزق متقاعس

(١) الفرس الشموس هي النفور الجامحة التي لا تمكن أحداً من ركوبها

خامل وأخفق في إدراكه ساع عامل .. هذا هو شأن الدهر الذي يمتلك بين يديه ميزان القـدر ، إنه إذ يرفـع قوماً لا يلبث أن يضع آخرين ، وما حياة الدنيا إلا متاع الغرور .

على أن إيمان ابن زيدون بالجبر لم يوقعه في هاوية اليأس وإن استطاع أن يلفـه بالتشاؤم . ومرد ذلك إلى أن الشاعر لم يمن بالعجز المطلق عن فهـم نواميس الكون وحكمة الحياة . فاذا كانت الثنائيـة هي السمة المميزة في هـذه الدنيا ، وكان الصراع الدائب بين خيرها وشرها قوام هذا الوجود ، فان الغلبة لا بد أن تكون في نهاية الأمر للقوى العادلة الرحيمة . وهكذا ساد الاطمئنان ـ برغم القلق ـ أعماق نفس الشاعر ، وشعر بـبرد اليقين برغم محنته ، فآمن أن العاقبة للصابرين . وبذلك انفتحت في زوايا نفسه الكئيبة كوة نفذت منهـا أشعة الأمل والتفاؤل :

إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

يلبـد الورد السبنتى ، وله بعـد افتراس

وعسى أن يسمح الدهر ، فقد طال الشماس

وما من ريب في أن الشاعر استطاع ـ بمثل هذا الصبر والايمان ـ أن يواجه الحياة بمحنها ويتغلب على صعابها ، منبطاً الماء من قلب الصخر ، والأمل من أعماق اليأس ، والنور من طيات الظلام .

وأغلب الظن أن طابـع المرارة الذي يسم الأبيات كان مبعثه معاناة الشاعر لصنوف العذاب الجسماني والنفساني في سجنه ، فالنية كانت مبيتة للكيد له والانتقام منـه أبشع انتقام ، « فقـد تعرض لآلام جسمية زادته هموماً على

هموم ، حتى إن الحاكم منع عنه الزوار والعواد .. اما الامه النفسية فلعلها أقسى من آلامه الجسمية ، فقد فشل في حبه وخسر مكانته وانتهى به الأمر إلى حيث ينتهي بالمجرمين والسفلة .. هذا كله إلى جانب شماتة الحساد وتنكر الأصدقاء الذين أذاقهم الوداد الصافي فانقلبوا عليه في محنته ينهشون لحمه . ومما زاد في أثر الصدمات أنها وقعت على رجل مترف مرفه نشأ في مهاد النعمة وتقلب في أحضان النعيم واعتاد أن تكون له الصدارة في كل مجال [1] » ، وهو الرجل الشاعر ، المرهف الحس ، المشبوب العاطفة .

وللخيال حيز واضح في هذه القصيدة ، وهو في شعر ابن زيدون قلما يكون مبتكراً طريفاً ، والشاعر الأندلسي بصورة عامة لا يجنح للغوص على المعنى والايغال في الخيال . فالصور تتوالى هنا ، وتبدو مألوفة قريبة المأخذ ، وهي سائغة عذبة تتسربل بنغم شجي يشف عن مرارة في النفس ولوعة في القلب ، فالدهر يجرح ويأسو ، والدنيا عرض زائل لا يكاد الانسان يرتديه حتى ينسلخ عنه ، أما الناس فذئاب ضارية دأبها النهش والافتراس ، على حين نامت عيون المجد عنها حتى غفل عن رؤيتها .. كل ذلك على سبيل الاستعارات المعهودة في شعر العرب .

كما آثر ابن زيدون في تصويره عنصر التشبيه ، من مثل التشبيهات البليغة في جعله العهد ورداً وآساً ، وفي إضافته المشبه إلى المشبه في نحو سنا الرأي وغسق الخطب .. ولعل أجمل ألوان التشبيه التي رفعت من فنية القصيدة التشبيهات الضمنية التالية :

---

(١) ابن زيدون لعلي عبد العظيم ، أعلام العرب ١٤٣ ، ١٤٤

كلهم يسأل عن حا	لي ، ولـلذئب اعتساس
إن قسا الدهر فللما	ء من الصخر انبجاس
ولـئن أمسيت محبوساً	فللغيـث احتبـاس

ومن جهة أخرى حفلت القصيدة بمحسنات بديعية كان الطباق أبرزها لمجيء عناصره تلبية لمتطلبات المعنى الذي استدعته طبيعـة المقابلة بـين الحالين ، وذلك من خلال ظاهرة الثنائية التي حرص عليها ابن زيدون في مضمون أبياته. ومن هنا توالت في سياق المعاني الفاظ الطباق وعبارات المقابلة على نحو مطرد ، مثل : يجرح ويأسو ، والأمل واليأس ، ثم ينجيك إغفال ويرديك احتراس ، وأجلى قعود وأكدى التماس ، وعز ناس وذل ناس ... ولم يكن ابن زيدون في هـذا كله ساعياً إلى الزخرفـة حريصاً على الزينة اللفظيـة ، لأن الأحزان والهموم هي الـتي كانت تستغرق نفسه فـلا تدع للعقل مجالاً كبـيراً للتزيين والتنميق .

كما يتجلى في القصيدة جانب من ثقافة ابن زيدون ـ التي عهدناها واسعة في رسائله ـ من خلال إشارته التاريخية إلى ذكاء إياس في أخبار العرب ، وإلى قصة السامري في أسفار بني إسرائيل .

لقـد توافرت في أبيات ابن زيدون سـهولة الألفاظ ورقتهـا ، وبساطـة التعبير وتدفقه ، فضلاً عن قرب الصور وقصر البحر ورشاقة القافيـة وحرارة التجربة وصدق المعاناة .. مما أضفى على القصيدة جمالاً وزادها رونقاً .

* * *

وعلى هذا الفرار من الشجو كان ابن زيدون يتغنى مشاعره ويعزف ألحانه . لقد ألهبت المأساة قريحته ففاضت بشعر كثير لم يكن ابن زيدون ليصدر عن مثله لولا تلك الأحداث التي اصطلحت عليه في معظم حياته ، وبخاصة حبه وسجنه .

ولا ريب في أن ابن زيدون لم يستنفد سبل النجاة من محنة السجن برغم أنه استنفد كل ما كان يرجوه من عفو الأمير فيما حاوله من قصائد الاستعطاف التي لم تجده نفعاً . لقد عد من أيامه المظلمة خمسمئة دون أن يرى للظلام نهاية :

أفصبر مئين خمساً من الأيا   م ؟ ناهيك من عذاب مقيم ؟

ولهذا صح عزمه على الهرب الذي لم يكن ليفكر فيه أول الأمر لحرصه على تبرئة ساحته وأمله في أن يخرج من محنته ناصع الجبين . أما الآن ، وبعد أن طفح الكيل فقد أيقن كما يقول « ان الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق ، من سنن المرسلين .. »

« لا عار لا عار في الفرار فقد   فر نبي الهدى إلى الغار » [1]

ها قد أفلح الشاعر آخر الأمر في الهرب ، على الزغم من الحراسة المشددة المضروبة عليه ، « ولا شك في أن هناك أيدياً خفية قوية امتدت إلى معونته . ويجنح نفر من الباحثين أن لصديقه القديم ولي المهد أبي الوليد بن جهور يداً في هذا الفرار بعد أن تعثرت شفاعته مع والده من أجله [2] .

---

(١) ديوان ابن زيدون ٧٣٥

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٨٣

وآثر ابن زيدون التواري في ضواحي قرطبة ، وراح يبذل ما وسعه من جهد عن طريق بعض المتنفذين من أصدقائه حتى حظي أخيراً بعفو أبي الحزم « وربما كان لابنه أبي الوليد بن جهور الفضل الأول في ذلك ، إذ كان ابن زيدون صديقه ، وكان قريباً من نفسه »[1] .

وفي هذه الأثناء قضى ابن زيدون بعد هربه فترة من الزمن شريداً في ضواحي قرطبة مؤملاً أن يستطيع رؤية ولادة . ثم أرسل اليها بقصيدته النونية المشهورة يبثها فيها نجواه وشوقه ويتمنى عليها اجتماع الشمل واستعادة أيام السعد[2] ، ومطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

وهي أشهر قصائد ابن زيدون ، وقد ذاع شأنها وعمد الكثيرون من الشعراء إلى معارضتها والنسج على منوالها .

وتعود المياه إلى مجاريها ويسترد ابن زيدون اعتباره في بلاط آل جهور ، وحين يخلف أبو الوليد أباه الذي توفي بعد أمد قصير تبسم الدنيا في وجه الشاعر مرة أخرى ، فيكون له في ذلك بعض العزاء عما مضى . فيعود إلى تسنم الوزارة ويلتمع نجمه في المجتمع من جديد ، على حين ظلت كبده مقروحة بسبب فجيعته بحب ولادة وانصرافها عنه إلى عش ابن عبدوس .

---

(١) ابن زيدون ، د. شوقي ضيف ٢٤

(٢) يرى بعض الباحثين أن القصيدة أرسلها ابن زيدون من اشبيلية ، وأن ابن زيدون هرب من سجنه مباشرة إلى عاصمة بني عباد ولم يختبىء آنئذ في ضواحي قرطبة

وفي هـذه المرحلة أيضاً ، مرحـلة الأمـل والرجاء وقبيل حظوته بالعفو يصف لنـا الفتح بن خاقان ما كان فيـه ابن زيدون من شوق إلى لقاء ولادة ولهفة على وصالها ، إذ يقول :

« فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقـد صبره بعـد الكرب ، كر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية ما فيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه ووردده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها .. فتشوق إلى ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن . فكتب اليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده وطلّقه ، ويعاتبها على إغفال تعهـده ، ويصف حسن محضره بهـا ومشهده ، ويقول »[1] :

إني ذكرتـك بالزهراء مشتاقاً	والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتـلال في أصائـله	كأنه رق لي فاعتـل إشفـاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما شققتِ عن اللبات[2] أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال النـدى فيـه حتى مال أعنـاقا
كأن أعينه ، إذا عاينت أرقي ،	بكت لمـا بي ، فجال الدمـع رقراقا
ورد تـألق في ضاحي منابتـه	فازداد منه الضحى في العين[3] إشراقا
سـرى ينافحـه نيلوفر عبِق	وسنان نبـه منه الصبح[4] أحداقا

(١) قلائد العقيان ٨٢ ، وتبلغ القصيدة خمسة عشر بيتاً

(٢) اللبة : أعلى الصدر وموضع القلادة منه

(٣) ضاحي المنابت : أي الأرض المرتفعة التي غمرتها شمس الضحى

(٤) النيلوفر : زهر ينبت في المياه الراكدة ، يقال إن أوراقه تنطبق في الليل وتنبسط في النهار ، أو هو نوع من الرياحين

كل يهيج لنا ذكرى تُشوقنا | اليك ، لم يعدُ عنها الصدر أن ضاقا
لا سكَّن الله قلباً عنَّ ذكرُكم | فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى | وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
يوم كأيام لذات لنا انصرمت | بتنا لها حين نام الدهر سراقا
لو كان وفَّى المنى في جمعنا بكم | لكان من أكرم الأيام أخلاقا

لقد صادفت طبيعة الأندلس الساحرة الخلابة في نفس شاعرنا إحساساً مرهفاً وقلباً متفتحاً ، فافتتن بها أيما افتتان . وزاد في ولعه بها أنها ارتبطت بذكريات حبيبته أوثق ارتباط ، فألهبت عاطفته وهاجت قريحته .

ففي ربوعِ الزهراء وفي أحضان حدائقها الغناء حيث ازدانت الأرض بالمروج الخضر والأزاهير الزاهية ، وتجلت على صفحة زرقاء صافية ، يعن ذكر ولادة في خاطر ابن زيدون ، وهو في حال من اللوعة والأسى تستدعي الإشفاق . إنه طريد هارب ، بعيد عن أهله ، ناء عن حبيبته ، وكل ما في الزهراء الساحرة من جمال لا يسليه . حتى نسمات الأصيل التي تهب عليه وانية يراها آسية على ما به راثية لحاله .

على أن هذه الفتنة التي تزدان بها الطبيعة الخلابة إنما تعيد إلى نفسه سحر الحبيب ، حيث الجنان والرياض تفتر عن ثغر مشرق ضاحك ، والجداول والغدران تنساب وتتألق بأعذب المياه وأصفاها . إن هذا المشهد المعجب لم يتسم بما اتسم به من جمال أخاذ في مرأى الشاعر العاشق إلا لمشابهته حسن ولادة ، فهو في بهائه وبياض مائه يضارع صدر محبوبته المرمري ، ويحاكي جيدها الناصع ، وقد تكشف عن عقود من الجمان المنضد . وترجع الذكرى

بابن زيدون إلى أيامه الخوالي فيرى نفسه لاهياً مع من أخلص لها الحب وأصفى لها الود ، حين كانا يتمتعان بمرأى الطبيعة الخلاب ، من ورود عبقة ، وأزاهير شذية ، توضّع الطل من فوقها براقاً متلألئاً . ولكن شاعرنا المحزون لم يعد يرى في تلك الأزاهر والورود سوى عيون ضارعة ، فلم تعد قطرات الطل فيها سوى عبرات حارة تنذرف من فرط أساها على الشاعر المحب وما يعانيه من سهاد ولوعة .

ويسترسل الشاعر على هذا النحو متنقلاً في رحاب الطبيعة الفاتنة يتملى محاسنها : هنا الورود المتألقة تحت الشمس وقد أضفت على ذلك اليوم جمالاً ما بعده من جمال حتى غدا فتنة للناظرين ، وهناك أزاهير النيلوفر الناعسة وقد تنبهت منها المقل إذ لامستها أشعة الشمس الدافئة ، فراحت تنفح ذلك النهار الجميل بأطيب الشذا وأحلى العبير .

وهكذا ـ كما يقول ابن زيدون ـ كان كل ما في الطبيعة من أزاهير وورود ، وجداول وغدران ، ومروج ورياض ، وكل بقعة أو نبتة في ربوع تلك الجنة الفيحاء يهيج في نفس شاعرنا دفين الذكرى ، ويثير لواعج الشوق ، ويبعث كوامن الشجن . ألا كم يحز ذلك في النفس ويبعث الضيق في الصدر ؟ .

ثم يعرب ابن زيدون عن مدى إخلاصه في حبه ووفائه لولادة ، فيذكر أن ذكرى الحبيب إذا خطرت على قلبه الخفاق ولم يكن بوسعها أن تطير به من فرط الشوق ، فلا أذاق الله هذا القلب متعة الهدوء ونعمة السكينة . ولو قدر لنسمات الصبح التي تهب نحو منازل الحبيب أن تحمل الشاعر الموله على جناحيها لما وجدت فيه ولادة غير عاشق مدنف ، براه الوجد ، وبرح به الهجر

وأضناه الشوق ، فلم يعد سوى نضو هوى .

وفي البيتين الأخيرين يختم الشاعر مناجاته الشجية بالحديث عن هذا اليوم البهيج الذي أعاد اليه ذكر تلك الأيام الخوالي ، أيام السرور والهناء ، حين كان الحبيبان يسترقان المتع البهيجة في غفلة من الزمان بعيداً عن أعين الرقباء . ألا ليت بوسع هذا اليوم أن يحقق الأماني المنشودة ، فيعيد الشمل المفرق ، ويجمع ما بين الشتيتين .. إذاً لعُد يوماً أغر بين الأيام .

وهكذا تدفقت مشاعر الهيام والشوق خلال قصيدة ابن زيدون من قلب توله بحب امرأة آسرة ، وظل وفياً لها باقياً على العهد ، يعاني مرارة الهجر ولوعة الصدود . هذا الشاعر المتيم لم يبق له ما يعيش عليه سوى ذلك الماضي البهيج وطيوف الأيام الخوالي يستعيدها ويحيي فيها ذكرياته المسترخية في أحضان الزهراء الفاتنة ، حتى لتكاد نفسه تذوب حسرة وشوقاً ، على غرار ما عهدناه لدى العديد من الشعراء العذريين الذين برح بهم الشوق وأضناهم الحب .

ولعل أجمل ما وفق اليه ابن زيدون في قصيدته القافيَّة أنه استطاع أن يشخص مظاهر الطبيعة بشراً يحبون ويتحركون وينفعلون . وهذا الخيال تطلب من الشاعر أن يلجأ إلى أسلوب طريف من المجاز ، أحال معه الرياحين والورود والمياه أناسيَّ تنبض بالحياة ، وتشارك الشاعر آلامه وآماله . فالنسيم الذي يغدو عليلاً من فرط رثائه لحال الشاعر البائس ، والروض الذي يتدفق بجداوله ويضارع في جماله صدر ولادة الفسيح وقد التمعت فوقه اللآلي براقة ، والورود التي تذرف الدموع مدراراً على الشاعر المدنف ، والنيلوفر الناعس الذي استيقظ على أشعة الشمس وأخذ ينفح الكون بشذاه ... كلها استعارات

وتشبيهات مستمدة من الطبيعة الخلابة ، استطاعت بجمالها وقرب مأخذها أن تغني عنصر التصوير في القصيدة .

وهكذا كانت نفس ابن زيدون تضطرب بين عاطفتين مشبوبتين : عاطفة ناعمة في الأمس الجميل بما انطوى عليه من أيام وصل بهيجة تكسوها الطبيعة الخلابة مزيداً من البهاء والحسن ... وعاطفة قاتمة في هذا اليوم العبوس ، بحاضره الكئيب الذي يكسو بدوره الطبيعة ثوباً قاتماً من الشجو والحزن ، فتبدو زاهية في أسى ، كالحسناء في ثوب الحداد . ذاك هو الماضي البهيج الذي تجلى في طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وفي مقابله تجهم الحاضر الذي يبدو في اعتلال النسيم واشفاقه ، ونعاس النيلوفر وانحنائه ، وبكاء الزهر وترقرق دمعه ...

وابن زيدون يتراءى لنا أبداً وهو هائم بحسن ولادة مفتوناً بجمال الطبيعة ، ها قد اتحدت الحبيبة بالطبيعة وتعانقتا في نفس الشاعر ، في مزيج سائغ عذب . ومثل هذا الامتزاج أو التلاحم بين الفنان والطبيعة والمرأة قل أن نجده على هذا النحو في سائر الشعر العربي الذي اعتاد فيه الشاعر تناول موصوفاته ببراعة ودقة ، ولكن دون أن يكون هذا الوصف في أحيان كثيرة من خلال انفعالاته ومشاعره . على حين تبدو قصيدة ابن زيدون وقصائد أندلسية أخرى كثيرة أقرب إلى الشعر الرومانسي الذي اتسمت به الآداب الأوربية إبان القرن التاسع عشر .

أما الفاظ الشاعر فقد بدت متخيرة مأنوسة رقيقة لم يَشُبها حوشي ولا غريب ، كما أن أكثرها يعبر في مدلوله عن مظاهر الطبيعة الفاتنة ، فألفاظ

(الزهراء والنسيم والأصيل والروض والماء والزهر والابتسام والندى والمنى والدمع والورد والضحى والعين والصبح والذكرى ..) تهفو اليها النفس وهي متناثرة على هذا النحو ، فكيف بها منظومة متسربلة بالوزن متشحة بالايقاع .

على أن القافية التي آثرها ابن زيدون إنما بنيت على روي القاف ، والقاف من حروف الجزالة والفخامة والقوة ، في حين أن الموقف الشعوري مفعم بالرقة والنعومة واللين . صحيح أن الشاعر تمكن من تطويع هذا الحرف وإلانته في سياق عباراته الرقيقة وجعلنا لا نحس بوطأته ، إلا أننا نتساءل عما كان بوسع القصيدة أن تبلغه من بهاء لو ادخر الشاعر هذا الحرف لوصف معركة أو لموضوع فخر واستبدل به هنا روي الراء أو الميم أو اللام أو النون ، أو نحو ذلك من الحروف الرقيقة المخرج ، مما يجعل أثر ذلك في النفوس أوقع وصداه في الآذان أعذب . ألا كم أضفت هذه النون الممدودة من رونق وبهاء وحلاوة وجرس على رائعة ابن زيدون الأخرى :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وتبقى القصيدة واحدة من قصائد معدودات سارت على الألسن ، وانعقد على استحسانها إجماع المتأدبين وطارت بها شهرة ابن زيدون .

* * *

ثم تفيض أشعار ابن زيدون في أبي الوليد بن جهور بالاخلاص « ويقابل ابن جهور هذه الأشعار بامتنان ويلقبه بذي الوزارتين ، وينتدبه سفيراً له بينه وبين ملوك الطوائف ، لعله ينسى حبه الذي كان يعرف أنه لا يزال متقداً بين

جوانحه ، أو لعله يتسلى عن هواه ... ولكنه لم يستطع أن يغرق في لجج رحلاته عذاب حبه ... » [1] .

ولكن ، وعلى نحو يكاد يكون مفاجئاً وغامضاً تحدث جفوة بين الشاعر ومليكه ، يرحل ابن زيدون في إثرها عن صاحبه والمرارة تعتصر قلبه وييمم وجهه شطر اشبيلية حيث يتألق مُلك بني عباد .

« وكان من الطبيعي أن يلقى الشاعر حفاوة وترحيباً في بلاط العباديين ... ومثل ابن زيدون يتنافس الملوك في جذبه اليهم ، وبخاصة ملوك الطوائف . ولقد قربه المعتضد ، حتى لقد رفع الكلفة بينه وبين الشاعر . فكان يهدي اليه الخمر والفاكهة والأزهار ويقبل هداياه » [2] ، ولا يكاد يصبر على غيابه عنه .

ولكن هوى الشاعر الطاغي إلى مدينته الأثيرة ، حيث الأحبة ، كان يغالبه ، ولطالما كانت قرطبه معه بمن فيها في حله وترحاله حين راح يناجيها بلهفة ورجاء :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ... وهل كبد حرى لبينك تنقع
وهل لليالك الحميدة مرجع ... إذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
وإذ كنف الدنيا لديك موطأ ؟ ..

وسارت حياة ابن زيدون في بلاط بني عباد على خير ما يرجو ، وحظي

(1) ابن زيدون ، د. شوقي ضيف ٢٥
(2) ابن زيدون ، علي عبد العظيم ١٤٦

في مدينة اشبيلية بتقدير أعيانها وكبرائها ، « وأفاض عليه المعتضد الخلع والسوابغ ، وألقى اليه بمقاليد وزارته ، وضم اليه جميع أمور دولته ، وكأنه رأى في تحوله اليه تحول قرطبة كلها إلى سلطانه » [1] وحين تدرك الوفاة المعتضد ويخلفه ابنه المعتمد يتبوأ ابن زيدون في قلبه ما كان يتبوؤه في قلب أبيه . بل رفعه إلى الذروة من مشورته ووزارته . ولما عزم المعتمد على غزو قرطبة كان جل اعتماده عليه . وعندئذ تتاح العودة لابن زيدون إلى مسقط رأسه وموئل حبه . ولكن السنين كانت قد ألحت عليه ، فلم يلبث حتى توفي سنة ٤٦٣ هـ ، ١٠٧٠ م عن عمر يقارب السبعين عاماً .

* * *

وبوسعنا القول ـ في ضوء ما تقدم ـ إن شعر ابن زيدون في معظمه وثيق الصلة بحياته ، وهو موزع في الغالب بين المديح وبين الغزل. أما المديح وما يمكن أن يشتمل عليه أيضاً من استعطاف فيتجلى فيه ابن زيدون شاعر بلاط تربطه بكبراء عصره من آل جهور وآل عباد ومن في بطانتهم صلات متشابكة معقدة تبدو مشرقة أحياناً ، ومتجهمة أحياناً أخرى . وعلى الرغم من إجادة ابن زيدون في هذا اللون العريق من الشعر وتمرسه به طوال حياته حتى غدا له حيز كبير في ديوانه .. فان فن ابن زيدون الحقيقي إنما يتجلى في غزله .

لقد نعت بعض الباحثين ابن زيدون بأنه شاعر الحب والجمال [2] ومصداق ذلك بحق هو شعره الجميل في المرأة وفي الطبيعة . إن التجربة العاطفية المثيرة التي

(١) ابن زيدون ، د. شوقي ضيف ٢٨

(٢) ابن زيدون ، علي عبد العظيم ٢٠٩

عاشها الشاعر قد أذاقته ألوان الحب ، وجرعته آيضاً أصناف العذاب ، من وصال وهجر ودلال وصد ، ورضى وكيد ، وقرب وبعد ... حتى استغرقت هذه المنازع العاطفية حياته كلها ، منذ فورة صباه فثورة شبابه إلى قوة رجولته وحنين كهولته . لقد نعم بحلاوة اللقاء كما شقي بمرارة الجفاء ، فكان له من ذلك كله خير ما يرهف الحس ويغني القريحة وينضج الفن .

على أننا لا نجنح إلى تقسيم الحب إلى مادي وروحي [١] أو إلى جسماني حسي غريزي ، وروحاني أفلاطوني عذري - كما يحلو لبعضهم أن يفعل - وذلك لعدم قيام أحدهما مجرداً دون الآخر ، فان ابن زيدون كان أيضاً مفتوناً بجسد ولادة البض الجميل وبمواهبها الفذة العديدة . ولطالما تغنى - وبخاصة في أول عهده - بتثني قدها وبحلاوة مبسمها ، ووصف بياض بشرتها الفضية وشقرة غدائرها الذهبية ، دائباً على ذكر محاسنها واستعادة أيام الوصال الشهية معها :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا	ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانية	قطافها ، فجنينا منه ما شينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا	والسعد قد غض من أجفان واشينا

ولكن طول الكبت والحرمان خمّر العواطف المضطرمة في مرجل النفس الوالهة ، فاذا هي تقطر شعراً عذباً شجياً كأنه عصارة القلب المعنّى . لقد ألهب البعد والصد مشاعر ابن زيدون ، ولم يزدها تعاقب الأيام إلا تأججاً واضطراماً .. ولا يبعد أن يكون هذا الحب في بواكيره عابثاً طارئاً قوامه

---

(١) انظر رأي الدكتور جودت الركابي في كتابه « في الأدب الأندلسي » ١٩٨ وما بعد

الاشتهاء والرغبة وبخاصة في مرحلة الفتوة والشباب ، ولكنه ما لبث حتى آل إلى هيام يتسم بالثبات والعمق متحولاً من المادية إلى الروحانية ، وبخاصة بعد صنوف الصدود والإعراض . ولولا ذلك لما كان تعلق الشاعر بولادة طوال حياته ومعاناته في حبها مرارة العيش . ولو أن الأمر رهن بعفاف الجسد لوجد العاشق في سائر النساء ما يشبع رغبته . وهكذا ارتسمت مع مر الأيام هالة تقرب من التقديس أو العبادة في نفس ابن زيدون حول ولادة ، انتسجت خيوطها من آلام الهجر والصدود وأحزان البعد والفراق .

كل ذلك يجعلنا ندرك سبب ندرة ما نظمه الشاعر أيام السعد حين كان ينعم بحلاوة الوصل ، فهل الألم وحده هو الذي يفجر القرائح ويبعث النبوغ ويبدع آيات الفن والجمال ؟ وهل حق ما قاله الشاعر (ألفريد دوموسيه) بأنه « ما من شيء يجعلنا عظماء مثل ألم عظيم .. ؟ » .. إن ما تجدر ملاحظته أن أكثر ملامح البهجة والسعادة إنما نتلمسها خلال قصائد الشاعر التي نظمها بعد القطيعة بينه وبين ولادة حين يرويها لنا رواية ويستعيدها ذكرى .

ولعل أبرز ما اتسم به شعر ابن زيدون هو حرارة التجربة وشدة المعاناة وصدق الشعور بالإضافة إلى ما امتاز به دون الشعراء الذين سبقوه حين استطاع بفنه أن يحمل الطبيعة على مشاطرته ما أحسه من نشوة وما كابده من آلام .

لقد أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى في الأندلس ، وأشاد بفنه القدماء والمحدثون والعرب والمستشرقون . وبفضل عذوبة اسلوبه وطلاوة تعبيره وحلاوة موسيقاه ورشاقة صوره لقبه الأقدمون ببحتري المغرب . وقد جاء في ذخيرة ابن بسام « ان ابن زيدون بحتري زماننا ،

وصـدقوا ، لأنه حـذا حذو الوليد في بعض قصائده .. » ثم جعـله : « غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم .. أحد من جر الأيام جرا ، وفاق الأنام طراً ، ووسع البيان نظماً ونثراً . إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه .. »

وقد وصف أحمد ضيف شعره بأنه[1] « عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليـه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بـل به كثير من الحقائق التي كان يمليها عليه شعوره .. وأقرب عباراته إلى القلوب بكاؤه على الماضي والتلذذ بذكره وما كان فيـه من النعيم .. فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه .. وإذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق اليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولي على القلوب ، وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها ، لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب » .

أما المستشرق الفرنسي كور فرأى فيـه « المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء »[2] ، كما رأى فيـه غومـيز الاسباني « أعظـم شاعر قـديم أنجبته الأندلس » ، ووجد فيه نيكل الانكليزي أخيراً « ممثلاً لأنقى أسلوب عربي

---

(١) بلاغة العرب في الأندلس ، وانظر أيضاً : في الأدب الأندلسي ، د. جوت الركابي ١٩٩

(٢) انظر تفصيل هذه الآراء في كتاب : ابن زيدون ، علي عبد العظيم . وثمة أحكام نقدية مشابهة للمستشرقين بروفنسال وجب وكرانشكوفسكي وبيريس ونيكلسون ...

منهجي في الأندلس ، وأنه من الممكن موازنته بالمتنبي والبحتري » .

وسيبقى ابن زيدون درة في تاج الأدب العربي تألقت حيناً من الزمان في الأندلس ، ثم عاشت خالدة في مسمع الدهر تحكي قصة نبوغ العرب في ذلك الفردوس المفقود .

المعتمد بن عبّاد

ولد المعتمد سنة ٤٣٢ هـ بمدينة باجَّه ، إحدى مدن غربي الأندلس * . واسمه محمد ، وكنيته أبو القاسم . وقد تلقب بالمعتمد كما تلقب أبوه بالمعتضد . والمعتضد من أقوى ملوك الأندلس في عهد دول الطوائف ، وقد عرف ببأسه وشدة مراسه ، ولم يتورع عن قتل ابنه اسماعيل حين علم بخيانته له وتآمره عليه ، فحز رأسه بسيفه وهو يتلو الآية « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » وكان رجلاً غامضاً لا يسبر غوره ولا يحاط بعداه ، يأخذ بالحزم في توقع الحوادث واستطلاع الأمور ، ويسلك في عداد الماكرين الموسومين بفرط الدهاء ، وكان شجاعاً مقداماً ، مع افراط في الشراب ، وانغماس في أنواع المتعة . وهو شاعر حسن النظم ذواقة لفنون القول .

ثم أفضى الملك إلى المعتمد في اشبيلية بعد أبيه المعتضد ، وكان في

---

* انظر ترجمته وأخباره في قلائد العقيان لابن خاقان ، ونفح الطيب للمقري ٤ : ٢٧٧ وفي الذخيرة ، والمعجب ، ووفيات الأعيان ، وديوان المعتمد بن عباد

وانظر أيضاً : « شاعر ملك » ، لعلي الجارم . المعتمد بن عباد لعلي أدهم . المعتمد بن عباد ، عبد الوهاب عزام . الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة د . حسين مؤنس . اسبانيا الاسلامية ، رينهارت دوزي ...

التاسعة والعشرين من عمره . وقد مر يوماً في قاربه بفتاة على شاطىء نهر الوادي الكبير اسمها اعتماد وتعرف بالرميكية ، فأعجب بها واتخذها له زوجاً ، وكانت معاصرة لولادة ، وقد تقصر عنها في الشعر والأدب ، ولكنها لم تكن أقل منها في الحديث الطلي الجذاب ، والنكات البارعة ، وربما كانت تفوقها في المعابثة والمداعبة واكتمال الانوثة . وكان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ، ويستطيب حديثها ، ويستظرف نوادرها ، ويستجيب لنزواتها . ويقال إنه تلقب بالمعتمد من أجلها واقتراباً من اسمها ، وقد نقم عليها رجال الدين ولم يرق لهم اسرافها وشدة تأثيرها في المعتمد ، وذهبوا إلى أنها كانت تصرفه عن شؤون الدولة وتورطه في ضروب الخلاعة والاستهتار . ولكنها لم تكن تحفل بأحد وهذا ما زاد المتزمتين تألباً عليها .

وقد فاق المعتمد أباه في صفاته فكان فارساً شجاعاً ، وسخياً جواداً ، كما كان شاعراً مجيداً لم يلهه الملك عن قرض الشعر ، حتى إنه فتح أبوابه وخزائنه للشعراء ، وكان فيهم ابن زيدون ، فأشادوا به وأطنبوا في مديحه ، فأغدق عليهم المال حتى أرهق بذلك كاهل الدولة .

ويعد المعتمد أقوى ملوك الطوائف وأبعدهم شهرة . وقد أفلح في الزحف على قرطبة وضمها إلى ملكه وأحسن إلى أهلها فأحبوه ، كما حقق في حياته السياسية نصراً بعد نصر . وكان ساعده الأيمن في إدارة شؤون البلاد وزيره وشاعره ابن عمار .

غير أن الخطأ القاتل الذي يتناساه الناس في غمرة حبهم له وإعجابهم به وعطفهم عليه أنه في سبيل تحقيق مطامحه اتفق مع الفونسو حاكم قشتاله الاسباني

ودفع له الجزية وقبل باحتلاله لطليطله مقابل آن يطلق يده في مهاجمة من حوله من رؤساء الطوائف ، ويضمن وقوفه على الحياد . ولكن أطماع الفونسو التي لا تحد ، وبخاصة بعدما آنسه من ضعف العرب وتصارعهم ، جعلته يقلب ظهر المجن للمعتمد ويتعالى عليه ويشتط في مطالبه ، حتى لقد زحف تجاه قصره وكادت البلاد تقع في قبضته . وحينئذ فقط أدرك ابن عباد وسائر حكام الطوائف هول الخطر الماحق ، واستبان لهم خطل ما كانوا فيه وما نجم عن تلاعبهم بالنار . وإذ ذاك التمعت بذهن المعتمد فكرة الاستعانة بابن تاشفين أمير المؤمنين . وحين حذره بعض بطانته من مغبة ذلك الأمر ، وأنه كمن يستجير من الرمضاء بالنار قال لهم بحزم : « لأن أرعى الجمال عند ابن تاشفين خير من أن أرعى الخنازير عند الأذفونش ، ولأن يغدر بي ابن تاشفين مع رضاء الله ، خير من أن يفي لي الأذفونش مع سخطه » . ثم ركب سفينته قاصداً إلى البر الافريقي ، وهرع إلى قائد المرابطين يوسف بن تاشفين . وما زال به يستصرخه ويستثير فيه الحميه الدينية ويحضه على الجهاد حتى استجاب له بجيش قوامه البربر . وتصدى المسلمون للفرنجة في معركة « الزلاقة » الحاسمة التي أطالت بقاء العرب في الأندلس أمداً آخر . وعاد المعتمد وابن تاشفين إلى اشبيلية مكللين بالغار تواكبهما أهازيج النصر ، وتلهج بالثناء عليهما السنة الشعراء .

ويبدو أن المعتمد استنام على المجد وعاد سيرته الأولى إلى العبث والمجون ، فأسخط ذلك قادة المرابطين فأطاحوا به ، وكبله ابن تاشفين بالأصفاد واقتاده مع أسرته إلى أفريقية حيث قضى كمداً في « اغمات » .

إنها سيرة حياة حافلة انتهت على هذا النحو المأسوي ، وكأنها صورة

مصغرة لمصير العرب بعد حين في الأندلس .

قال المعتمد يصف ليلة ساجية من ليالي الأنس [1] :

ولقد شربت الراح يسطع نورها	والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدّى البدر في جوزائه	ملكاً تناهى بهجة وبهاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه	لألاؤها ، فاستكمل [2] الآلاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله	رُفعت ثريَّاها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب	وكواعب ، جمعت سنى [3] وسناء

ومن الجلي أن هذه الأبيات صورة من ليالي السعد والأنس التي كان المعتمد يحياها في عنفوان ملكه ، حين كانت الدنيا مقبلة عليه . ها هو ذا يتمتع بساعات الصفو ويرتع في نعيم السعادة . إنه يصف الخمرة وقد تألقت بين يديه ببريقها وسط ظلام الليل ، وهو ما زال يعاقرها حتى طلع البدر ، وتربع في قمة الجوزاء ، وجلس يزهو على سدة الملك ، وقد هرعت النجوم لاستقباله وراحت تحف به وتسطع بلألائها من حوله . كل ذلك في موكب سماوي بهيج رأى فيه الشاعر صورة أخرى من حياته على الأرض .

فالشاعر الملك يرى نفسه كذلك البدر يحف به أيضاً الندماء والغلمان وتمايل من حوله الغيد الحسان فاذا هو في سكرين من رحيق الخمرة وسحر الجمال .

---

(١) النص مستمد من نفح الطيب ٤ : ٢٨٠ وانظر قلائد العقيان ٦ ، وديوان المعتمد ابن عباد ٢٨

(٢) الآلاء مفردها إلى وإلي : النعمة وفي رواية أخرى : اللألاء

(٣) السنى : النور . والسناء : الرفعة والمجد

لوحة مشرقة رسمها ابن عباد بريشة خفيفة وألوان زاهية ، حيث تجمعت فيها الخمرة والبدر والجوزاء والنجوم والثريا والمواكب والكواعب .. في تآلف بهيج . وهذه الأبيات تسر العين وتلذ للأذن ، فتمتع النفس وتبعث فيها البشر . وهي كأغلب شعر الوصف الأندلسي لا تنطوي على عمق ، ولا تحفل بالغوص على المعاني والصور . وهي تحمل في الوقت نفسه خصائص هذا الشعر الأندلسي الذي استوت شخصيته واتضحت ملامحه فأخذ يجنح إلى الصور القريبة ، كتشخيص البدر ملكاً والنجوم حشماً وتشبيه الظلام بالرداء ، وغدا حريصاً على الزخرفة التي تقتضيها حياة الترف ، كالمجانسة بين اللألاء والآلاء ، وبين الكواكب والمواكب ، وبين السناء والسنى .

وربما كان من أبرز سمات المعتمد التي تتجلى في مقطعته هذا التمازج القوي بين الشاعر والطبيعة . حتى لقد بدا لنا الشاعر وهو في أحضان تلك الليلة الساجية ، وفي غمرة النشوة ، كمن عانق السماء والأفلاك فتراءت له مشرقة ترفل بالغبطة والسرور ، فاذا هو والبدر شيء واحد ، وإذا الغواني والنجوم أيضاً شيء واحد ، حتى بتنا لا ندري ما إذا كان المعتمد في هذه الأبيات يصف نفسه أم يصف الطبيعة . وهذا سر الجمال في الفن حين يرى الانسان الطبيعة من خلال ذاته ويجعلها ملتحمة بعالمه .

وكما لمس الثعالبي في شعر أبي فراس أبهة الملك بوسعنا أيضاً أن نلحظ هذه الظاهرة في شعر ابن عباد حين جعل من البدر ملكاً في السماء ، ومن النجوم والكواكب حشماً وبطانة ، ومن الثريا المتألقة راية خفاقة . كما يتجلى الاعتداد بالملك حين نظر الشاعر الملك إلى نفسه فتراءت له كذلك البدر جلالاً

وإشراقاً . وإذا كانت ثمة مبالغة تبدو خلال هـذا التصوير فهي سائغة محببة ، وذلك من وجهين ، أولهما أن الخمرة التي ارتشفها الشاعر في مستهل أبياته جعلته يرسم لنفسه والدين حوله هالة واسعة على هذا النحو ، ومن الطبيعي من جهة أخرى أن نجد في كلام الملوك النبرة المتعالية والملامح المجسمة . وهكذا جاءت الأبيات وثيقة الصلة بصاحبها قوية الدلالة على شخصيته وعلى بيئته .

* * *

ولكن هيهات أن تدوم أيام السعد ، فتلك الدنيا التي تبدت للمعتمد بزينتها وبهرجها لم تلبث أن تجهمت له وانقلبت عليه ، وعند صفو الليالي يحدث الكدر . لقد حدث ما توقعه بعض أنصار المعتمد حين حذروه من الاستنجاد بالمرابطين ، ولكن من أين له الخيار وهو بين أمرين أحلاهما مر ، وقد اختار الطريق الذي أملاه عليه شرفه ومعتقده ، وهكذا أُتيَ من مأمنه ، وكان حقاً كالمستجير من الرمضاء بالنار . ها قد أحاط المرابطون بقصره ، فلم يجد بداً من أن يدافع عن حوزته ، وعندئذ « برز من قصره ، سيفه بيده ، وغلالته ترفّ على جسده ، لا درقة [1] له ولا درع عليه . والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ويعبرون النهر سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة . والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من سنة أربع وثمانين وأربعمئة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى ، فيه حم الأمر

(١) الدرقة : ترس من الجلد

الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، بعد أن جد الفرسان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال . وظهر من دفاع المعتمد ـ رحمه الله ـ وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا تناهى الخلق اليه »[1] .

وفي ذكر ذلك اليوم المشؤوم الذي هدت فيه أركان ملكه وهيض جناحاه بمقتل الراضي والمعتد ولديه ، قال المعتمد بعد أن نزل بعدوة المغرب أسيراً :

لما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو	ع على فمي السم النقيع
إن تستلبْ عني الدنا	ملكي وتسلمْني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القمي	ص ، عن الحشا شيء دَفوع
وبذلت نفسي كي يسيـ	ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن	بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط إلى القتا	ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم	والأصل تتبعه الفروع

هذه القصيدة زفرة حرى من أعماق شاعر ملك وفارس مغوار حرص خلالها ابن عباد على استيقاف تلك الساعات الحالكة والمواقف الحاسمة التي كان عليها أن تسطر تاريخاً وتقرر مصير مملكة . وقد انطوت الأبيات على شعر

---

(١) المعجب في تلخيص تاريخ المغرب ، لعبد الواحد المراكشي ١٤١

ذاتي يتسم بالأصالة وبرصد مرارة التجربة . وعلى الرغم من أن الشاعر لم يعد في مواقع القوة بعد أن فقد ملكه وغدا في أسوأ حال فانه يبدو رابط الجأش ثابت الجنان . إنه يستعيد تلك الأيام العصيبة بروح الزهـو ومشاعر الاعتـداد وهو ناصع الجبين مرفوع الرأس ، مفتخراً بإبائه الضيم والذل اللذين وجد دونهما مرارة السم الناقع . ثم تأخذه العزة فيتيه بما سطره من آيات الشجاعة والبطولة حين خرج إلى أعدائه مقاتلاً ليس له من الدروع سـوى قميصه وذلك القلب الجسور الذي يدفعه إلى ساحة الشرف دون أن يبالي بالموت . حقاً إن الاعمار بيد الله ، فقد لهـا عنه الموت يومئذ ، برغم أنه لم يكن يدور في خلد المعتمد قط كلما خاض معركة أنه سيخرج منها على قيد الحياة . تلك هي سجايا الجدود الأشداء ، وهذا شأن أحفادهم الميامين .

وتمثل القصيدة أصفى الشعر الحماسي الذي عرفه العرب واتسم به بوجـه خاص الشعراء الفرسان ، وهو من طبيعـة أشعار عنترة وعمرو بن معديكرب وعمرو بن الاطنابة وقطري بن الفجاءة ... ولعلهـا أقرب ما تكون في دلالتهـا ورصد مشاعر صاحبها إلى شعر أبي فراس الحمداني في أسره .. وبالإضافـة إلى هـذه النجوى النفسية الأخاذة ، تتسم القصيدة بنفس ملحمي خفيف تتسربل خلاله معانيها القوية بتدفق وعذوبة من خلال طابع القصص المحبب . وبفضل ذلك امتازت القصيدة بهذه الوحدة العضوية بين أجزائها ، بحيث بدت أبياتهـا متلاحمـة آخـذاً بعضهـا برقاب بعض . يضاف إلى ذلك حسن استهلالها بهذا المطلع الشجي وحسن ختامهـا بذلك البيت الذي يحسن عنـده السكوت ، ثم بذلك الشطر الأخير الجميل الذي جرى مجرى المثل .

ولعل السهولة مفتاح شعر ابن عباد ، وبخاصة في هذه الأبيات التي تترقرق مأنوسة الألفاظ سلسلة العبارات لتعبر بأسى عميق عن نفس بطل مهزوم وفارس مقهور .

وطبيعي في مثل هذه الحال من الاستغراق الشعوري في نفس الشاعر ألا يكون للفكر حيز كبير في بنية هذه القصيدة ، وألا تنطوي الأبيات - تبعاً لذلك - على طلب للمحسنات وسعي إلى الصور . وربما ينم هذا البحر المجزوء بقصر تفصيلاته وتلاحقها معاً على اضطراب الأحوال التي عانى الشاعر من أهوالها وتوالي أحداثها ، كما يمكننا أن نعيد ذلك أيضاً إلى ما كان فيه الشاعر نفسه في قيد أسره من نفس مضطربة ومشاعر جائشة .

أما هذه العين في قوافي الأبيات ، سواء تلوناها ساكنة مقيدة أو أنشدناها مطلقة ومشبعة بالواو المضمومة ، على غرار قافية أبي ذؤيب في عينيته التي رثى بها أولاده فانها - وبفضل حرف العلة المديد الذي يسبق رويها - تضفي على القصيدة مزيداً من الشجو وتلفها بغلالة من الأسى . وفي سجن أغمات كان على المعتمد أن يقضي أيامه الباقية حسرات ، حيث لا أنيس سوى أسراب الطير ونجوم الليل ، ولا جليس سوى الذكريات والأشعار .

ولعل هذه المرحلة الأخيرة من مراحل حياته على قصرها أكثر مراحل حياته عطاء للشعر . كان أقل شيء يهيج في نفسه الشوق ويبعث الذكرى ويدفق الشعر . « اجتاز يوماً عليه في أسره سرب قطا فهاج وجده ، وأثار من لاعج الشوق ما عنده ، فقال »[1] :

(١) قلائد العقيان ، ابن خاقان ٢٦

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي
سوارحَ ، لا سَجن يعوق ولا كَبْل
هنيئاً لها أن لم يفرّق جميعُها
ولا ذاق منها البعدَ عن أهلها أهل
وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها
إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
لنفسي إلى لُقيا الحِمام تشوقٌ
سواي يحب العيش في ساقه حِجل
ألا عصم الله القطا في فراخها
فان فراخي خانها الماء والظل

لا ريب في أن المواقف المتشابهة تستدعي أيضاً أشعاراً متشابهة ، وهكذا ناجى المعتمد أسراب القطا كما دأب الشعراء العرب من قبل ومن بعد على مناجاة سائر الطيور والظباء . لقد هاجت حمامة ورقاء مشاعر الشوق في نفس أبي العلاء المعري وهو في بغداد بعيد عن أهله ووطنه ، فاستبد به الحنين وراح يناجيها بلهفة ، كما هاجت من قبل حمامة مطوقة أخرى مشاعر أبي فراس الحمداني وهو في أسره بحصن خرشنة من بلاد الروم ، فطفق يبثها ما انطوت عليه جوانحه من عواطف الشوق والحنين .. وكأن المرء حين يقسو عليه الدهر ويبوء بالخذلان .. ينفض يديه من دنيا الانسان ويأنس بعالم الحيوان ، واجداً في ذلك خير ما يسرّي عنه ويسليه .

والمعتمد في أبياته هذه يغبط الطير ويحسدها على ما تنعم به من حياة

الطلاقة والحرية ، إذ لا يكدر عيشها سجن ولا قيد ، ولا ينغص أيامها بعد ولا فراق .. وإلا فأي معنى لحياة كحياته ، إن الموت في رأيه خير منها ، برغم أن من الناس من يستمرىء العيش على هذا النحو ولو كان مجللاً بالعار .. على أن ابن عباد يسمو إلى ذروة المشاعر الانسانية عندما يدعو ربه أن يصون تلك الطيور في فراخها من كل أذى ، ويحفظها من كل سوء ، ويجنبها ما حل بأولاده من ويلات ، حين مزق الدهر شملهم ، فقتل ثلاثة منهم وسبيت رابعة ، مما جعل قلبه يتفطر عليهم أسى ولوعة .

وتغرب شمس ثم تطلع شمس ، وتدخل على ابن عباد بناته في يوم عيد ، فلما رآهن في الأطمار الرثة ، وقد بدت عليهن آثار الفاقة وما أصابهن من بؤس وشقاء راح يناجي نفسه [1] :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغماتَ مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في مُلك يسَر به ... فانما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا ألف الشاعر السجين حياة الحزن ، ولم يعد لديه من سلوان سوى أطياف الذكرى يستعيدها وأمجاد الغابر يبكيها :

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير

(١) ديوان المعتمد بن عباد ١٠٠ - ١٠١

وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهلّ دمع بينهن غزير
فياليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضة وغدير
بمُنبتة الزيتون مورِّثة العلا ... تغني قيان أو ترن طيور
بزاهرها السامي الذرا جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشير
قضى الله في حمص الحِمامَ وبعثرت ... هنالك منا للنشور قبور

وكان طبيعياً أن تجنح النفس الشاعرة المرهفة إلى التأمل والتفكر إذ طال عليها الأمد في غمار الأسى واليأس ، فتغدو متطامنة ذات نظرات نافذة نحو الدنيا تطفح بالموعظة والاعتبار . وهكذا جالت الحكمة في ذهن الشاعر بعد أن تخمرت الأحزان في نفسه :

قُبِّح الدهر فماذا صنعنا ... كلما أعطى نفيساً نزعا
قل لمن يطمع في نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا

إن سنوات أربعاً يقضيها امرؤ في غياهب السجن مكبلاً بالأصفاد لا ينوبه سوى أردأ مطعم ومشرب ، فضلاً عما يعانيه من آلام القهر والخيبة ، كفيلة بأن تهد من جسده الأركان وتقرب من حياته الأجل . لقد ساءت صحة المعتمد وشعر بأن منيته آتية ، فراح يرثي نفسه قبل حين الرثاء ، وكان من ذلك قصيدة أوصى أن تكتب على قبره بعد موته ، ومنها هذه الأبيات :

قبرَ الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرتَ بأشلاء ابن عباد
نعم هو الحق حاباني به قدر ... من السماء فوافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادى فوق أعواد

كفاك فارفق بما استودعت من كرم		رواك كلُّ قطوب البرق رعّاد

ويصف لنا الفتح بن خاقان حالة المعتمد في أيامه الأخيرة فيقول [1] :

« ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وجلَده يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته . فدفن بأغمات ، وأريح من تلك الأزمات . وعطلت المآثر من حلاها ، وأفردت المفاخر من علاها .. »

توفي المعتمد في سجنه سنة ٤٨٨ هـ وعمره لم يتجاوز السادسة والخمسين ، ونودي في جنازته بالصلاة على الغريب ، واجتمع عند قبره لفيف من الشعراء الذين كانوا يقصدون اليه بالمدائح فيجزل لهم العطايا . وكان العديد منهم يعودونه في سجنه فيأنس بهم ، ويسرّي عن نفسه بمحادثتهم . وقد احتفظ له أكثرهم في نفسه بأصدق مشاعر الوفاء . وقد تجلى ذلك منهم إبان محنته في حياته ثم بعد مماته . ومنذ أن كبا به الجواد وأدبرت عنه الدنيا وصف شاعره أبو بكر ابن اللبانة (الداني) خروجه من اشبيلية إلى الأبد بحرقة ، فقال :

تبكي السماء بمزن رائح غاد		على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هدت قواعدها		وكانت الأرض منها ذات أوتاد

ياضيف أقفر بيت المكرمات فخذ		في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمل واديهم ليسكنه		خف القطين وجف الزرع بالوادي

وأنت يا فارس الخيل التي جعلت		تختال في عُدد منها وأعداد

---

(١) قلائد العقيان ٣١

ألق السلاح وخلِّ المشرفيَّ فقد أصبحتَ في لهوات الضيغم العادي
لما دنا الوقت لم تُخلف له عِدةً وكل شيء لميقات وميعاد

ولما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد وفد الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد إلى أغمات لزيارة قبره ، ولطالما كان هذا الشاعر الوفي يزوره وينادمه في قصره . « فلما كان يوم العيد انتشر الناس ضحى .. فقام على قبره عند انفصالهم من مصلاَّهم ، واختيالهم بزينتهم وحلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على تربه ولثمه » [1] :

ملكَ الملوك ، أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الانشاد
يا أيها القمر المنير أهكذا يمحى ضياء النير الوقاد
ما كان ظني قبل قبرك أن أرى قبراً يضم شوامخ الأطواد

« وإذا كان لا بد - كما يرى غارسيا غوميس - من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله ، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية . كان أبوه المعتضد ، وأبناؤه جميعاً ، وخاصة (الراضي) الرقيق صاحب (رندة) كلهم شعراء . ولكنه بزهم جميعاً وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار ، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة أوجه : أولها أنه كان ينظم شعراً يثير الإعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت

(١) قلائد العقيان ٣١ للفتح بن خاقان ، وانظر الفصل الأخير من كتاب المعتمد بن عباد لعلي أدهم ٣٢٨

شعراً حياً ، وثالثها أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الإسلامي كله . فإلى بلاطـه لجأ شعراء أفريقيـة وصقلية عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها ، وتهددوا الباقي .. » [1] .

وكان من الشعراء الذين عرفهم المعتمد وعرفوه أو تكاتبوا معه أو رثوه ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة وابن عبـد الصمد وابن وهبون وابن الحـداد وأبو الحسن الحصري القيرواني وابن حمديس ...

ولعل من المفيد في هذا الصدد ونحن في سبيل إنهاء فصلنا عن المعتمد أن نختم كلامنا بما ختم به المؤرخ الكبير دوزي كلامـه على المعتمد في كتابه « اسبانيا الإسلامية » بقوله [2] : « .. لم يتح للملك ما أتيـح للمعتمد من رهافة الحس وشاعرية النفس . ولقد كانت أنفه الحوادث التي تمر به في حياته سرعان ما ترتدي الثوب الشعري . ويمكن أن تصاغ ترجمة حياته أو ـ على أي حال ـ حياته الفكرية من أشعاره . فهي فيض قلبه الخالص الذي تنعكس فيه مسراته وأحزانه التي كان يبعثها إشراق الشمس الضاحية ، أو يثيرهـا تراكم الغيوم ... ولقد ظلت ذكراه أثيرة في النفوس باعتباره آخر فرع في دوحة أسرة الملوك الشعراء الذين حكموا الأندلس » .

---

(١) الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة د. حسين مؤنس ٤٧

(٢) اسبانيا الاسلامية ، رينهارت دوزي ٧٣٦ ، وانظر ترجمة ذلك في كتاب المعتمد بن عباد ، علي أدهم ٣٣٩

ابن حمديس

يعد أبو محمد ، عبد الجبار بن محمد بن حمديس من أنبه الشعراء الذين تألقوا في عهد الطوائف بالأندلس * ولد في مدينة « سرقوسة » بجزيرة « صقلية » سنة ٤٤٧ هـ [١] . ويتصل نسبه بقبيلة الأزد العربية . وصقلية تمتاز بطبيعتها الجميلة وكثرة خضرتها وغزارة مياهها ، وهذه الطبيعة تركت مياسمها على الشاعر وأغرته بوصف مشاهدها وتصوير محاسنها . غير أن كثرة الفتن

---

* انظر ترجمة ابن حمديس وأخباره في : نفح الطيب ١ : ٢٢٩ - ٢٣١ للمقري . وفي ديوانه ، طبعة بالبرمو سنة ١٨٨٣ ، وطبعة سكيا باريللي في روما سنة ١٨٩٧ وطبعة القاهرة ١٢٨٦ هـ ، ثم في مقدمة ديوانه في الطبعة التي حققها د. احسان عباس ـ دار صادر في بيروت ١٩٥١ ، ثم ١٩٦٠ . وفي الأدب الأندلسي ١٠٠ ـ ١٠٥ والطبيعة في الشعر الأندلسي ٣٨ ـ ٤٧ د. جوت الركابي . وشعر الطبيعة في الأدب العربي ٢٦٨ - ٢٧٦ د. سيد نوفل . وتاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ١٩١ - ١٩٣ ، ١٩٨ - ٢٠١ د. احسان عباس . ومختارات من الشعر الأندلسي ٢١٤ ، د. رضوان الداية . والمعتمد بن عباد ٣٢٠ ـ ٣٢٦ علي أدهم ، من سلسلة أعلام العرب .

(١) حكم العرب جزيرة صقلية في الفترة الواقعة ٢١٩ ـ ٤٦٤ هـ أي قرابة قرنين ونصف . وقد عانت الجزيرة كثيراً من الحروب والفتن ، سواء بين سكانها أنفسهم أو بينهم وبين الغزاة ، إلى أن سقطت بيد النورمان .

والحروب في الجزيرة أزعجت ابن حمـديس عن وطنه الجميل ونغصت عليه العيش في ربوعه ، فما لبث في صدر شبابه أن آثر الرحيل عن بلده إلى حين ، قاصداً إلى الأندلس . وهناك دخل اشبيلية ، وحط الرحال في بلاط المعتمد بن عباد ، هـذا الشاعر الملك الذي أحسن رعايته ووقع له بمائـة دينار وجعل له رسماً شهرياً [1] . ثم توثقت أواصر الود بين الرجلين ، فعرف ابن حمديس في كنف ابن عباد أحلى أيامه . غير أن القدر كان بالمرصاد لدولة العباديين ، فما هي إلا عشية وضحاها حتى أطاح بهـا المرابطون وقادوا ملكها المعتمـد أسيراً إلى أغمات بأفريقيا . وقد حز هذا الحدث الأليم في نفس الشاعر ابن حمديس وتأثر له أيما تأثر ، ثم حفزه وفاؤه لمليكه إلى اللحاق به في سجنه ، حيث راح يمحضه أصدق الشعر ويشاركه أيامه الأخيرة وساعاته الحالـكة في إبان محنته .

وليس انهيار دولة العباديين وحـده الذي أمض الشاعر ، بل إن وطنـه نفسه « صقليـة » ما لبث أن سـقط في يد النورمان ولحق به الخراب ، ولم يكن ابن حمـديس يدري حين رحل عن مسقط رأسه أنه غادره إلى الأبد ، وهكذا عاش بقيـة عمره في هم مقيم . وحين توفي راعيـه ابن عباد مضى إلى مناطق أخرى من أفريقية وقضى الجانب الأخير من حياته يتصل بآل باديس وسواهم ، حتى توفي ضريراً عن ثمانين عاماً . وكانت وفاته سنة ٥٢٧ هـ .

لقد اتسم ابن حمديس بنسب عربي أصيل ، كما عاش في بيئـة أعجميـة داخل بلده سرقوسة وجزيرته صقلية ومن حوله حقد دفين على العرب وتربص

(١) ديوان ابن حمديس ، تحقيق د. احسان عباس ٢١١

مستديم بهم . وهكذا كان على مثله أن يستشعر عروبته ويتمسك بأرومته . وعندما ساءت الأحوال في بلده وهو ناءٍ عنه قال يخاطب قومه ويحثهم على الاتحاد والجهاد [1] :

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي
إذا لم أصُلْ بالعرْب منكم على العُجْم

دعوا النوم ، إني خائف أن تدوسكم
دواهٍ ، وأنتم في الأماني مع الحُلم

وردوا وجوه الخيل نحو كريهة
مصرّحةٍ في الروم بالثكل واليتم

ولله منكم كل ماض كعضبه
يسيل إلى الهيجاء متقد العزم

له عين ضرغام هصورٍ ، فقلبه
بتصريف فعل الجهل منه على علم

ولله أرض إن عدمتم هواءها
فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم

وعزكمُ يفضي إلى الذل ، والنوى
من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي

(١) انظر القصيدة في ديوان ابن حمديس ٤١٦ - ٤١٧

أخِلي الذى وُدي بـودٍ وصلتَـه
لديَّ ، كما نيط الوليُّ إلى[1] الوسمي
تقيَّـدْ من القَطر العزيز بموطن
ومت عند رَبع من ربوعك أو رسم
وإياك يومـاً أن تجـرب غربـةً
فلن يستجيز العقـلُ تجربـةَ السُّم

ولعـل أول انطباع نخرج به بعـد قراءة القصيـدة أنهـا تنضوي تحت موضوع الشعر الحماسي ، هـذا الشعر العريق عند العرب ، فالمعاني تدور حول استنهاض الهمم واستثارة العزائم والحض على القتال . والصور تتوالى أيضاً على هذا النسق وتتسم بالحسية وقرب المأخذ (تدوسكم دواه ، كريهـة مصرحـة بالثكل .. المقاتل كعضبه .. له عين ضرغام ..) أما الألفاظ فهي مستمدة من قاموس الشعر الحماسي مثل (الصول ، الخيـل ، الكريهـة ، العزم ، الهيجاء ، الجهل ، العز ، الذل .) وقد حرص فيها الشاعر على الجزالة إلى أبعد مدى ، حتى إنه آثر قعقعة العضب على السيف ، والهيجاء على الحرب ، والضرغام على الأسد ..

وبوسعنا القول إن القصيدة ، وبخاصة أبياتها السبعة الأولى وما انطوت عليه من روح الإباء ومعاني الاستنفار وعبارات الحض ... إنما كتبت بعـداد قديم . وهـذا يعني أن حظها من الأندلسية ضئيل ، بل لا يكاد يبين ، حتى إنها لتقرب كثيراً من شعر صدر الإسلام أو العصر الأموي بما انطوى عليه

(١) الوسمي : مطر الربيع الأول ، والولي المطر الذي يليه

من الجزالة وقوة النبر وامتـداد البحر . ولا ريب في أن الموضوع هـو الذي ساق الشاعر في دروب القـديم . إنه اختار بـين العز والذل والبقاء والفناء ، حيث يستشرى الصراع المرير بـين المقيمين وبـين الغازين ، بـين العرب وبين النورمان .

ومما نلحظه في هذه الأبيات وفي سائر القصيدة أن ابن حمديس لا يتناول الموضـوع على أنه صراع بـين المسلمين والنصارى كما دأبت على إبرازه أسفار التاريخ وفنون القول في العصور الوسطى وبخاصة في الأندلس ، على الرغم من قوة العامل الديني في شبوب هذا الصراع واتسامه لدى الفريقين بطابع الجهاد . فالشاعر يرى أن الصراع في جوهره صراع قومي ، وأنه قائم بـين عُرْب وعُجْم ، أو بين عرب وروم . وهو ينأى في معانيه عن أية عناصر دينية تتصل بعقائد النصارى أو المسلمين .

إن مثـله الأعلى هـو ذلك الفارس العربي الذي عرف بقوة الشكيمة ، والذي يمضي إلى الحرب منتضياً سيفه غـير هياب ، كالأسد الهصور الذي لا يجد مفراً من اصطناع الجهل ونبذ الحلم . وإن دل هذا على شيء فانما يدل على نفاذ بصيرة ابن حمديس حين أدرك طبيعة الصراع السياسي عصرئذ ووقف على حقيقته . وقد عُرف ابن حمديس بأنه ممن يجنحون إلى التأمل ويؤثرون التفكر ، يؤيد ذلك أنه بفضل حدسه الصادق استطاع أن يتوقع الكارثة قبل وقوعها ، فكان حريصاً على أن يكون في شعره فاعلاً لا منفعلاً . لقد شعر بأنه خلية في جسد أمته وأن عليه في تلك الظروف العصيبة أن يحمل خلال شعره رسالة ، رسالة يكون فيهـا لقومـه رائداً وقائداً ومعلماً . ومن هنـا قـد لا يكون في

القصيدة من الفن ما يعجب ومن الجمال ما يطرب ، لأنها في جزالتها وقوة نبراتها أشبه بدوي النفير والنفخ في الصور ، إنها صيحة استنهاض وصرخة تحذير .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فأمرها يختلف ، إذ تخف فيها حدة الجزالة ، ويخفت فيها علو النبرة ، فالشاعر فيها يناجي خله بوداعة تنم على نفس مفعمة بالمحبة ، بعد أن أمضها هجر البلد وفراق الأهل . إنه يهيب بأحبته أن يتمسكوا بالوطن ويتشبثوا بالأرض ، وليكن منتهى آمالهم أن يموتوا في ذلك التراب . وهو يختم قصيدته بعبارة مؤثرة تفيض لوعة وأسى ، حين يحذر أخاه العربي من أن يهجر وطنه ويؤثر عليه المغترب ، لأن في ذلك هلاكه وكأنه يجرع نفسه السم الزعاف . وما من ريب في أن هذه الأبيات الأخيرة ، بما انطوت عليه من حنين طاغ وتجربة عاطفية مريرة أذكاها البعد والاغتراب ، تعد أحلى مقاطع القصيدة وأكثرها لصوقاً بالنفس .

* * *

وإذا فرغنا من استجلاء صورة العصر وصدى الأحداث في شعر ابن حمديس كان علينا أن نستجلي الجانب الوجداني عند الشاعر . لقد طرق ابن حمديس أكثر أغراض الشعر من مديح ووصف ورثاء وغزل .. وعف عن الهجاء ..

كانت فجيعة الشاعر بزوجه وأم ولده « جوهرة » التي غرقت في البحر حلقة كبيرة في سلسلة الأحزان والخطوب التي دهمته عبر حياته المديدة . لقد رثاها بلوعة وأطال نجواها :

أيا رشاقة غصن البان ما هصرك ويا تألُّفَ نظم الشمل من نثرك
ويا شؤوني[1] ـ وشأني كله عجب ـ فضّي يوافيت دمعي واحبسي دررك
ما خلت قلبي ، وتبريحي يقلّبه ، إلا جناحَ قطاة في اعتقال شرك
لا صبر عنك ، وكيف الصبر عنك وقد طواك عن عيني الموج الذي نشرك

ثم يقول مخاطباً البحر :

هلاّ نظرت إلى تفتير مقلتها إني لأعجب منه كيف ما سحرك

عجباً لذلك القد الممشوق والقامة الهيفاء حين كانت تميس كغصن البان كيف هصرتها يد القدر وطوح بها صرف الزمان .. وأية قوة عاتية فرقت بين الأحبة ، فانفرط ذلك العقد النظيم وتبدد الشمل الجميع .

ألا ما أعجب شأن هذا الشاعر بين يدي دهره الغشوم الذي اصطلح عليه بأرزائه وفجعه فيمن أحبه وأخلص له . ومن كانت هذه حاله فلا عليه أن تحتبس عروقه بالدمع لتفيض عوضاً عنه بالدم . هذا القلب الذي تعاورته الأحزان وجعلته يتقلب على نار الآلام بات يرتعش من فرط الاضطراب كما يرتعش جناحا فرخ القطا وقد علق في الشرك وأوفى على الهلاك . ألا ما أقسى هذا البحر العاتي ، كيف لم تسحره تلك العيون النواعس وتصده عما اقترفت يداه من هول .

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى الصدق الواري في عاطفة ابن حمديس ولهفته على امرأته الفقيد . وهذا أمر نتوقعه من زوج وفيّ تجاه أقرب الناس

---

(١) الشؤون : مفردها شأن ، وهي العروق . وكلمة شأني بعدها معناها قصتي وأمري

الناس اليه ومن مشاركته حياته في السراء والضراء . غير ان ما يسترعي النظر في هذه الأبيات أن الشاعر ـ تحت وطأة مشاعره القوية ـ قد استجاب لنداء قلبه وصوت ضميره ، فراح يرثي امرأته بحرقة ولوعة على نحو لم يألفه العرب في سالف عهودهم ، حين كان شاعرهم ـ تبعاً لتقاليد قومه ـ يكبت في أعماقه أسمى مشاعر المحبة والوفاء إذا فجعه القدر بامرأته ، حتى إنه قلما يجود عليها ببعض القول الذي كانت قريحته تفيض به تجاه الآخرين . وواضح أن في هذا من الأندلسية والبعد عن فلك القدماء ما فيه ، تبعاً لما انطوى عليه من ذاتية محببة .

ومع ذلك فان موضع الطرافة في أبيات ابن حمديس هذه هو هذا التمازج بين مشاعر الحب ومشاعر الحزن بحيث يتجلى موضوع القصيدة في الرثاء وفي الغزل معاً . وهكذا دأب الشاعر على التغزل بجمال جوهرته والإشادة بمحاسنها من خلال رثائه لها وتفجعه عليها . وقد لا يكون هذا الأمر بدعاً في شعرنا العربي ، فهذه الظاهرة يمكن أن نطالعنا على نحو مألوف وأكثر اتساعاً في غرض الرثاء نفسه الذي قد يمتزج به المديح وينطوي في كثير من الأحيان على معاني التقريظ والإشادة بمناقب الفقيد .

على أن مرثية ابن حمديس تبقى مع ذلك محومة في فلك الشعر العربي المعهود الذي عرفه الشعراء في جزيرتهم خلال عصورهم المتقدمة ، فالصور والمعاني ـ على حد سواء ـ تبدو مألوفة بل مكرورة ، من ذلك مثلاً : أن صورة المرأة ما زالت في مخيلة الشاعر كغصن البان ، وأن الموت يرديها كما تهصر الريح هذا الغصن ، كذلك شمل الأحبة ملتئم كالعقد النظيم ولكنه لا يلبث أن ينفرط وتتناثر حباته ... والدموع الغزيرة منهمرة كاللآلىء المتساقطة ،

وجلال الرزء يستدعي البكاء دماً ، والصبر عليه أمر عسير المنال ، وكيف أن هذا البحر لم يستشعر الشفقة والرحمة تجاه ذلك الحسن البديع ... كذلك تبدو لنا أخيراً صورةُ القلب في اضطرابه ومقارنتها بجناحي طائر علق في شرك ... صورةً عريقة في شعر العرب تذكرنا مثلاً بقول مجنون ليلى :

كأنّ القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

وابن حمديس نموذج حي للشاعر العربي في الأندلس والمغرب ، سواء في منازعه العربية وحميته القومية ، أو في إجادته وصف الطبيعة ومباهجها ، أو في وصف الخمرة وتأثيرها ، وأخيراً في قدرته على تصوير مشاعره المختلفة في شعر وجداني يتسم بالحرارة والصدق والأصالة .

ابن خفاجة

هو إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة ، وكنيته أبو اسحق * . ولد سنة ٤٥١ هـ في بلدة « شُقْر » القريبة من بلنسية في شرقي الأندلس ، وهي بلدة جميلة تعرف أيضاً باسم جزيرة شقر لإحاطة نهر شقر بها من أكثر جهاتها . ويعدها ياقوت أنزه بلاد الله وأكثرها ماء وروضاً وشجراً . ومن هنا كان لبيئة ابن خفاجة أثر بارز في جنوحه بشعره إلى وصف الطبيعة .

عاش ابن خفاجة حياة هادئة في إبان عهد الطوائف ، ثم في عهد

---

* انظر ترجمته وأخباره في : نفح الطيب للمقري ٤ : ٣٠٢ - ٣١١ ، ٥ : ٣٧٨ - ٤٢٣ . وقلائد العقيان ٢٣١ - ٣٠٤ ، ومطمح الأنفس ٨٥ لابن خاقان . والمطرب من أشعار أهل المغرب ٧٤ لابن دحية والمغرب في حلى المغرب ٢ : ٣٦٧ للمغربي . والتكملة ١ : ٧٠ لابن الابار . والروض المعطار في خبر الأقطار ٤٨ ، ١٠٣ للحميري . ووفيات الأعيان ١ : ٣٩ لابن خلكان .

وفي المراجع الحديثة : بلاغة العرب في الأندلس ١٩٢ - ٢٠٢ لأحمد ضيف . شعر الطبيعة في الأدب العربي ٢٤٥ - ٢٩٥ د. سيد نوفل . تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ٢٠٤ - ٢١٥ د. احسان عباس . مختارات من الشعر العربي ١٠٠ - ١١٧ . في الأدب الأندلسي ١٠٦ - ١١٣ ، والطبيعة في الشعر الأندلسي ٤٨ - ٦٣ د. جوت الركابي . ابن خفاجة ، د. رضوان الداية

المرابطين . ولم يكن ليرغب في التنقل والترحل ، ولعله آثر حياة الاطمئنان والدعة في حقبة مضطربة حافلة بالأحداث ، ولذلك قلما اتصل بأمراء عصره ولم يكن للمديح ـ تبعاً لذلك ـ حيز كبير في شعره .

فالشاعر ـ فيما يبدو لنا ـ ينظم الشعر هواية ولا يبغي من ورائه تكسباً ، بعد أن حباه الله من اليسر ما أغناه عن التزلف . ولذلك لم يعرف شعره بالغزارة ، إنه ينتشي بجمال الطبيعة فيصفها ، ويطيب له العيش فينعته ، ثم يحفزه على القول حادث فيشيد به . ومثل هذا الترفع وإيثار البعد عن الشهرة وأضوائها قلما نجده لدى الشعراء الذين عاشوا في عصره أو تقدموه ، ممن حاموا حول السياسة فنعموا بها حيناً واكتووا بنارها أحياناً .

وعلى ذلك لا يكاد شعر ابن خفاجة ينم على حياته بدقة ويكشفُ عن دقائقها بتفصيل ، برغم كون هذه الحياة التي عاشها مديدة . وهذا يغاير ما عهدناه لدى كثير من شعراء الأندلس الذين كانوا شديدي اللصوق بأحداث عصرهم مثل ابن هاني وابن دراج وابن شهيد وابن حزم وابن زيدون وابن عمار ... الخ . وهذا أمر يسترعي النظر ويدعو إلى التساؤل ، إذ ليس من الطبيعي في عصر حافل كعصر ملوك الطوائف شهد انجذاب الشعراء إلى حواضره إلى أبعد مدى ثم يبقى شاعر بارز كابن خفاجة خارج هذا الفلك . حتى إننا نكاد لا نجد في ديوانه من المدائح في ملوك الطوائف إلا النزر بل النادر . وفي رأينا أن ما دأب بعض الباحثين على ترديده من أن ابن خفاجة كان ميسور الحال بسبب ضيعة كانت له ، وأنه لم تكن به حاجة إلى التكسب بشعره ، إنما هو تعليل واهٍ ليس بوسعه أن يفسر هذه الظاهرة السلبية في حياة ابن

خفاجـة المتفردة ، إذ أن من ذكرناهم من الشعراء الذين عاصروه أو تقدموه كانوا في معظمهم أكثر يسراً وأوفر مالاً ، ومـع ذلك فان هـذا مما زادهم إقبالاً على الدنيا والتصاقاً بالمجتمع وارتباطاً بالعصر .

وأغلب الظن أن تعليـل ذلك يكمن في شخصية ابن خفاجة نفسه ، فهو لم يتزوج قط ، وكان شديد الإحساس بدنو الأجل ، شدة الخوف من الموت [١] . ولعل هذا ما دفعـه في ريعان شبابه إلى المجون واغتنام صفو الليالي والعب من رحيق الملذات ، على حين جنح في شيخوخته إلى الزهد والتوبة ، حتى إنه في مرحلة من حياته عزف عن قرض الشعر وهجره هجراً قاطعاً .

ومن حسن الحظ أن هذا الشاعر الذي قلما ينم شعره على حياته عمد في ديوانه الذي صنعـه بنفسه إلى ذكر أمـور ذات صلة بمسلكه ومزاجه ، مما يعين الباحث على جلاء بعض ما غمض من معالم شخصيته . إنه يكشف النقاب عن تركه نظم الشعر بقوله : « ولما انصدع ليل الشباب عن فجره ، ورغب المشيب بنا عن هجره ، نزلتُ عن الشعر مركبا ، وتبدلت به مذهبا ، فأضربت عنه برهة من الزمان طويلة ، إضراب راغب عنه ، زاهد فيه . حتى كأني ما سامرته جليسا ، يشافهني أنيسا . ولا سايرته أليفا ، يفاوهني لطيفا » [٢] .

على أن الأحداث الجائحة في ذلك العصر كانت من القوة بحيث أخذت تعصف بعزلة ابن خفاجة وبسلبيته تجاه القضايا العامة ، حتى لم يكن بوسع أحد

---

(١) انظر ما كتبه د . احسان عباس بإسهاب في تحليل نفسية ابن خفاجـة في كتاب : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢٠٥

(٢) ديوان ابن خفاجة ٧

آنئذ أن يكون بنجوة عما حوله . لقد اجتاح الاسبان بزعامة القمبيطور مناطق من شرقي الأندلس ، موطن الشاعر ، فاحتل مدينة بلنسية ، وروع أهلها ، وأحرق عدداً من زعمائها . وما كان على ابن خفاجة إلا أن ينجو بنفسه خائفاً مذعوراً مع جموع الراحلين ، ليحط الرحال في عدوة المغرب من البر الافريقي . وهكذا أمضى ابن خفاجة في مهجره بضعة أعوام ، قضاها بعيداً عن بلده ومربع صباه ، وكابد خلالها مرارة الشوق ولوعة الحنين . وقد بقي على ذلك الحال حتى استطاع العرب استرداد بلنسية وما حولها [1] بفضل المرابطين الذين ندبوا لهذه الغاية خير قادتهم وأمضى سيوفهم : ابراهيم بن يوسف بن تاشفين .

وكان جديراً بهذا الحدث الجلل في حياة الأندلس من جهة ، وبهذه التجربة المريرة في حياة ابن خفاجة من جهة أخرى أن يهزا أعماق الشاعر ويحدثا انعطافاً في مشاعره ، فاذا هو يعاود النظم بعد أن أقلع عنه أمداً . ولم يلبث حتى طلع على الناس بقصيدة يمدح فيها القائد ابراهيم الذي خلف أباه ابن تاشفين في زعامة المرابطين ويشيد خلالها ببطولته وبفضله في إعادة البلاد إلى حوزة المسلمين . وتعد هذه القصيدة بمثابة نقطة تحول في شخصية ابن خفاجة وفي شعره على حد سواء ، فهي مؤشر إلى انتهاء مرحلة مديدة من سلبية الشاعر تجاه مجتمعه وعصره وانتقاله من الفردية إلى الجماعية ، لم يجنح بعدها

---

(١) يذكر المؤرخون أن الاسبان غزوا بلنسية عام ٤٨٧ هـ وأن محنة المدينة تحت حكمهم استمرت زهاء ٨ سنوات حتى أتيح للمسلمين استردادها سنة ٤٩٥ هـ على يد أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين . ولسنا نعتقد أن ابن خفاجة هاجر من بلدته شقر في بداية الغزو ، وأغلب الظن أنه أمضى في عدوة المغرب زهاء ثلاثة أعوام وعاد إلى بلده إثر استعادة المرابطين لها

إلى معاودة نظم الشعر فحسب بل إلى قوله عدداً من المدائح التي لم يكن ليجنح إلى مثلها فيما مضى ، في عهد ملوك الطوائف . ومن حسن حظ الدارسين أيضاً أن يعمد ابن خفاجة نفسه إلى تسجيل هذه المرحلة من حياته وما صحبها من انعطاف في نفسه وشعره ، فيقول في مقدمة ديوانه :

« ولما دخل جزيرة أندلس ـ وصل الله حمايتها وكفايتها ـ الأمير الأجل أبو اسحق ابراهيم ابن أمير المسلمين وناصر الدين ـ أنهضه الله بما قلده ، ومكّن أمره وقلده ، وأعز نصره وأيده ، وبسط بطاعته خطوته ويده ـ تعيّن أن أفد عليه مهنئاً بالولاية مسلِّماً ، وأغشى بساطه الرفيع موفِّياً حق الطاعة معظِّماً . فما لبث أن رفع وأسنى ، واصطنع فأدنى ... فارتهنني بره وإجماله ، وارتبطني بشره وإقباله ، ومن اغتبط ارتبط ، (ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا) ، فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني ، وسننتها عند ذلك حُللاً على معاطف سلطاني ، مصطنعاً لا منتجعاً ، ومستميلاً لا مستنيلا ، اكتفاء بما في يدي من عطايا منان ، وعوارف وهاب ، خلق فأبدع . »

ولا شك أن في كلام ابن خفاجة على هذا النحو ما يلقي ضوءاً على مزاجه ويكشف عن طور هام من حياته . وهذه قصيدته العينية التي بعث بها إلى ابراهيم أمير المرابطين ، وفيها يشيد بكرمه وشجاعته ورفعة نسبه ويهنئه بالعيد :

سجعتُ وقد غنى الحمام فرجّعا	وما كنت لولا أن تَغنى لأسجعا
وأندبَ عهداً بالمشقّر سالفاً	وظِلّ غمام للصِّبا قد تقشّعا
ولم أدرِ ما أبكي ، أرسمَ شبيبة	عفا ، أم مصيفاً من سليمى ومَرْبعا
وأوجَعُ توديع الأحبة فُرقةً	شباب على رغم الأحبة ودّعا

وما كان أشهى ذلك الليلَ مرقدا   وأندى مُحيًّا ذلك الصبحِ مَطلَما
زمان تقضّى غيرَ ذكرى معاهد   تسوم حصاةَ القلب أن تتصدعا
وقد فات ذاك العهدُ إلا تذكّراً   لواني على ظهر المطي [1] توجعا
وكنت جليد القلب ، والشملُ جامع   فما انفض حتى خار ، فارفضّ أدمعا
وإني ، وعيني بالظلام كحيلة   لآبى لجنبي أن يلائم مضجعا
كأني لم أذهب مع اللهو ليلة   ولم أنعاط البابلي المشعشعا
ولم أتخايل بين ظل لسرحة   وسجع لغرّيد وماء [2] بأجرعا
وأبلق خوار العنان مطهمٍ   طويل الشوى والشأو ، أقودَ [3] أتلعا
جرى وجرى البرق اليمانُ عشيةً   فأبطأ عنه البرق عجزاً وأسرعا
كأن على عطفيه من خِلَع السُرى   قميصَ ظلام بالصباح مرقعا
ولما انتحى ذكرُ الأمير استخفه   فخفّض من لحن الصهيل ورفّعا
حنيناً إلى المَلْك الأغر مردّداً   وشجواً على المسرى القصي مُرجّعا

ومع أن قصائد ابن خفاجة ومقطعاته تكاد تنصب في معظمها على وصف الطبيعة فان ثمة قصائد أخرى نظمها في الرثاء وفي المديح وغير ذلك من الأغراض دون أن يتخلى عن نزعته الوصفية . وهذه القصيدة رغم أنها في المديح فان نحواً من نصف أبياتها الستين يدور في فلك الوصف ، وصف

---

(١) لواني : عطفني وثنى عنقي تلفتاً

(٢) التخايل : الزهو والكبرياء ، والأجرع : المكان الحافل بالزرع

(٣) الخور : الضعف ، والعنان : اللجام ، ويريد به الفرس السريع الذي يسهل الانطلاق به . المطهم : التام الخلق . الشوى : أطراف الجسد . الشأو : المسافة والبعد ، الأقود : الذلول الذي يسهل قياده . الأتلع : طويل العنق

الطبيعة والفرس وذكر الايام الخوالي ، مما يؤكد سلطان الطبيعة على نفس ابن خفاجة .

لقد غلب الشوق والحنين على نفس الشاعر في هذه الأبيات التي نظمها - فيما نرجح - في أعقاب انتصار ابراهيم بن يوسف على أعدائه من الاسبان . وكان ابن خفاجة قد نزح عن بلده مع من نزحوا طلباً للنجاة ، وغدا لهذا الحدث التاريخي - من غير شك - أثر بالغ في نفسه ، وهو الذي لم يكن السفر ليستهويه ، ومن هنا كانت نفسه مفعمة بالأسى . وواضح من خلال الأبيات أن ابن خفاجة كان يعيش في مهجره ، على حين بقي قلبه ومشاعره رهين وطنه وقومه .

لقد هاج الحمام في نفسه الشجو ، فراح يستعيد ذكرياته الدفينة بأسى ومرارة ، باكياً أيامه الخوالي ، أيام الصبا وعهود الشباب ، إذ ليس أمرّ على القلب من توديع الشباب الذي يولي عن المرء إلى الأبد ، مخلفاً في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، وفي العين دمعة .. وعلى هذا الغرار من الحزن الممض يندب الشاعر ما مضى من أيامه البهيجة التي أخذت تتقاطر أمام مخيلته موشاة بهالة زاهية من البهاء ...

ومن المألوف في الشعر الأندلسي ، كما هو الحال هنا ، أن تغدو الذكريات السعيدة مسترخية على وسادة الطبيعة الجميلة ، كأن نرى إلى مشاعر الشاعر وهي تهتز لسجع الحمائم وتهفو للمصيف والمربع ، مستمتعة بالليل الساجي والصبح الجميل ... حين كانت السرحة تمتد بظلالها ، والبلابل تصدح بألحانها ، والحقول تندى بمياهها ..

ومثل هذا الغرض الشعري ، ونعني به تصوير منازع الحنين والشوق ، عريق أصيل في شعر العرب ، وقد عرف به كثير من الشعراء في القديم لكثرة ترحلهم عن الديار ، وبخاصة الذين عرفوا بشعراء نجد من البداة في العصر الجاهلي ثم في إبان صدر الإسلام والعهد الأموي . ومع ذلك فالموضوع قديم متجدد لأنه يمتح من معين نفسي لا ينضب .. ومن هنا آثر ابن خفاجة أن يرسم لوحته النفسية بريشة معهودة ومداد قديم . فمناجاة الحمام وبكاء الرسم الدارس وفراق الأحبة وتفرق الشمل .. أمور مألوفة في الشعر ولا تبلى جدتها ، لرسوخها في نفس الإنسان وبعد جذورها في عاطفته .

ويزداد ابن خفاجة اقتراباً من الشعراء القدامى حين يحرص على ذكر ما سبق أن ذكروه ، حتى لنلمح في أبياته كلام شعراء بعينهم ، من مثل أبي ذؤيب لحين نقع على كلمات « .. آبى لجنبي أن يلائم مضجعاً .. » أو مثل الصمة القشيري في ذكره المصطاف والمتربع .. وقد تبدو هذه الظاهرة على نحو أجلى في أبيات ابن خفاجة المتأخرة التي يتناول خلالها موضوعاً مطروقاً لدى الشعراء العرب هو وصف الخيل . فابن خفاجة يبدو هنا شاعراً تقليدياً في مستهل وصفه ، بل شاعراً متبدياً يؤثر الجزالة والوصف الحي الوجيز ، حتى إنه وهو في أقصى الغرب لا يستطيع الانعتاق من فلك البرق اليماني .. كل ذلك يعني أن ابن خفاجة إنما كان ، في مدائحه وفي المقدمات الوصفية لمدائحه على حد سواء ، حريصاً على البقاء في فلك القدماء والنسج على منوالهم . ومن هنا كان اعتماده على محفوظه كبيراً ، على حين تضاءلت لديه الصور الطريفة الدالة على حقيقة بيئته وخصوصية تجربته وذاتية معاناته ، ففدت أندلسيته تبعاً لذلك باهتة

في هذه القصيدة ضائعة في غمرة الملامح التقليدية للعبارة والصورة .

* * *

على أن الغرض البارز الذي كان له حيز واضح في شعر ابن خفاجة إنما هـو الوصف ووصف الطبيعة بوجه خاص ، فقد عرف به دون كثير من الشعراء ، حتى لقد اشتهر في الأدب العربي بأنه جنَّان الأندلس .

قال ابن خفاجة يصف شجرة منورة :

يا رب مائسة المعاطف تزدهي ... من كل غصن خافق [(١)] بوشاح
مهتزة ، يرتــجُّ من أعطافهـا ... ما شئتَ من كَفَل يموج [(٢)] رداح
نفضت ذوائبهـا الرياحُ عشية ... فتملكتهـا هـزةُ [(٣)] المرتـاح
حط الربيع قناعهـا عن مفرِق ... شَمِط كما تَزْبدُ كأس [(٤)] الراح
لفّاء حاك لهـا الغمامُ مُـلاءة ... لبست بها حسناً قميص [(٥)] صباح
نَضَـح الندى نُوَّارها فكأنما ... مَسحتَ معاطفها يمينُ [(٦)] سَماح

(١) المائسة المتبخترة ، والمعاطف مفردها المعطف ويراد بها هنا جوانب الجسم وأطرافه
(٢) الاعطاف : الجوانب والاطراف . الكفل : عجز الجسم ومؤخرته . رداح ثقيل ممتلىء
(٣) الذوائب : نهايات خصلات الشعر . المرتاح الذي يشعر بالنشاط والراحة
(٤) المفرق : الرأس ، أو مكان افتراق الشعر فيه . الشمط : سواد الشعر يخالطه كثير من بياض الشيب . ازبدّ : علاه الزبد والحبب . الراح : الخمرة الخفيفة التي يرتاح لها الشارب
(٥) اللفاء من الشجر : الملتفة الكثيرة الاغصان والاوراق ، المرأة اللفاء ، ممتلئة الفخذين
(٦) نضح : رش . النوار : الزهر الابيض ومثله النور . السماح : الكرم

ولوى الخليج هناك صفحة مُعرض   لثمت سوالفَها تنور[1] أقاح

موضوع هذه الأبيات الوصف ، ومع أن الوصف غرض أساسي في الفن ، لاتصاله الوثيق بما تقع عليه حواس الانسان من الموجودات في هذا العالم ، إلا أنه قلما كان غرضاً مستقلاً في الشعر العربي ، وقد يكون مرد ذلك إلى اعتقاد الشعراء أن الوصف يدخل في كل غرض من أغراض الشعر ، فهو في الغزل وصف لمحاسن المرأة وفي الرثاء وصف لمناقب الفقيد ، وفي المديح وصف لسجايا الممدوح ، وهكذا .. أما ابن خفاجة فيعالج الوصف ، ووصف الطبيعة بوجه خاص باعتباره موضوعاً رئيسياً له شأن في نفس الإنسان ومشاعره . وبذلك غدا للوصف في الأندلس عامة ولدى ابن خفاجة بخاصة حيز مستقل بين أغراض الشعر ، بعد أن كان في غالب الأحيان جزءاً من موضوع أو مقدمة لقصيدة في معهود الشعر العربي .

ومع أن موضوع هذه القصيدة وصف شجرة فان الشاعر لم يذكر لفظ الشجرة أو الدوحة خلال أبياته ، لأنه آثر أن يصفها وصفاً غير مباشر . إنه يتحدث عنها كمن يتحدث عن امرأة تتسم بكثير من سمات الأنوثة ، فهي مزدهية بحسنها وتتمايل على جانبيها تيهاً بجمالها وقد ازدانت بأنضر الأزهار . وعندما تهب عليها الريح وتهز أعطافها تبدو أيضاً كامرأة ممتلئة البدن مكتنزة الأرداف ، وهذه الصفة في جسد الأنثى كانت مستحبة عند العرب منذ الجاهلية

(١) الخليج : النهر . الصفحة : الخد . السوالف : أطراف شعر الصدغ ويراد بها هنا ضفاف النهر . الاقاحي : مفردها اقحوان وهو زهر بري أبيض يتوسطه قرص أصفر ، ويعرف أيضاً باسم زهر اللابن

وحافظ عليها الذوق الأندلسي . كذلك تبـدى لابن خفاجة رؤوس الأغصان كخصلات الشعر التي تتطاير مع هبوب الهواء وتنم على البهجة والسرور . لقد غلب على هذه الشجرة بياض الأزاهير فبـدت أشبه برأس جلله المشيب ، أو مثل كأس الراح عـلاه الزبد . إنهـا أيضاً أشـبه بفتاة ممتلئـة الجسم مكتنزة الفخذين اتشحت بغلالة رقيقـة من نسج السحاب ، وأخـذت تميس بقميصهـا صباحاً بعد أن أفاقت من نوم هنيء . ها قد توضعت قطرات الندى على تلك الأزاهير غزيرة كأنما نثرتها يد سخية معطاء تغدق العطايا والهبات ، كما كان على مقربة من هذه الشجرة نهر دافق يبتعـد عنهـا بمجراه ، وكأنه يصد عن الحبيب ، على حين تناثرت على جانبيه الأزاهير وهي تميل نحو ضفافه لثماً وتقبيلا .

ولعل أبرز ما يلفت الانتباه في هذه الأبيات هو هذا المزج بين الشجرة والمرأة بحيث تتحـدان معاً فلا تتميز الواحدة من الأخرى ، حتى اتغدوان عنصراً واحداً . وقـد جنح الشاعر في سبيل بلوغ هـذا الايهام الجميل ، إلى إكساب الشجرة العديد من صفات المرأة خالعاً عليها أبرز الملامح الإنسانية ، فهي مائسة متمايلة ، وهي ترتدي الوشاح مزهوة بحسنهـا وهي مفعمـة بالعافيـة ثقيلة الأرداف ، كما أنها ذات شعر مسترسل طويل الغدائر ، تتلفع بعباءة وتلتف بقميص .. الخ . وقد وفق الشاعر في هذا التشخيص الذي ينطوي على إيجاد الصفات المشتركة بين الشجرة وبين المرأة حين قرن في وصفه بين موضوعين متناسبين في هذه الطبيعة من حيث تشابههما وتوافر عناصر الجمال فيهما .

وهكذا طغى الخيال على هذا النص منـذ بدايته ، حين آثر ابن خفاجة

معالجة وصف الشجرة بطريق غير مباشر ، مستعيناً على ذلك بالصور الكثيرة التي تزدحم بها هذه الأبيات القليلة .. وقد يكون من أبرز خصائص النص أيضاً غناه بعنصر الحركة ، إذ أن هذا التشخيص أضفى على النص سمات الحياة التي سرت إلى عناصر الطبيعة من المرأة حين راح الشاعر ينظر إلى الشجرة والأزاهير من خلال أنوثتها ، فاذا هي تميس وتهتز وتزدهي وترتدي وتنضح وتمسح وتعرض وتلثم ..

وعلى الرغم من وحدة الموضوع وكون النص أشبه بمشهد معجب أو لوحة مصورة لمنظر من الطبيعة البهيجة فان ثمة تنافراً بين جزئيات وصفه ، من مثل نعت رأس الشجرة بالشمط ، فهذه صورة مغايرة لسائر صور الأبيات لأنها تعبر عن المشيب ، وربما اضطر الشاعر اليها في سبيل وصفه لبياض الزهر ، وبذلك أساء إلى ملامح الفتاة الجميلة التي حرص على وصف محاسنها وتصوير مفاتنها . وهذا يدل على أن ابن خفاجة يعنى بالوصف الجزئي وبالصورة المستقلة في البيت دون أن يحفل بمراعاة الانسجام بين أجزاء موضوعه الوصفي أو يحرص على التوافق بين تفصيلاته من خلال نظرة كلية أو رؤية شاملة . وهذه الظاهرة تبدو على نحو أبرز في مقطعات أخرى من وصف ابن خفاجة ، ولم ينج منها بعض الشعراء الوصافين في الأدب العربي كابن المعتز ممن كان دأبهم السعي إلى اقتناص الصور وترصيع أبياتهم بها كما لو أنها نمط من الفسيفساء .

* * *

ولعل من أبرز السمات المميزة لابن خفاجة في أدائه الفني أنه يعدل في

شعره عن التعبير المباشر ويؤثر طريقة التصوير . والتصوير نمط رفيع من أنماط التعبير في مجال الوصف ، حتى إن ابن خفاجة يمضي في اصطناع الصور داخل أبياته إلى حد الاكتظاظ معتمداً في ذلك على ألوان التشبيهات والاستعارات . غير أن الصور قلما اتسمت لديه بالطرافة والإبداع فالأقاحي لديه كالثغور ، والنوار كالنجوم ، والندى كاللؤلؤ ، والشمس كالذهب ، والماء كالفضة ، والنهر كالسوار ، والهلال كالعذار ... فابن خفاجة لا يبتعد في ذلك عن مألوف الشعر الأندلسي ، ولئن امتاز من بين الشعراء بأنه كان أكثر سعياً من سواه إلى الاعتماد على عنصر التصوير إنه لم يرقَ في معظم قصائده إلى مصاف الوصافين منهم على صعيد الأداء الفني .

ومن ناحية أخرى كان يغلب على وصف ابن خفاجة التلوين الحسي دون أن يتعداه إلى التوغل في حنايا النفس والشعور . وإذا ما استثنينا قصيدته الفريدة في وصف الجبل فان سائر أشعاره لا تكاد تتجاوز ما تراه العين وتلمسه اليد وتسمعه الأذن ، فِعْلَ العدسة الفوتوغرافية المصورة أو آلة التسجيل .

ولعل البهجة والمرح أخيراً من أبرز ملامح الوصف المميزة في شعر ابن خفاجة ، إذ قلما كانت الطبيعة لديه قاتمة عابسة . وقد يعزى ذلك إلى استواء حياة هذا الشاعر الذي عاش خلال عمر مديد في منأى عن الأزمات الاجتماعية وفي منجى من الاكتواء بالهزات السياسية . كل ذلك ملأ نفسه رضى وأفعمها اطمئناناً ، وانعكس بالتالي في شعره من خلال معانيه وصوره . فالطبيعة لديه ضاحكة أبداً ، دأبها أن تمايل أشجارها بهجة ، وتتراقص أغصانها طرباً ،

وتصفق مياهها مرحاً ، وتتبسم أزهارها سروراً ، وتشدو أطيارها حبوراً .

وتبعاً لذلك كله نما في نفس ابن خفاجة حسه بالطبيعة ، فأحبها ووجد الراحة في أحضانها ، فأقبل عليها يتغنى بها ويصف مشاهدها ويصور محاسنها ، حتى كاد يقصر شعره عليها ويعرف بين الشعراء بها .

« لقد وصف ابن خفاجة الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسمائها ونجومها .. ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور .. وهكذا كانت الطبيعة مستولية على حواسه ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى » [1] . وقد نعته المقري في نفح الطيب بصنوبري الأندلس وعده « أوصف الناس للأنهار والأزهار ، والرياض والحياض ، والرياحين والبساتين » .

ويبقى ابن خفاجة واحداً من أبرز شعراء الأندلس ، وعلماً من أعلام الوصف في الشعر العربي .

---

(١) الطبيعة في الشعر الاندلسي ، د. جودة الركابي ٥٠

شعر الطبيعة



تغلغل طبيعة الأندلس في أغراض الشعر

تمهيد

منذ أبدع الله الطبيعة على مثاله ، وجبل الإنسان من ترابها ، ما فتئت النفس الشاعرة ترتشف رحيق الجمال من مفاتنها ، وتصوغه أناشيد عذبة في مسمع الدهر . فالبيئة الطبيعية هي الملهم الأول لكل كاتب وكل شاعر ، وهي الباعث الأكبر على ابداع كل فن من الفنون . كذلك كان شأن الشعر وسائر الفنون في تراث الإنسانية ، وسيبقى حال الإنسان مع الطبيعة على هذا النحو من التلاحم الأبدي ما دام الكون بهذا الانساق والحسن ، وما دام في جبلة الإنسان هذا الإحساس المرهف بالجمال .

وعلى كثرة ما نظمه الشعراء العرب في جلال الكون وبهاء الطبيعة ، فان النقاد القدامى قلما كانوا يخصون هذا الموضوع بعنايتهم أو يفردونه بالبحث المتميز . بل إنهم لم يكونوا يعدون الوصف ـ فيما يبدو ـ من أغراض الشعر الأساسية ، ولم يروا له منزلة الغزل والرثاء والمديح .. وقد تعزى هذه الظاهرة الغريبة إلى اعتقاد الأقدمين بأن الوصف عنصر أصيل لا غنى عنه في كل غرض من أغراض الشعر أو كل موضوع من موضوعاته ، فلا ضرورة في

ظنهم لإفراده في غرض مستقل ، إذ المديح نوع من وصف خصال الممدوح ، والرثاء ضرب من وصف مناقب الفقيد ، والغزل نمط من وصف محاسن المرأة ..

وإذا كان الأدب نتاجاً للبيئة وكانت شخصية الأديب في الوقت نفسه وليدة الظروف المحيطة به والتي تمد الطبيعة من أهمها ، فمن الطبيعي أن يصف شاعرنا القديم رحابة الصحراء وامتداد الأفق وصفاء السماء ولمعان النجوم وسُرى الليل وعدو الخيل ، ثم أن يصف شاعرنا الأندلسي الرياض والحياض ، والجبال والوديان ، والأزهار والأطيار ، والظلال والمياه .

ومن خلال استقراء الشعر العربي في الأندلس يبدو لنا وصف الطبيعة أثيراً لدى معظم الشعراء ، وأن الشاعر الأندلسي كان كثير التجاوب مع بيئته الجديدة وطبيعة بلاده الجميلة . ومن هنا جاز لنا القول إن شعر الوصف بصورة عامة أو وصف الطبيعة بوجه خاص أصبح له شأن عند عرب الأندلس لم يكن له مثله عند أقرانهم في المشرق ، وذلك استجابة منهم لمؤثرات البيئة وما انطوت عليه بلادهم من مشاهد الفتنة ومظاهر الحسن . وهكذا انفعلت نفوسهم بما استشعرت حولها من عناصر الجمال وفاضت قرائحهم ببديع القول تجاه تلك الربوع التي شغفوا بها . وكأن ابن خفاجة كان ينطق عن كل أندلسي حين راح يقول بنشوة بالغة :

إن للجنة في الأندلس — مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب — ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صَبا — صحت:وا شوقي إلى الأندلس

وأي امرئ لا يغبط أهل الأندلس على ما حباهم الله به من أرض السحر ويقول مع ابن خفاجة أيضاً :

يا أهل أندلس لله دركم	ماء وظل وأنهار وأشجار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سَقَراً	فليس تُدخَل بعد الجنة النار

وهكذا دخلت الطبيعة حياة الأندلسيين وخالطت نفوسهم وتغلغلت في أشعارهم .

آ - الطبيعة والمرأة :

اعتاد الشعراء ، عرباً وأعاجم ، تشبيه محاسن المرأة بمفاتن الطبيعة ، كأن يجعلوا قدها كالغصن وشعرها كالليل ... غير أن شعراء الأندلس كانوا بحكم بيئتهم أكثر تجاوباً من سائر شعراء المشرق مع مشاهد الطبيعة التي حفلت بها بلادهم الجميلة . وكان من المنطقي تبعاً لذلك أن تشيع معاني الطبيعة في موضوعات الغزل ويسري نسغها في عناصر وصف جمال المرأة . ها هو ذا المعتضد يصف ليلة لهو وشراب ويقول متغزلاً :

نضت بُردها عن غصن بان منعّم	نضير ، كما انشق الكمام عن الزهر

وكثيراً ما يتم هذا التداخل على نحو عكسي حين تغدو الطبيعة لدى الشاعر متسمة بملامح المرأة . وهكذا يصف ابن سهل الاشبيلي بهاء الطبيعة مستعيراً لها معنى الغزل ، وواجداً في الأرض امرأة حسناء تتبرج بزهو :

الأرض قد لبست رداء أخضرا	والطل ينثر في رباها جوهرا
وكأن سوسنها يصافح وردها	ثغر يقبل منه خداً أحمرا

وعلى هـذا الغرار يتم التبادل والتقابل في الشعر الأندلسي بـين عنصري الطبيعة الجميلين : الطبيعة والمرأة .

على أن الطبيعـة تتجلى أكثر ما تتجلى في غزل ابن زيدون ، بحيث يصعب التمييز في كثير من الأحيان بين معاني الغزل وبين معاني وصف الطبيعة وربما كانت القصيدة القافيّة التي سبق لنا تحليلها والقصيدة النونية الذائعة أبرز مثال على هذه الظاهرة المميزة في شعر الأندلسيين بعامـة وفي شعر ابن زيدون بوجه خاص . ومن هذا القبيل قوله في سائر شعره :

الهوى في طـلوع تلك النجوم	والمـنى في هبوب ذاك النسيم

وقوله أيضاً يتغزل بولادة :

ما البدر شف سناه	على رقيق السحاب
إلا كوجهك لـما	أضاء تحت نقـاب

ويجنح كثير من شعراء الأندلس إلى اقتناص مفاتن الجسد في المرأة وترصيع مشاهـد الطبيعة بهـا ، من نحو قول ابن صارة الأندلسي يصف نهراً صفا ماؤه :

تترقرق الأمواج فيه كأنهـا	عُـكَن الخصور تهزها الأعجاز

ويبلغ هـذا المنحى ذروته عنـد ابن خفاجة شاعر الطبيعـة الأكبر في الأندلس حين يزاوج بين الطبيعة والمرأة في أكثر شعره . وكم تألقت ربوع الأندلس الجميلة لديه فتاة حسناء تأخذ بمجامع القلب :

إن للجنـة بالأنـدلس مجتلى حسن وريا [1] نفس

فسنا صبحتهـا من شنب ودجى ظلمتها من [2] لعس

وإذا كان الشعراء قـد درجوا على تشبيه المرأة بما يناسبها من مشاهـد الطبيعـة فابن خفاجة يجنح في أكثر شعره الوصـفي إلى تصوير الطبيعة امرأة فاتنة الحسن بضة الجسد ، فالاراكة ليست سوى فتاة طروب :

فكأنها وكأن جدول مائهـا حسناء شـد بخصرهـا زنار

أو هي غادة كثيرة التثني ازدهت بأبهى حلي وازدانت بأحلى زينة :

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها ريـح تلـف فروعهـا ممطار

فالنّور عِقدوالغصون سوالف والجِذع زِند والخليج سوار

وهكذا تراءت المرأة للأندلسيين صورة زاهية من جمال الطبيعة ومُظهراً فاتناً من مظاهر حسنها . ومن قبل لمس المقري في كتابه نفح الطيب هـذه الظاهرة المميزة عند الأندلسيين فقال : « إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خـدوداً ، ومن النرجس عيونا ، ومن الآس أصداغاً ، ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ، ومن قلوب اللوز وسُرر التفاح مباسم ، ومن ابنة العنب رضاباً ... [3] »

---

(١) المجتلى : ما تجتليه العين وتتملاه من جمال ورونق . الريا : الرائحة

(٢) السنا : الضوء الساطع . الشنب : البياض ، وشنب الثغر كفرح فهو أشنب أو ذو شنب : ابيضت أسنانه ورفت . والشنب : جمال الثغر وصفاء الأسنان ، والعامـة استعارت الشنب للشارب واستعملته فيه حتى نسيت الأصل . اللعس : لون السمرة في شفتي المرأة

(٣) نفح الطيب ، المقري ٢ : ٣٢٣

ب - الطبيعة والخمرة :

وكثيراً ما حلت المرأة والخمرة معاً في الطبيعة أو حلت الطبيعة فيهما في مزيج عذب معجب . وما اجتماع هذه العناصر الثلاثة معاً في كثير من الأحيان إلا من وحي ربوع الأندلس وليالي السعد في أحضان تلك الطبيعة الجميلة ، حيث يحلو الغزل وتطيب الخمرة . ولهذا قلما وجدنا شعراً في وصف الطبيعة لا يرد فيه ذكر للمرأة أو إشارة إلى الخمرة ، يقول المعتضد بن عباد :

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماء صباح ، والنسيم رقيق
معتقةً كالتبر ، أما نجارها ... فضخم[1] ، وأما جسمها فدقيق

وعلى هذا الغرار يقول أبو بكر بن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى
والروض كالحسنا كساه زهره ... وشياً ، وقلده نداه جوهرا

ويتجلى هذا الربط بين فتنة الطبيعة ونشوة الخمرة في بعض شعر ابن هانىء على جزالته فيرق في هذا المجال قائلاً :

وليل بت أسقاها سلافاً ... معتقة كلون الجلنار
ونجم الليل يركض في الدياجي ... كأن الصبح يطلبه بثار

أما ابن اللبانة فقد نظر إلى مدينة ميورقة وجزيرتها بمنظار من أخذته

---

(١) النجار : الأصل الرفيع والنسب الشريف ، ويريد به الخمرة المعتقة التي ترجع في وجودها إلى أيام سالفة

نشوة الشراب فرأى أن ذلك البلد :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلةَ ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

وكعهدنا بابن خفاجة وصافاً بارعاً ، نراه كعادته يكثر من تصوير الجانب الضاحك من الحياة حيث للخمرة القِدْح المعلى :

ومجر ذيل غمامة قد نمقت وشيَ الربيع به يدُ الأنواء
القيتُ أرحلنا هناك بقبة مضروبة من سرحة غناء
وشربتها عذراء تحسب أنها معصورة من وجنتي عذراء
حمراء صافية تطيب بنفسها وغنائها وخلائق الندماء
خذها كما طلعت عليك عرارةٌ مفترة عن لؤلؤ الأنداء

« والطبيعة عند ابن خفاجة طروب تبعث في النفس معاني المرح والبهجة ، إنه يشرب مجاراة لها في طربها ونشوتها ورقصها »[1] .

عاط أخلاءك المداما واستنسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن وهو رطب يقطر أو طارح الحماما
وقد تهادى بها نسيم حيث سليمى بها سلاما
فتلك أفنانها نشاوى تشرب أكوابها قياما

وإذا كان لكل شاعر من شعراء الأندلس نصيب في هذا المجال يقل أو يكثر فان للشاعر ابن حمديس الصقلي هنا منزلة خاصة ، حيث يتجاوز

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي : د. سيد نوفل ٢٨١

المقطعات ليبلغ حد القصيد . ها هو ذا ابن حمديس يصف الخمرة الشهية في أحضان طبيعة الأندلس الجميلة فيقول :

نحن في جنة نباكر منها ساحلَي جدول كسيف مجردْ
صقلت متنَه مداوسُ شمس من خلال الغصون صقلاً مجدد
ومُدام تطير في الصحن سكراً فتُحَل العقود منها وتعقد
جسمها بالبقاء في الدن يبلى وقواها مع الليالي تجدد
وإذا الماء غاض في النار منها أخرج الدرُّ من حباب منضد
يالها من عصير أول كرم سكر الدر منه قِدماً وعربد

وجلي أن عنصر التصوير في هذه القصيدة الدالية بما انطوى عليه من طرافة وابتكار ، وحيوية وعذوبة ، هو الذي رفع من شأن تلك الأبيات ووسمها بطابع البراعة الفنية المعجبة .

ومن هذا القبيل أيضاً قصيدة أخرى لابن حمديس تعد من غرر شعره للخصائص نفسها ، إنها قصيدته الحائية ، وفيها يقول :

طرقَت والليل ممدود الجناحْ مرحباً بالشمس في غير صباح
غادة تحمل في أجفانها سَقَما فيه منيات الصحاح
فاسقني عن إذن سلطان الهوى ليس يشفي الروحَ إلا كأس راح
وانتظر للحِلم بعدي كرَّةً كم فساد كان عقباه صلاح
فالقضيب اهتز والبدر بدا والكثيب ارتجَّ والعنبر فاح
وكأن الغرب منها ناشق باقةً من ياسمين أو أقاح

وكأن الصبح ذا الأنوار من ظلم الليل على الظلماء لاح

فاشرب الراح ولا تُخلِ يداً من يد اللهو غُدُواً ورواح

في حديق غرس الغيثُ به عبقَ الأرواح موشيٌّ البطاح

تعقل الطرفَ أزاهير به ثم تعطيه أزاهيرَ صراح

أرضع الغيم لباناً بانه فتربت فيه قامات الملاح

كل غصن تمتري أعطافه رعدة النشوان من كأس اصطباح

استهل ابن حمديس قصيدته الشائقة بالغزل خلال بيتين اثنين فكانا أبرع استهلال . وقد زان الأبيات حلاوة الألفاظ وتناغمها وعذوبة موسيقاها ، بالإضافة إلى ما تناثر خلالها من تصريع جميل في المطلع ، ثم من مطابقة بين السقم والصحة ، وبين الليل والصباح ، والفساد والصلاح ، والغدو والرواح .. ومن مجانسة بين الروح والراح واللبان والبان ، أو من نحو ذلك التوازن بين عبارات الشطرين :

فالقضيب اهتز ، والبدر بدا والكثيب ارتج والعنبر فاح

وهذا ما أضفى على البيت وسائر أبيات القصيدة إيقاعاً محبباً زاد في توليد عنصر الحركة في القصيدة ، ولعل بحر الرمل أحد العوامل المولدة لهذه الحركة . على أن جمال التصوير في هذه الأبيات يضارع حلاوة المبنى في القصيدة من خلال الاستعارات والتشبيهات التي أغنت فيها عنصر الخيال وقوت خلالها عنصر التشخيص .

والمهم في القصيدة ، أو ما يعنينا منها ، هو هذا المزج المحبب ، وبمقادير

ملونة ، بين الطبيعة والغزل والخمرة آلفت بينها يد صناع وموهبة فريدة ، مما جعل للشعر الأندلسي نكهة طريفة وطابعاً مميزاً .

ج - الطبيعة والمديح :

منذ أن هبت ريح التجديد على الشعر خلال العهد العباسي بدا جلياً أن مقدمات النسيب التي كانت تستهل بها القصائد قد أخذت تنحسر عن بعض المدائح ، على حين أصبح وصف الطبيعة هو الذي يتوج الكثير من هذه القصائد ، وقد تجلت هذه الظاهرة في كثير مما قاله أبو تمام في المعتصم وما قاله البحتري في المتوكل .. [1]

كذلك تجلت هذه الظاهرة المحدثة على نحو أبرز في كثير من مدائح الأندلسيين ، حتى كاد ذلك يكون في شعرهم نهجاً أثيراً . من ذلك ما مدح به أبو بكر بن عمار حاكم اشبيلية المعتضد في قصيدة استهلها بوصف الطبيعة ، ومطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

وعلى هذا الغرار يمضي الشاعر ابن عمار في وصفه لجمال الطبيعة خلال بضعة عشر بيتاً تتعانق في كثير من معانيها مع خصال المعتضد ، ومن هذا القبيل قوله أيضاً :

---

(١) استهل أبو تمام رائيته في مديح المعتصم بأبيات عديدة وصف فيها الربيع ومطلعها :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

كما أكثر البحتري من الوصف في العديد من قصائده فوصف البركة والربيع والذئب والأسد ... جاعلاً ذلك في مقدمات قصائده

ملك يروقك خلقه أو خلقه ... كالروض يحسن مخبراً أو منظرا

وعلى هذا الغرار أيضاً مدح ابن الأبار الحاجب المنصور مستهلاً قوله بأبيات في وصف الربيع خلص منها إلى الإشادة بمناقبه [1] :

لبس الربيع الطلق برد شبابه ... وافتر عن عتباه بعد عتابه

ملك الفصول حبا الثرى بثرائه ... متبرجاً لوهاده وهضابه

فأراك بالأنوار وشي بروده ... وأراك بالأشجار خضر قبابه

أمسى يذهّبها بشمس أصيله ... وغدا يفضضها بدمع حبابه

عَقَل العقولَ فما تكيفُ حسنَه ... وثنى العيونَ جنائباً بجنابه

بالحاجب المأمول أضحك ثغره ... فرحاً وأنطق جهرنا بصوابه

وواضح أيضاً ما تتسم به هذه الأبيات من تزيين بديعي وحرص على المطابقة والمجانسة وخلق التناظر الموقع بين العديد من كلمات أشطر الأبيات .

على أن شعراء الأندلس قد ذهبوا إلى أبعد من هذا المدى حين مزجوا محاسن الطبيعة بمآثر الممدوح . نلمس ذلك في عدد من قصائد ابن هانىء في المعز الفاطمي ، من نحو قوله :

ألم تريا الروض الأريض كأنما ... أسِرَّة نور الشمس فيه سبائك

كأن كؤوساً فيه تسري براحها ... إذا عللتها الساريات الحوائك

وما تُطلع الدنيا شموساً تُريكها ... ولا للرياض الزهر أيد حوائك

---

(1) انظر كتاب : البديع في وصف الربيع ، لابن حبيب الحميري ٢٤ ، وتاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ، د. احسان عباس ١٩٤ - ١٩٥

ولكنها ضاحكتنا عن محاسن جلتهن أيام المعز الضواحك

ومن هذا القبيل ما مدح به ابن زيدون آل جهور في قوله يخاطبهم :

زهرت أخلاقكم فابتسمت كابتسام الورد عن لؤلؤ طل

أو ما مدح به أيضاً ابن زيدون أمير قرطبة أبا الوليد بن جهور ، إذ قال :

للجهوري أبي الوليد خلائق كالروض أضحكه الغمام الباكي

وحين لاذ ابن زيدون بالمعتمد تراءى له العيش في أكنافه جنة يحار في ربوعها الشعر :

أورثتني نُعماك جنة عدن جال في وصفها فضلٌ القريض

كذلك وجد ابن خفاجة في بشاشة ممدوحه ما يماثل بهجة الروض الأريض :

تَشيم بصفحتيه بروقَ بِشر تعيد بشاشةَ الروض الجديدُ

وربما كان من أبرز ما نقع عليه في تمثيل هذه الظاهرة ، أي امتزاج محاسن الطبيعة بمآثر الممدوح ، قصيدة لابن شهيد نظمها في مديح عبد العزيز المؤتمن[1] ، واستهلها بأبيات كثيرة وصف خلالها جمال الطبيعة ثم انتقل بعدها إلى موضوعه المدحي ، على غرار ما عهدناه لدى أعلام الشعر العباسي وبخاصة البحتري حين أفاض في وصف بركة المتوكل ثم انتقل ببراعة إلى مدح الخليفة المتوكل نفسه ، حتى لنكاد نعتقد أن خير شعر الوصف ما كان مقدمات لقصائد المديح .

(١) ديوان ابن شهيد ، القصيدة ذات الرقم ٦٤ ، والصفحة ١٥٥ وعدد أبياتها ٧٧ بيتاً ينصب نحو نصفها على وصف الطبيعة

يقول ابن شهيد :

أما الرياح بجو عاصمْ فحلبن أخلاف[1] الغمائمْ
سهر الحيا برياضها فأسالها والنَّوْر[2] نائم
حتى اغتدت زهراتها كالغيد باللجج العوائم
ورد كما خجلت خدو د العين من لحظات[3] هائم
وشقيق نعمان شكت صفحاته من لطم لاطم
بكر الحسان يردنها من كل واضحة[4] الملاغم
وضحكن عُجْبا فالتقت فيها المباسم بالمباسم
ضحكت وأومض بارق فظللتُ للبرقين[5] شائم
وعلا بنا سكر أبى إلا الإنابةَ[6] للمحارم
نرمي قلانسنا له ونجرُّ من عَذَب[7] العمائم
وترنمت فيها القيا ن لنا ورجَّعت[8] البواغم

(١) الأخلاف : الضروع
(٢) الحيا : المطر . النور : الزهر الأبيض
(٣) العين : مفردها عيناء ، وهي ذات العيون الواسعات
(٤) الملاغم : ما حول الفم
(٥) شام البرق يشيمه : نظر اليه أين يتجه وأين يمطر
(٦) الانابة إلى الله : الرجوع اليه والتوبة ، ويريد هاهنا الركون إلى المعاصي
(٧) العذب : الذوائب والأطراف ، وما سدل بين الكتفين من العمامة
(٨) البواغم : مفردها باغمة ، وهي الظبية ذات الصوت الرخيم

وأغنّ من سَدَن الملو ... ك سليلِ أقيالٍ[1] خضارم

لا تستجيه الراشفا ... ت ولا تباليه اللوائم

يُجنينه ثمرَ النحو ... ر ويمتلين به المحازم

متجاهلاتٍ أنه ... يهوى وهن به عوالم

لازمت باب محله ... والنُجح من قنَص الملازم

واقتدته بشكائمي ... فانقاد في تلك[2] الشكائم

فوردت جمَّات المنى ... وكرمت عن لؤم[3] المآثم

وأغرّ قد لبس الدجى ... بُرداً فَراقكَ وهو فاحم

يَحكي بغرته هلا ... لَ الفطر لاح لعين صائم

فكأنما خاض الصبا ... حَ فجاء مبيضَّ القوائم

ويسير في يبس الثرى ... وكأنه في البحر عائم

حتى انتضى عبد العزيـ ... ـز عزيمة من صدر عازم

وعلى هذا الغرار من السهولة واليسر والتدفق يمضي ابن شهيد في وصفه لمشاهد الطبيعة وساعات اللهو ، حتى ينتهي إلى نعوت الممدوح فلا يستغرق

---

(١) الأغن : من كان في صوته غنة ، وهو الصوت الرخيم الذي يخرج من اللهاة والأنف . السادن : الآذن والحاجب ، وسادن الكعبة خادمها . القيل : بفتح وسكون : الملك من ملوك حمير في اليمن القديمة . الخضارم : السادة الكرام النجب

(٢) الشكيمة : في أصل معناها حديدة اللجام التي تعترض في فم الفرس ، وتعني القوة والأنفة والبأس

(٣) الجمات : مفردها الجمة ، وهي معظم الشيء أو الكثير منه . المى : مفردها مُنية أي ما يتمناه المرء ، ومثلها الأماني ومفردها أمنية

ذلك منه سوى عشرين بيتاً من مطولته التي بلغت نيفاً وثمانين بيتاً ، وتتضمن هذه القصيدة أكثر الخصائص التي اتصف بها شعر الطبيعة في الأندلس من حيث خفة المعاني وحلاوة الألفاظ ورشاقة التعبير وطرافة الصور وجمال القافية وقصر البحر ... في إطار بهيج من بهاء الطبيعة ومتعة اللهو ونشوة الخمرة .

والذي يميز هذه الأبيات ما حفلت به من حركة موارة أسهم في خلقها تقاطر الأفعال والصور التي أفعمت المعاني حياة ، كما أن ما زادها توثباً بجزوء بحر الكامل بتفعيلاته المتماثلة المتراكبة وإيقاعه الصائت المرْقص .

د - الطبيعة والشعر الحماسي :

وعلى هذا الغرار دأب شعراء الأندلس على بث عناصر الطبيعة في أعطاف سائر الأغراض والمعاني الشعرية . وكما أطلت معاني القوة والحرب لدى المتنبي في شعره الغزلي تبعاً لعنفوانه وتمرده ، تعانقت في أحيان كثيرة معاني الطبيعة ومعاني الحماسة في شعر الأندلسيين . وإذ يشيد أبو بكر بن عمار بيأس المعتمد ابن عباد يجعل رؤوس خصومه ثماراً نبتت فوق رمحه لأنه يهوى الغصون مثمرة :

أثمرتَ رمحك من رؤوس كماتهم   لما رأيت الغصن يُعشق مثمرا

ومع أننا نجد جذوراً لهذا المعنى في أدب العرب من نحو صورة الحجاج في إحدى خطبه « إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها .. » فان الطرافة ما زالت تسم قول ابن عمار وتجعله محبباً بفضل هذا التناظر بين الصورتين في البيت وكون الطبيعة قاسماً مشتركاً فيهما .

وقد يبدو من العسير أحياناً التمييز بين ما هـو تالد وما هو طارف في

معاني الشعر وصوره . فمثل هـذا المطلب بعيد المنال ، وبخاصة في قضايا التأثر والتأثير ذات الطابع المتشابك المعقـد ، وذلك على الرغم من الجهود الكبيرة ، الموفقة أحياناً والمخفقة أحياناً أخرى ، والتي بذلها النقاد العرب من قبل وشغلتهم في نطاق ما كانوا يطلقون عليه موضوع السرقات . فالقديم ظل يبسط سلطانه على الشعر أمداً طويلا .

من هذا القبيل مثلاً تشبيه النهر بالسيف في قول أحد شعراء الأندلس يصف نهراً :

وإذا استقام رأيت صفحة مُنصُل   وإذا استدار رأيت عِطف سِوار

أو قول ابن سهل الاشبيلي أيضاً في وصف نهر :

والنهر ما بين الرياض تخاله   سيفاً تعلق في نجاد أخضرا

وكما استدعى التماع الماء صورة السيف استدعى وميض الغمام أيضاً بريق السيوف ، على غرار ما عمد اليه عمر بن يوسف الحنطي في هذا المعنى التقليدي :

أوميض برق أم سيوف تبرق   في عارض أكنافـه تتألق

كذلك غدا النهر في مرأى ابن حمديس وهـو يخترق غـديراً كما شق الحسام جسد فارس داخل درعه الحصينة :

وزرقاء ، في لون السماء تنبهت   لتحبكها ريـح تهب مع الفجر
يشق حشاهـا جـدول متكفل   بسقي رياض ألبست حللَ الزهر
كما طَعن المقدام في الحربَ دارعاً   بعضب، فشَق الخصرَ منه إلى الخصر

والصورة لا تخلو من براعة ودقة في رصد الصفات المتقابلة والحرص على

التقريب بين المشبه والمشبه به برغم ما تنطوي عليه من افتعال ومن قلة الانسجام بين عناصر وجه الشبه .

وغدا مألوفاً لدى شعراء الأندلس ذكر السلاح وأنماطه خلال وصفهم لمشاهد الطبيعة ، كما هو شأن أبي القاسم بن العطار الاشبيلي يصف منظراً :

لله بهجة مَنزَه ضربت به فوق الغدير رواقها الأنسام

فمع الأصيل النهرُ درعٌ سابغ ومع الضحى يلتاح منه حسام

وقد جنحت الرميكية إلى ما يشبه هذا المعنى حين أجازت شطراً للمعتمد ابن عباد عجز من معه من الشعراء عن إجازته :

نسج الريح على الماء زرد يا له درعاً حصيناً [1] لو جمد

وبوسعنا أن نعزو تغلغل معاني الحماسة في شعر الطبيعة لدى الأندلسيين

(١) يرد شبيه لهذا البيت مطلعاً لقصيدة معروفة لابن حمديس في وصف الطبيعة على هذه الصورة :

نثر الجو على الأرض برد أي در لنحور لو جمد

أما شطر الرميكية التي أجازت به شطر ابن عباد فقصته مشهورة في كتب الأدب أوردها صاحب نفح الطيب . وفحواها أن الشاعر الملك المعتمد بن عباد كان وصحبه في قارب يتهادى بهم في نهر الوادي الكبير وبينهم الشاعر أبو بكر بن عمار . وقد طلب المعتمد ممن معه أن يجيزوا قوله :

نسج الريح على الماء زرد . . .

فلم يقدر أحد على ذلك . وصادف أن فتاة كانت تغسل بعض الثياب على شاطىء النهر وقد سمعت ما كان من أهل الزورق فبادرت إلى القول متممة البيت :

يا له درعاً حصيناً لو جمد

ويقال إن ذلك انتزع إعجاب المعتمد فاتخذ من الفتاة زوجاً له ، وكان لها بعد ذلك شأن في دولته

إلى جذور بعيدة للشعر الحماسي في نفوس العرب ، فهو من أعرق الشعر لديهم ، وأكثره أصالة ، وأغزره مقطعات وأبياتاً ، وأشده لصوقاً بحياتهم وأيامهم ومنازعهم . والعرب بطبيعتهم أمة قتال وغزو وفروسية . ومن هنا غلبت معاني القوة وصور الحرب على جانب هام من شعرهم ونثرهم . وما الشعر الأندلسي في حقيقة أمره إلا غصن نضير من دوحة الأدب العربي الوارفة .

* * *

والحق أن هذا المنحى الفني في استغراق الطبيعة للعديد من أغراض الشعر ومعانيه إنما كان أثيراً لدى شعراء الأندلس . ومع ذلك فهو لم يكن بدعاً لديهم ، فقد شاركهم فيه بل سبقهم اليه المشارقة . غير أن ذلك لم يبلغ في الشعر العربي ما بلغه لدى الأندلسيين ، حتى إن الطبيعة لم تكد تدع شاعراً في الأندلس إلا وضعت مياسمها عليه وجعلت ملامحها تتجلى في شعره ، لا نكاد نستثني من ذلك غرضاً من أغراض الشعر العربي ، وحتى الرثاء كان في بعض معانيه معرضاً لمعالم الطبيعة ، من مثل ما نجده في مرثية لابن خفاجة يقول فيها :

في كل ناد منك روض ثناء	وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي	غبَّ البكاء ورنة [1] المُكَّاء

إلا أن ابن خفاجة في رأي احسان عباس « لم يقف عند هذا الحد ، إذ زاد في التشخيص وفي الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة ، واعتمد وسائل فنية

---

(١) المكاء : القبرة ، وصوتها بعيد عن التطريب

جديدة متصلة بملكات خاصة لديه ، ولم يكتف بأن يربط الطبيعة بموضوع الحب ومجلس الخمر ، بل ربطها بكل موضوع ، وجعلها المتكأ الذي يستند اليه القول الشعري عامة . إنه تمدى ربط الطبيعة بموضوع الرثاء أولاً ، ثم بموضوع الفناء والزهد عامة ، فبعث فيها المعاني الحزينة ، وتحدث اليها وتحدثت اليه - في صمتها أو في حركتها - بمعاني العبرة .. » [1]

ومن الطبيعي أن ينطوي شعر الحنين - الذي صدر عنه عدد من شعراء الأندلس إثر هجرتهم وترحلهم ، أو خلال نفيهم واغترابهم - على أواصر واشجة تشده إلى مشاهد الطبيعة ومرابع الصبا ، حيث تنبعث المشاعر ، وتتألق الذكريات في بقاع معهودة من الأرض وقد ازدانت بأشجارها ، وعبقت بأزهارها وانتشت بأطيارها وارتوت من مياهها ... فضلاً عما يرتسم حول هذه الربوع من هالة محببة وشاها بعد المكان وكر الأيام .

وثمة شعر شجي عذب تدفق من قرائح شعراء كتب عليهم أن يعيشوا في منأى عن مواطنهم ، مثل ابن زيدون في استخفائه وتشرده ، وابن خفاجة في هجرته واغترابه ، وابن حمديس في نزوحه وترحله ، وابن عباد في منفاه وأسره ... وكل هذا الشعر شديد التلاحم مع الطبيعة شديد اللهفة عليها ، حتى لتبدو ربوع الأندلس الوعاء الرحيب المحبب لكل مشاعر الشوق والحنين التي انطوت عليها جوانحهم في إبان محنهم .

وإذا كان مجال القول لا يتسع لمزيد من التقصي لهذه الظاهرة ، ظاهرة

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : د. احسان عباس ٢٠٤

تقمص الطبيعة في آغراض الشعر الأندلسي ومعانيه - فان فيما سبق من القصائد والمقطعات جدير بأن يوضع جانباً من قسمات هـذا الشعر . وكأنما « أصبح المنظر الطبيعي - كما يقول احسان عباس - كالقاعـدة أو (العامـل الكيميائي المساعد) في القصيدة الأندلسية »[1]

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ٢٠٣

ملامح شعر الطبيعة

إذا كان النزوع إلى الطبيعة يكاد يستغرق قرائح الشعراء في الأندلس ، فانهم في الوقت نفسه لم يصدروا دوماً في وصفها عن منحى واحد ونهج مطرد . فالعربي ، وبخاصة في مجال الشعر ، قلما كان يجنح إلى الخروج عن مألوف طرائق العرب والتحليق بعيداً عن سرب فحول الشعر العربي . ولكنه في الأندلس وجد نفسه وهو منجذب بقوة ، ويوماً بعد يوم ، إلى طبيعة بلاده الجميلة حيث أخذت تتفاعل معها نفسه وتستوحيها قريحته . وهكذا كان على الشاعر الأندلسي أن يستجيب لدواعي ذاته وبواعث إبداعه وأن يحرص في الوقت نفسه على البقاء قريباً من ديوان العرب وطرائق نظمهم .

وهكذا كان ثمة بعض التباين في مناحي الوصف وسبله بين فئة من الشعراء وبين فئة أخرى منهم ، كأن ينحو بعضهم في وصفه للطبيعة منحى تسجيلياً ، مبعداً ذاته وشخصيته عما يصف أو يصور ، على حين يؤثر بعضهم الآخر الاندماج فيما يصف أو يصور إندماجاً عاطفياً وشعورياً قوياً بحيث تضيع الحدود وتختلط المعالم بين ذاته وبين موضوعه . بل إن الغريب في الأمر أن

نجد شاعر الطبيعة الأندلسي نفسه ينطوي في منحاه الفني أحياناً على النزعتين معاً ، وكأن قريحته تتأرجح بين مذهبين ، أو أنها تستجيب لما كان يروقها تبعاً لميولها واستجابة لظروف تجربتها . وما ذلك سوى مؤشر على السلوك الفني الحر الذي اتسم به الشاعر العربي عبر العصور ، فهو حين ارتضى هذا السبيل وآثره فلأنه ألفه من جهة ، ولأنه من جهة أخرى أنس فيه ما يلائم سجيته العريقة ، ألا وهي الانطلاق في عالم النفس الشاعرة وفي رحاب الشعر المبدع ، بعيداً عن نطاق التمذهب وصرامته .

التصوير الحسي

ومهما يكن من شغف الأندلسيين بطبيعة بلادهم فان تحضرهم وسكناهم المدن وانهماكهم في الحياة الاجتماعية ... كل ذلك قد حد أحياناً من معاشرتهم للطبيعة الأم ومرابعها البكر وأضعف من تأثرهم بها . وكثيراً ما طغت المنازع المادية على الحياة في هذا العصر ، سواء في مشرقه أو مغربه ، فشاع التصنع في مظاهر العيش ، وغلبت على الناس مظاهر الزخرفة ، على غرار ما كان من ذلك أيضاً في العصر العباسي . وهكذا غدا من الطبيعي أن تنعكس هذه الظاهرة بجلاء في المأكل والمشرب والملبس وفي البناء ، وأخيراً في فنون القول من شعر ونثر ... وقد تجلى هذا الاتجاه الحسي في المشرق بأبرز ملامحه في شعر ابن المعتز العباسي .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يستجيب الأندلسيون لدواعي العصر

ومؤثرات الظروف الاجتماعية والبيئية المستحدثة ، كما كان من المألوف أيضاً أن يقبس الأندلسيون في الوقت نفسه هذه الظاهرة من المشرق وفي خلال الحقبة العباسية بوجه خاص ، وهم المعروفون بتتبعهم لكل مظاهر الحياة الاجتماعية والفنية لدى المشارقة . ولعل ما ساعد على قوة هذا التأثير تلك المعاصرة في الزمان بين الأندلسيين والعباسيين ، حين كان شعر الفحول ملء السمع في المغرب والأندلس . وإن في اصطناع الأندلسيين لأسماء فحول المشارقة وتلقبهم بها ، من مثل « بحتري المغرب » و « صنوبري الأندلس » ونحو ذلك ... خير ما يؤكد هذه الظاهرة في تاريخ الأدب العربي . فحين يصف ابن خفاجة نهراً بقوله :

وإذا استقام رأيت صفحة منصل وإذا استدار رأيت عطف سوار

فهو ـ فيما يبدو لنا ـ لا يحرص على تصوير النهر بقدر حرصه على عرض براعته من خلال هيئة النهر . ومن جهة أخرى نرجح أن الشاعر لم يصف النهر كما كان بل كما يمكن أن يكون ، أي أنه جعله في هيئتين : الأولى في حال استقامته ، والأخرى في حال استدارته . وحين يقتنص الشاعر صوره المنشودة ويفلح في أن يجعلها موازية ومطابقة تضمن لعبارته التقابل والتناظر ، فانه لا يحفل بعد ذلك إن أتت هذه الصور فيما بينها متجانسة أم متنافرة . ألا ينطوي تشبيه نهر واحد بالسيف وبالسوار معاً على التشتت ويذهب لدى القارىء بوحدة الرؤية ؟

فالشاعر الأندلسي ـ كما يراه غارسيا غوميس ـ « ينتقل بذهنه انتقالات سريعة يلم فيها بالمتباعدات ، فنجده يشبه شيئاً صغيراً بشيء كبير كتشبيه الإبرة

الدقيقة بالشهاب ، أو يفعل العكس فيشبه شيئاً كبيراً بشيء صغير ، كتشبيه مجاذيف القارب بأهداب العين .. [1] » وكما وضع ابن خفاجة السيف والسوار على صعيد واحد حين شبه الزهر بهما كذلك وجدنا من الشعراء « من يضعون النيلوفر والخرشف جنباً إلى جنب ، ولا يرون بأساً في أن يقترن الباذنجان بالنرجس ، إذ كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم [2] »

وإذا ما عرضنا لأبيات أخر في شعر الطبيعة الأندلسي متتبعين هذه الظاهرة « الحسية » أو « المادية » تطالعنا نماذج مماثلة . فعندما يصف المعتضد ابن عباد في قصره زهر الياسمين قائلاً [3] :

كأنما ياسميننا الغض　　　كواكب في السماء تبيض

فانما يرمي إلى اصطياد التشبيه وإلى العثور على وجه شبه يجمع بين صفة الياسمين وصفة مماثلة لموصوف مقابل ، وهي هنا البياض . يضاف إلى ذلك هذا التقابل الضمني بين ما هو على الأرض وما هو في السماء ، وهو مما يحرص الشاعر عليه في مضمون شعره حرصه على التقابل والتجانس بين كلمتي الغض وتبيض على صعيد الشكل والأداء . كذلك آثر أبو القاسم بن عباد وصف الياسمين فقال [4] :

---

(١) الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة حسين مؤنس ٩٦
(٢) الشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ، ترجمة حسين مؤنس ٩٧
(٣) مختارات من الشعر الأندلسي ، د . أ . ر نيكل ٧٥
(٤) البديع في وصف الربيع ، حبيب الحميري ١٢٢ ، ومختارات من الشعر الأندلسي ، نيكل ٧٤

وياسمين حسن المنظر ‏ ‏ ‏ ‏ يفوق في المرأى وفي المخبر
كأنه من فوق أغصانه ‏ ‏ ‏ ‏ دراهم في مظرف أخضر

فقوام الصورة وضع الدراهم في مقابل الزهر ، بجامع البياض والاستدارة فيهما ، ثم وضع الرداء الأخضر في مقابل خضرة أوراق الشجر . ومثل هذا التشبيه يتكرر على ألسنة الشعراء حتى ليبدو كأنه يستهويهم . فمن هذا القبيل أيضاً قول أبي بكر بن عمار :

روض كأن النهر فيه معصم ‏ ‏ ‏ ‏ صافٍ أطل على رداء أخضر

فالنهر هنا يضارع المعصم في طوله ولونه ، كما يشابه الروض السندسي الرداء الأخضر . فالتصنع الذي يتجلى في كل من التشبيهين يؤول إلى الافتعال في إيجاد العلاقة بينهما وفي جمعهما في صورة واحدة هي صورة المعصم المسترخي على بساط أخضر .

كذلك صور ابن خفاجة ماء النهر المتجمع وسط المروج بأنه أشبه بقرص من الفضة موضوع فوق رداء أخضر :

قد رق حتى ظُن قرصاً مفرغاً ‏ ‏ ‏ ‏ من فضة في بردة خضراء

وعلى هذا الغرار وصف ابن سهل الاشبيلي حسن الطبيعة وراق في عينه أن :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ‏ ‏ ‏ ‏ والطل ينثر في رباها جوهرا

ثم التفت إلى وصف النهر ومائه الزلال وهو يتألق تحت أشعة الشمس فقال :

وكأنه ـ إذ لاح ـ ناصع فضة ‏ ‏ ‏ ‏ جعلته كف الشمس تبراً أصفرا

هذه التشبيهات المعادة والمألوفة تدل على أن الشعراء كانوا في بعض

الأحيان يلوكون معاني وصف الطبيعة وأن هذه المعاني كانت أيضاً في كثير من الأحيان محدودة ضئيلة الحظ من الإبداع ، وكأنها تمتح من معين واحد أو تدور في فلك ثابت ، فتشبيه المروج أو الحقول أو البساتين بالثوب الأخضر لا ينطوي على جدة أو طرافة فضلاً عن أنه يقرب من الابتذال . ولعل عدداً غير قليل من الشعراء العرب كانوا يتوهمون فيما يبدو أن الإكثار من ذكر الذهب والفضة والجوهر والمسك والزعفران في الشعر كفيل بأن يرفع من شأنه ، على حين ليس فيما أوردناه من الصور كبير طائل حين شبه المعتمد الياسمين بالدراهم ، وحين شبه ابن خفاجة الماء بالفضة ثم حين شبه الشمس بالذهب وأخيراً حين شبه ابن عمار قطرات الندى بحبات الجوهر .

ولا ريب في أن النقاد القدامى ، بفضل ما كانوا يتمتعون به من ذوق مرهف لم يكونوا يأبهون كثيراً لهذا المنحى في التصوير ، على حين كانوا يرغبون في أن يكون المعنى مبتكراً والتشبيه طريفاً والتعبير جديداً . بل إنهم فوق ذلك كانوا يحبذون الأداء الحي ويؤثرونه على ما عداه ، من نحو ما أوردوه من مقارنة بين وصف ابن المعتز في قوله :

انظر اليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

وبين وصف ابن الرومي لصانع الخبز في قوله :

ان أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   في لجة الماء يرمى فيه بالحجر

ولعل قلة إعجابنا بتلك الصور الحسية التي أوردها اولئك الشعراء الأندلسيون على غرار ما جنح اليه في المشرق ابن المعتز إنما تعود إلى أنهم جميعاً كانوا يحرصون على تشبيه الحي الطبيعي بالجامد الصناعي ، على حين تتطلب مقومات الصورة في عرف البلاغيين أن يكون المشبه به أقوى وأبهى من المشبه الذي يراد تصويره . ومن جهة أخرى فان حرص الشاعر على تسجيل الظواهر المادية أو المحسوسة في الصورة جعل عناصر التشبيه لديه طافية على السطح دون أن تجنح إلى العمق ، ولذا نرى وجه الشبه في أكثر الأحيان لا يتمدى اللون والشكل لظاهر الموصوف . ومن هنا كان هذا المنحى التسجيلي يقوم على الرصد وقياس الأشياء بمقاييس مادية كما تفعل عدسة المصور . ومثل هذا الفن قد ينطوي على الدقة ويتسم بالبراعة ، وهو قد يعجب الفكر ويبهر الذهن ولكنه أعجز من أن يثير النفس ويهز الشعور .

ولعل هذا النمط التسجيلي من التصوير البياني الذي يعتمد على استيفاء الأطراف المحددة والعناصر المتقابلة بدقة والذي كان يألفه كثير من الشعراء القدامى في المشرق وفي الأندلس على السواء ، قد أهدر كثيراً من القيم الفنية في الشعر العربي ، لأن الشاعر قد باعد بذلك بين ذاته وبين ما يصفه في الطبيعة ، فأنت مشاهده في أكثر الأحيان جامدة باردة تفتقر إلى الحيوية والحركة ، لاعتماد الشاعر فيها على الصورة البصرية في الغالب أكثر من اعتماده على وحي القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

ويبدو أن الشاعر العربي بعامة والشاعر الأندلسي بوجه خاص كان في كثير من الأحيان يرى في الطبيعة شيئاً منفصلاً مستقلاً ، فلم يحرص كثيراً

على أن يمتزج بها وأن يضفي عليها من روحه . كان هذا حال الشعر عند العرب وعند سائر الشعوب في غالب الأحوال حتى ظهور المنازع الرومانسية في أوروبا وجنوح الشعراء إلى تصوير الطبيعة من خلال ذواتهم .

النظرة التجزيئية

كانت وحدة البيت عند الشاعر العربي مطلباً هاماً يسعى اليه ويحرص عليه . وكثيراً ما رفع متذوقو الشعر في نزعتهم التأثرية شأن الشاعر وحكموا له بالتقدم من خلال بيت واحد أطربهم وانتزع إعجابهم . وهكذا غدت القصيدة في عرفهم بمثابة وحدات مجمعة من هذه الأبيات ، وكأن كل بيت حجرة منحوتة أحسنت صناعتها وأحكم رصفها مع ما قبلها وما بعدها . وكان يستحسن في البيت أن يكون قائماً بنفسه ، مستقلاً بذاته ، مكتفياً بمعناه . وقد غلبت هذه الظاهرة في الأداء على جانب كبير من شعر العرب ، وتجلت في كثير من مقطعات وصف الطبيعة في الأندلس .

* * *

هذا الحرص من الشاعر على صب معناه أو صورته في البيت دفعه إلى أن يعاود ذلك في بيت تال وآخر .. على هذا الغرار ، حتى تستتم أبياته وتكتمل قصيدته . وطبيعي في مثل هذه الحال أن تفتقر الأبيات فيما بينها إلى الانسجام في بعض الأحيان لقلة احتفال الشاعر بالنظرة العامة والرؤية الشاملة . من هذا القبيل مثلاً وصف ابن سهل الاشبيلي للربيع :

الأرض قد لبست رداء أخضرا   والطـل ينثر في رباهـا جوهرا
هاجت ، فخلت الزهر كافوراً بها   وحسبت فيها الترب مسكا[1] أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردهـا   ثغـر يقبِّـل منـه خـداً أحمرا
والنهر ما بـين الرياض تخاله   سـيفاً تعلـق في نجاد أخضرا
والطير قـد قامت بـه خطباؤه   لم تتخـذ إلا الأراكة منـبرا

هـذه الأبيات مفعمة بالحركة ، وهي تنم على ما يتسم به الربيع من مظاهر الحياة الموارة . فالأرض ترتدي ثوبهـا الأخضر والطل ينثر في رباهـا كالجوهر ، وعبير الزهر وشذا الأرض يفوحان كالمسك والكافور ، وأزهار السوسن تمايل على الورود الحمر وكأنهـا تهفو اليهـا لثماً وتقبيلا . والطير بين ذلك كله قد أخذته النشوة ففاضت قريحته بأعذب الألحان .

هكذا أجاد ابن سهل تصوير المشهد من جميع جوانبه ، حين أشرك عدداً من الحواس لديه ، فوصف الألوان المرئية والروائح العطرة والحركة الموارة .. كل ذلك في اطار من التشخيص المفعم بالحياة . ومع ذلك فلكل بيت ـ على جماله ـ معنى خاص ومستقل ، وكأن الشاعر يصوغـه مفرداً ثم يفرغ منه ليصوغ بيتاً جـديداً له مذاقـه ولونه وليصنع منـه صـورة أخرى جـديدة . ولعل ما يؤكد هـذه الظاهرة أن سقوط بيت أو أكثر من خلال الأبيات لا يضير القصيدة ، كما أن تقديم بيت على بيت لا يحدث في تركيبهـا خللاً أو يسيء إلى مجمل معناها وفكرتها بصورة عامة .

* * *

(١) الأذفر : شديد الرائحة

ولعل هـذه الظاهرة في وصف الطبيعة لدى شعراء الأندلس ، ـ وأعني بها الرؤية الجزئية ـ أشد بروزاً لدى ابن خفاجة ، من ذلك مثلاً وصفه للنهر في قوله :

متعطف مثـل السوار كأنـه ـ والزهر يكنفه ـ مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هـدب تحـف بمقلة زرقـاء

فشكل النهر كما يصفه لنـا الشاعر متعطف متعرج ، ولكنـه في البيت الأخير مستدير كالقرص . أما لونه فأبيض كالفضة غـير أنه في البيت الأخير يغدو أزرق .. وإن دل هذا على شيء فانما يدل على أن الشاعر الوصاف لـم يكن يعنى بالمشهد نفسه وتصويره كما يراه أو كما يبدو له بقدر ما يهمه أن يتخذ منه منطلقاً لعرض فنه وإظهار براعته في التشبيه وقـدرته على التصوير . وبتعبـير آخر كان الشاعر الأندلسي يجنـح للفن وبراعـة الأداء ويحرص على التصنيع والتنميق . وإذا كانت هذه غايته فلا عليه أن يترصد الزخارف ويسعى إلى التلوين ، ولا عليه أيضاً في سـبيل هـذه الرغبـة أن يضحي بواقع المشهد وحقيقة صفاته . فالقصيدة تبدو كثيرة الألوان زاهية المرأى ولكن ألوانها هذه قـد لا تكون منسقة متآلفـة في مجموعها وإن بدت معجبـة في مرآها وفي جزئياتها ، وكأنها لوحة من الفسيفساء أبدعتها يد صناع .

وثمـة مشاهـد جمة في الطبيعة حظيت باهتمام الشاعر الأندلسي ، فأقبل عليها وخصها بالوصف . لقد وصف الأرض : رياضها وحقولها ، جبالها ووديانها ،

أشجارها وأزهارها ، أطيارها وأنهارها ... كما وصف السماء : نجومها وغيومها ، بدرها ومجرتها ، صفاءها وكدرها ، شمسها ومطرها .. شأنه في ذلك كشأن المصور الذي تفتنه الطبيعة فيبادر إلى تخليد افتتانه في لوحة يؤطر داخلها هذا المشهد الذي انتزعه مما حوله وآثره بعنايته .

* * *

وعلى هذا الغرار وصف ابن خفاجة ليلاً داجياً يجوس في ظلماته ذئب ضار ، فقال :

ومفازة لا نجم في ظلمائها	يسري ولا فلك بها (١) دوّار
تتلهب الشعرى بها وكأنها	في كف زنجي الدجى (٢) دينار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي	ذئب يُلم مع الدجى زوار
طراق ساداتِ الديار مساور	ختال أبناء السُّرى (٣) غدار
يسري وقد نضح الندى وجه الصَّبا	في فروة قد مسها اقشعرار
فعشوت في ظلماء لم تُقدح بها	إلا لمقلته وبأسي (٤) نار
ورفلتُ في خِلَع عليّ من الدجى	عُقدت لها من أنجم (٥) أزرار

(١) المفازة : الصحراء الواسعة التي تودي بمن فيها إلى الهلاك ، وقد أسماها العرب بذلك تيمناً بالفوز والنجاة

(٢) الشعرى : نجم

(٣) الطراق : الضيف الذي يطرق الأبواب ليلا . مساور : من ساوره إذا ألح عليه ولازمه . وسادات الديار هنا : المسافرون في الصحراء

(٤) عشا يعشو فهو أعشى : لم يستطع أن يبصر بيسر لضآلة النور

(٥) رفل : اغتبط وتبختر ، والخلع مفردها خلعة وهي الرداء

والليـل يـقصر خطوُه ولربما | طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرةَ مفرِق | فيها ومن خط الهلال [1] عِـذار

إنها صحراء مترامية الأطراف لا مطمح لأحد في اجتيازها والركون إلى سبل الحياة فيها . وهي موحشة زادتهـا الظلمات الدامسة رهبـة ، فلا قمر ينير أنحاءهـا ولا نجم يلوح في آفاقهـا . ومن طيات تلك الليـلة الحالـكة برز ذئب ضار دأب على التجوال في الليل البهيم ، إنه ذئب مفترس اعتاد أن يهتدي إلى فرائسه من السابلة واللحاق بهم بكل ما أوتي من ختل ومكر . ها قد اقترب من الشاعر في أواخر ذلك الليل البهيم بعد أن بردت الريح وأصبحت رطبـة مبللة بالندى ، وهـو محشو في فروته الغليظـة الـتي وقف الشعر الكثيف من فوقها كمن أخذته الرعـدة والقشعريرة من أثر البرد . في مثل ذلك المكان الموحش المظلم لم يكن بوسع الشاعر أن يرى مما حوله شيئاً بعـد أن عشيت عيناه من شدة الظلام . غـير أن شيئين كانا يلتمعان ويخترقان سـواد الليل الفاحم ... إنهما شرر عيني الذئب القادحتين بالبطش ، وأيضاً شرر البأس المتطاير من قلب الشاعر الجسور الذي يتحدى الخصم العنيد .

ثم يمضي ابن خفاجة في تصـوير الليل ، حيث كان دائباً على السير في جوفـه العميق غير هياب ولا وجل ، وهو متلفع بأبراده السود السابغة الـتي انعقدت فوقها من النجوم أزرار بارقة ، فاذا هو من كل ذلك في غبطة وزهو .

---

(١) المجرة : مجموعة هائلة من النجوم المجمعة في السماء تبدو في هيئة نهر ، أو طريق ، وتعرف عند العامة بدرب التبانة ، أي الذين يحملون التبن فيتساقط بعضه على الدرب . المفرق مكان افتراق الشعر في جانبي الرأس . العذار : شعر الخد المتطاول

ولكن على الرغم من أن الركب كان يغذ السير خلاله فان هذا الليل لم يكن ليؤذن بالانقضاء وكأنه جاثم مقيم ، وكم من ليال تطـول على المرء من حيث هي قصار .

وواضح أن الوصف هنا ينطوي على موضوعين اثنين هما الليل والذئب ، وبوسعنا أن نرى خلالهما أيضاً موضوعاً ثالثاً هو وصف المفازة . غير أن براعة الشاعر استطاعت أن تجعل هـذه الموضوعات والمشاهد تتآلف بانسجام وتبدو متداخلة متعانقة ، وإذا هي آخر الأمر متحدة في موضوع واحد تتسق عناصره في لوحة متكاملة .

وأغلب الظن أن ابن خفاجة قصد إلى وصف الليل أو إلى رهبته بالدرجة الأولى . وفي سبيل إبراز هـذه الرهبة واستكمالاً لعناصرهـا عمـد إلى ذكر المفازة المهلكة والذئب الضاري . وكأن وصف رهبـة الليل هـو الغاية ، وما وصف المفازة والذئب إلا وسيلة لتحقيق هذه الغاية . ومما يؤيد هذا المذهب أن الشاعر نفسه لم يحرص على ذكر نتيجة المواجهة بينه وبـين الذئب ، وهي نتيجة لا محيد عنها في بيداء موحشة لا خيار فيهـا لأحد في أن يكون أحـد اثنين ، إما قاتل وإما مقتول . على حين لم يكن خافياً على ابن خفاجة ما دأب عليـه الشعراء الذين تقدموه ووصفوا الذئب أو الأسـد كالفرزدق ثم البحـتري وأخـيراً المتنبي من الوصول بالصراع إلى ذروته وحسمه بالظفر المبين . كل ما كان يرمي اليه ابن خفاجة في رأينا هو مجرد الوصف ، متخـذاً قوة الاثارة في ذلك سبيلاً إلى شدة التأثير .

وفي سبيل هذا التأثير المنشود الذي هو غاية كل فنان ، شاعراً كان أو

موسيقياً أو نحاتاً أو مصوراً جنح ابن خفاجة إلى عنصري التركيز والاختيار . فعلى صعيد المفازة المخيفة استعمل النفي للجنس ، حيث لا نجم يتألق ولا فلك يدور . أما الذئب فسماته تنطوي على المبالغة لأنه ليس كسائر الذئاب ، إنه طراق سادات الديار ، زوار ، ختال ، غدار ... وطبيعي أن يكون التصوير عماد الوصف في هذا الغرض الذي يعالجه رجل الفن . والقصيدة حافلة بالصور ، ولا علينا أن نحاول تحليل هذه الصور وتقويم طبيعتها ؟ فنجمة الشعرى الوضيئة في قلب الظلام أشبه بدينار يلمع في كف زنجي ، وهي صورة سائغة برغم كونها ليست مبتكرة ، ومثلها صورة الليل الذي لف الشاعر بسواد ثوبه ، وهي صورة تقليدية مكرورة ومعادة . ومن هذا القبيل تصوير ابن خفاجة في آخر قصيدته لبطء الليل وتطاوله على الراحلين والساهرين ، ثم تشبيه طلائع النور في طرف المجرة ليلاً ببياض المشيب في سواد الرأس ، وأخيراً تشبيه الهلال بالعذار ...

غير أن الرؤية الفنية ليست فيما يبدو متكاملة لدى ابن خفاجة في وصفه هذا . إنه يقع في الافتعال حيناً وفي التناقض حيناً آخر ، يدفعه إلى ذلك نزعته التجزيئية في الوصف ، هذه النزعة التي عرف بها كثير من الشعراء حتى غدت من سمات الشعر العربي .

فالشاعر الذي يخبرنا في مطلع قصيدته أن ذلك الليل الدامس لا نجم فيه ولا فلك ، لا يلبث في البيت الذي يليه حتى يقول مباشرة إن الشعرى كانت تلهب في داخله ، وكأنه نسي ما بادرنا به وما عمد اليه من نفي للجنس في مطلع أبياته . ثم لا نلبث بعد بضعة أبيات حتى نرى الشاعر يلتف بأردية

الظلام جاعلاً من النجوم البراقة ازراراً يزهى بلمعانها . بل إن الظلام الذي عهدناه في أول القصيدة حالكاً أصبح في آخرها مشوباً بالنور، كما أن السماء التي وجدناها قاتمة معتمة تبدو لنا الآن مشرقة يتربع الهلال في كبدها . فهل معنى ذلك أن الشاعر وصف أول الأمر الليل في إبانه وأنه يصفه الآن في أواخره وانبلاج طلعة الصباح من خلاله ؟ أغلب الظن أن الرغبة الجامحة في إظهار براعة الشاعر تجاه القارئ وبهره بالصور الجزئية هو ما جعله لا يحفل كثيراً بتوافر الانسجام بين صوره في لوحة متكاملة الألوان متآلفة العناصر . إنه الميل إلى التزويق والتلوين الذي جنح بالشاعر إلى تصنع بعض الصور من مثل تشبيه الهلال بالعذار الذي لم يكن فيه موفقاً ، فاذا كان بياض الهلال قد قسر الشاعر على أن يجعل العذار في مقابله أبيض اللون فماذا يبقى من وجه الشبه بينهما سوى هذا الانحناء أو الاستدارة ؟ وأي جمال يتبقى بين أيدينا آخر الأمر .

الحق إننا إذا أخذنا كل صورة على حدة عند ابن خفاجة بدت لنا في كثير من الأحيان جميلة ونمّت على براعة ، شأنها في ذلك كشأن الحجرة المنحوتة تتراءى طريفة بين يدي صانعها دون أن يبالي وراء ذلك باتساقها مع سائر أحجار البناء .

وثمة أخيراً ما نلحظه في موضوع هذه الأبيات وهو أن وصف الليل موضوع قديم طالما عالجه الشعراء من قبل كامرئ القيس والنابغة ثم المعري ... ولكنه أيضاً موضوع قديم متجدد في الوقت نفسه . وإذا كان ثمة من فارق بين وصف ابن خفاجة وبين وصف سابقيه فهو أنه عمد إلى وصفه من بعيد ،

أو من خارج كما تفعل المدسة في آلة التصوير . لقد كان وصفه حسياً ينصب على السواد والسعة والبريق ونحو ذلك ، دون أن نجد فيه صدى لنفسه . وأين هذا الوصف الظاهري من وصف امرىء القيس أو النابغة لطول الليل وعلاقته بهموم المرء وأحزانه أو بمسراته وأحلامه .

ويبقى وصف الذئب في أواسط القصيدة خير ما فيها لأنه امتاز بوحدة الرؤية وحسن ربط هـذا الذئب بالليل وحين جعله الشاعر جزءاً مـلازماً له ، ولأن وصف الذئب يتسم بالتـدرج والتسلسل ويتسربل بالحركة ، فضلاً عن جمال التصوير في قوله :

فعشوت في ظلماء لم تقدح بها   إلا لمقلتـه وبأسـي نـار

أما البيت الأخير فلعل مكانه أجدى داخل القصيدة وقد يكون حذفه أولى ، وعندئذ يغدو البيت الذي قبله مسك ختامها ، إذ عنده يحسن السكوت ، وتنتهي القصيدة عندئذ بحكمة بالغـة مستمدة من صميم الموضوع ، موضوع وصف الليل ومنازع النفس الانسانية .

وجملة القول إن شطراً من شعر الطبيعة لم يخرج عن مـدرسة الوصف التي سادت الأدب العربي في إبان العصر العباسي . إنه وصف حي أنيق اللفظ بارع الصنعـة دقيق المـلامح يعـنى بالجزئيات ويهتم بالتفصيـلات ويحرص على الزخارف ، ولكنه قلما كان يتسم بشمول الرؤية وورونق العاطفة وطلاوة الروح .

الاندماج العاطفي

على أن الطابـع الحسي والمنحى التجزيئي على قوتهما وسلطانهما لم تكتب

لها الغلبة في الشعر الأندلسي . فقد استطاع هـذا الشعر في الوقت نفسه أن يتسم بخصائص أخرى مميزة تحمل في آن واحد طابع البيئة وملامح الشاعر .

لقد ألف الشاعر العربي الطبيعة منذ القدم ، حين كتب عليه أن يعيش في أحضانها ، فينعم ببهجتها أو يشقى بقسوتها .. كما استقى الشعراء الكثير من معانيهـم وصورهم من ظواهر الكون ، فربطوا الكرم بالبحر والرزانـة بالجبل والشيب بالنَـور والابتسام بالشمس والعبوس بالغيم وسواد الشعر بالليل وامتداد القد بالغصن ، كذلك استعاروا البأس من الأسد واتساع العيون من المها وطول العنق من الريم والوداعة من الحمام والشدة من البزاة والسرعة من الريح ..

وقد يعد الشاعر العربي نفسه جزءاً من الطبيعة ويحرص على الالتصاق بها ، ويضفي عليها من نفسه ومشاعره ما يزيدها حركة وحياة . ومن قبل انفعل امرؤ القيس والنابغة بجلال الكون وصورا همها من خلال الليل الطويل والنجوم المتباطئة ، وانفعل الصمة القشيري ودريد بن الصمة وابن الدمينة وسائر شعراء نجد بريح الصبا وظباء البيد وأسراب القطـا ، وأخيراً انفعل ابن الرومي بمشهد الغروب . غير أن الشعراء العرب لم يؤثروا اتباع هذا المذهب في أكثر الأحوال . أما في الأندلس فقد أخـذ عـدد من الشعراء البارزين يجنحون للاندماج بالطبيعـة وتصوير مشاهـدها من خـلال نفوسهم ، حين كانوا يقعون تحت وطأة المنازع العاطفية الغامرة .

ولعل من أعرق الشعر وأشجاه في الأندلس ما أثر عن الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل من مقطعات جميلة تنطوي على اندماج الأمير بالطبيعـة وتصويره لمنازع الشوق والحنين في نفسه من خـلال مشهد نخلة فريدة في

حديقة قصره بالرصافة أثارت فيه كوامن الذكريات [1] :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي بالتغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

ثم يناجيها بقوله :

نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي ... يسُح ويستمري السِماكين بالوبل

وعلى هذا الغرار من التمازج العاطفي بين الشاعر والنخلة عمد أيضاً الشاعر الرمادي إلى « وصف طبق ورد قُدم له عندما نزل على بني أرقم بوادي آش ، وكان الفصل شتاء ، فاستغرب وجود الورد حينئذ وأخذ واحدة ، ثم قال بديهة » [2] :

يا خدود الورد في إخجالها ... قد علتها حمرة مكتسبة

اغتربنا ، أنت من « بجّانة » ... وأنا مغترب من قرطبة

واجتمعنا عند اخوان صفا ... بالندى أموالهم منتهَبة

إن لثمي لك قدّامهمُ ... ليس فيه فَعلة مستغربَة

لاجتماع في اغتراب بيننا ... قبّل المغترب [3] المغتربة

فكما غدا عبد الرحمن الداخل ونخلته في حال عاطفية واحدة ، أصبح

(١) نفح الطيب ، للمقري ٢ : ٧١٦

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، د. احسان عباس ١٩٧

(٣) انظر المرجع السابق ١٩٨ ، وانظر أيضاً كتاب « البديع في وصف الربيع » لحبيب الحميري ١٢٢

الرمادي ووردته أيضاً في حال شعورية واحدة ، وقد لفت الغربة الجميع بغلالتها الشجية .

ويبدو أن الإحساس بالغربة كان يقتضي هذه المشاركة العاطفية لدى العديد من الشعراء كابن حمديس الذي حفزته رؤية زهر النيلوفر على أن يقول [1] :

ونيلوفر أوراقه مستديرة ... تفتح فيما بينهن له زهر
هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

كذلك شجا الحزن أديب الأندلس أحمد بن عبد ربه حين لامست مسامعه سجعات الحمائم فأثارت كوامن مشاعره :

ويهتاج قلبي كلما كان ساكناً ... دعاء حمام لم يبت [2] بوكون
وإن ارتياحي من بكاء حمامة ... كذى شجن داويته بشجون
كأن حمام الأيك لما تجاوبت ... حزين بكى من رحمة لحزين

ولعل أبرز ما يتجلى هذا الاندماج العاطفي بالطبيعة في شعر ابن زيدون . والحق أن ابن زيدون الذي يعد قمة الشعر العربي في الأندلس قد أفاض في وصف مشاهد الطبيعة وبرع في تصويرها ، فضلاً عن أنه أضفى عليها من روحه وأسبغ عليها من عاطفته ولواعج نفسه ما زادها بهاء وحياة . وعلى هذا الغرار انغمرت نفسه بالأحزان فرأى مشاهد الطبيعة من خلالها وقد بدت له قاتمة وكأنها في مأتم :

---

(١) ديوان ابن حمديس ١٨٥

(٢) الوكون والأوكن مفردها الوكن وهو عش الطائر ، ومثلها الوكن الوكنات ومفردها وكنة

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ... ويطلب ثأري البرق منصلت النصل

وهلاّ أقامت أنجم الليل مأتماً ... لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي

أما قصيدة ابن زيدون الذائعة ومطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فتعكس بقوة ظاهرة مشاركة الشاعر الأندلسي للطبيعة ، وقد تعدلها في هذا الأمر قصيدته « القافية » الأخرى التي نظمها في أحضان ضاحية الزهراء معرباً فيها عن شوقه إلى ولادة . فابن زيدون على عادته يكاد لا يبتعد عن الطبيعة أو يفارقها ، إنه في كل حين يجعل من ربوعها مسرحاً لعواطفه وموئلاً لذكرياته :

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية ... قطافها ، فجنينا منه ما شينا

ليُسقَ عهدكم عهد السرور ، فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

يا ساري البرق غاد القصر واسق به ... من كان صرفَ الهوى والود يسقينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حي كان يحيينا

يا روضةً طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا

ويا حياة تملَّينا بزهرتها ... مُنىً ضروباً ولذاتٍ أفانينا

.. يا جنة الخلد أُبدلنا بسِدرتها ... والكوثر العذب زقوماً وغِسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكادَ لسان الصبح يُفشينا

.. ولو صبا نحونا من عُلْو مطلَعه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا

وعلى هذا الغرار من روائع الشعر دأب ابن زيدون على تصوير مواقفه العاطفية في إطار محبب من محاسن الطبيعة . وقد بلغ من شهرة هذه القصيدة وذيوعها أن نسج كثير من الشعراء على منوالها . كما نعتها غارسيا غوميس دون تحفظ بأنها « أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون ، وغرة من أبدع غرر الأدب العربي كله ... [1] »

* * *

على أن هذه المشاركة بين مشاعر الشعراء ومشاهد الطبيعة بلغت أحياناً حد الاندماج في بعض الشعر الأندلسي . ومن الغريب أن الظاهرتين المتقابلتين اللتين اتسم بهما وصف الطبيعة في الأندلس إنما تتجليان بأبرز ملامحهما وبرغم تناقضهما في نتاج شاعر واحد هو ابن خفاجة . فهذا الشاعر الذي عرف بمنحاه التسجيلي وإيثاره الوصف من خلال عدسة حواسه هو نفسه الذي جنح إلى نظم عدة قصائد تعد فريدة في الشعر العربي من حيث تعبيرها عن ظاهرة الاندماج النفسي والالتحام الصميمي بين عالم الشاعر وعالم الطبيعة [2] . في هذه القصيدة يناجي ابن خفاجة الجبل ويصوره من خلال همومه وأفكاره على نحو غير معهود في كثير من الشعر العربي ، فهو يستهل قصيدته بتصوير كآبة

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ٨٣

(٢) ثمة قصائد ثلاث لابن خفاجة تعد ممثلة لظاهرة الاندماج : الأولى في وصف الجبل والثانية مشابهة لها في الموضوع نفسه ، والثالثة في مناجاة القمر . على أن البائية الأولى التي نحن بصددها أبعد هذه القصائد شهرة

نفسه ووحشتها فيقول[1] :

بعيشك هل تدري أهُوج الجنائب | تخُب برحلي أم ظهور[2] النجائب

فما لحتُ في أولى المشارق كوكبا | فأشرفتُ حتى جئت أخرى المغارب

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي | وجوه المنايا في قناع[3] الغياهب

ولا جار إلا من حسام مصمم | ولا دار إلا من قتود[4] الركائب

ولا أُنس إلا أن أضاحك ساعة | ثغورَ الأماني في وجوه المطالب

وليلٍ إذا قلت قد باد فانقضى | تكشَّف عن وعد من الظن كاذب

سحبتُ الدياجي فيه سودَ ذوائب | لأعتنق الآمال بيض[5] ترائب

فمزقتُ جيب الليل عن شخص أطلس | تطلّع وضاحِ المباسم[6] قاطب

رأيت به قِطْعاً من الفجر أغبشاً | تأمل عن نجم توقد[7] ثاقب

وأرعنَ طمَّاح الذؤابة باذخٍ | يطاول أعناقَ السماء[8] بغارب

---

(١) ديوان ابن خفاجة ٢١٦

(٢) هوج الجنائب : رياح الجنوب الهوجاء . النجائب : مفردها نجيبة وهي الناقة الكريمة

(٣) تهاداني أو تتهاداني : تهديني الواحدة إلى الأخرى . والغياهب : الظلمات

(٤) القتود : مفردها قتد ، وهي أخشاب الرحل . والركائب : مفردها ركوبة وهي الناقة

(٥) الدياجي : جمع الجمع لدجية التي تجمع على دجى وهي الظلمات . الترائب : مفردها تريبة وهي من عظام الصدر

(٦) الجيب : ما تحت فتحة العنق من الثوب . الأطلس : الأغبر ويريد به الأفق الذي بدت ملامح الضوء فيه

(٧) القطع : الجانب . تأمل : تعني هنا تكشف وقد يريد بالنجم الثاقب أي المضيء عطارداً أو الزهرة وهما يظهران في الأفق عند مطلع الفجر

(٨) الأرعن : نعت للجبل المحذوف وهو الشديد البروز والنتوء . الباذخ : الشاهق . الغارب : الظهر

يسد مَهبّ الريح عن كل وجهة ... ويزحَم ليلاً شِهبَه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طَوال الليالي مفكر في العواقب
يَلوث عليه الغيمُ سودَ عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصختُ اليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ، ليلَ السرى ، بالعجائب
وقال : ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتَّل[1] تائب
وكم مر بي من مدلِج ومؤوب ... وقال بظلي من مطي[2] وراكب
ولاطم من نُكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار[3] غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يدُ الردى ... وطارت بهم ريح النوى[4] والنوائب
فما خفْق أيكي غير رجفة أضلع ... ولا نَوح وُرقي غير صرخة[5] نادب
وما غيَّض السلوان دمعي وإنما ... نزفت دموعي في فراق[6] الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب ... أودِّع منه راحلا غيرَ[7] آيب

---

(١) الأواه : المتأوه أي الذي يتأوه حزناً . والتبتل هو النسك والانقطاع إلى العبادة
(٢) أدلج : سار في الليل ، أوب وآب : عاد ورجع . قال يقيل قيلاً وقيلولة ومقيلا : استراح في منتصف النهار وقت الهاجرة ولو لم ينم . المطي ما يمتطى من الحيوان من خيل وابل ونحوها .
(٣) ريح نكباء ورياح نكب : شديدة عاصفة أي تنكبت من مهبها المألوف . المعاطف : الجوانب والأطراف . الغوارب : مفردها غارب ، وهو أعلى الشيء
(٤) النوى : البعد والنأي بعد فراق . النوائب : مفردها نائبة ، وهي ما ينوب المرء من شر وأذى
(٥) الأيك : الشجر المورق الملتف ، مفردها أيكة . الورق : الحمام
(٦) غاض الماء : نزل في الأرض وغاب فيها ، وعكسها فاض ، وغيض الماءَ أو الدمعَ : ذهب به وحبسه . سلاه وسلا عنه سلواً وسلواناً : نسيه وطابت نفسه بعد فراقه
(٧) ظعن يظعن ظعناً وظعوناً : سار وارتحل . آيب : راجع

وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالع أخرى الليالي وغارب
فرُحماك يا مولاي دعوةَ ضارع يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعَني من وعظه كل عِبرة يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى ، وسرَّى بما شجا وكان على عهد السرى خيرَ[1] صاحب
وقلت ، وقد نكَّبت عنه لطيَّة : سلام ، فإنَّا مِن مقيم[2] وذاهب

هذه القصيدة إذن مغايرة لمألوف شعر العرب في الوصف ، بل هي نغم شجي وطريف في شعر ابن خفاجة نفسه ، وما ذلك إلا لابتعادها عن المنحى التسجيلي والنظرة التجزيئية ، ولاتسامها بالنجوى النفسية الأخاذة والاندماج الشديد الذي بلغ حد الاستغراق . وهي بطولها النسبي تنم على مغايرتها من جهة أخرى لأكثر شعر ابن خفاجة الذي بدا في شكل مقطعات أو نحوها وتجلت فيه لوحات أو شرائح مزركشة منمقة من مشاهد الطبيعة .

يستهل ابن خفاجة قوله في الجبل ، واصفاً هيئته وكبر حجمه وعلو غاربه ، ونجده بعد أن أورد باقتضاب معالم هذه الصورة المادية الظاهرة ينعطف إلى تصوير ملامح هذا الجبل من خلال صفاته المعنوية وسماته النفسية دون أن يخرج عن اتساق التصوير في الحالين . فالجبل بكتلته المادية الضخمة من سماته أيضاً الوقار والاتزان ، وهو أيضاً في جثومه وركونه يطيل التفكر ويجيل النظر . وهنا تكتمل لدى ابن خفاجة عناصر الصورة ببراعة حين يخلع

(١) سرى : بدد الحزن وأبعد الهموم
(٢) الطية : الجهة أو الناحية البعيدة ، وأيضاً النية والحاجة . نكب عن الطريق وتنكب : عدل عنه وتنحى وأعرض ، أي ولاه منكبه

على هذا الجبل الوقور الدائب في التأمل زي الشيخ الحكيم المجرب ، ويجعل له من السحاب الداكن عمامة ومن البرق الخاطف ذوائب تداعبها الريح .

ولكن ما أبلغه من حكيم على صمته ، وما أنصحه من متحدث برغم سكونه . كلمات شجية تلامس نفس الشاعر المستغرقة وهي تعبر بأسى عميق عن سنة الكون وطبيعة الحياة ، حيث يتغير كل شيء ويحول كل شيء ، فلا ثبات ولا قرار . تلك هي المأساة ، فكم تلتقي الأضداد من البشر على صعيد واحد ثم لا تلبث أن تغيب في طيات الزمان ، وكم يجتمع شمل الأحبة حقبة من السنين ثم لا يلبث الموت أن يتخطفهم حتى كأنهم ما كانوا .. هذا هو ناموس الكون ، وكل حال يزول . وهذه أيضاً مأساة ذلك الجبل الوقور الصامت ، فلا يغترر أحد بصلادة مظهره وجمود هيئته فان بين جنبيه نفساً جائشة وقلباً خافقاً ، وما اهتزاز أغصانه سوى ارتجاف أضلاعه ، وما هديل أطياره إلا صدى آهاته ونواحه ، وهكذا امتلأت نفسه الصابرة حسرات على اولئك الصحب الراحلين ، حتى لقد يبس العود وجف الضرع ونضب الدمع .

ومن خلال ذلك كله لا تنفك فكرة الفناء تحوم في جواء القصيدة القاتمة . وبوسعنا أن نستشف من بَعدُ نفسية الشاعر المتهدمة ومدى ما كانت ترزح تحته من وطأة الشعور بدنو الأجل . وهكذا وجد مأساته تتجلى في مأساة هذا الجبل ، على الرغم مما قد يبدو من تباين بين ما يتسم به الجبل من صمود وبقاء وما يؤول اليه الانسان من زوال وفناء . لقد حرص ابن خفاجة طوال قصيدته على أن يصور معاناته بطريق غير مباشر متخذاً من الجبل معرضاً لحياته بل حياة كل إنسان في هذا الوجود . وكان التشخيص تبعاً لذلك وسيلة

فنية لازمة لتوليـد عنصر الخيال الذي ران على معظم أبيات القصيدة ، بحيث غـدا عنصر الايهام الذي يؤرجح نفس القارئ بـين حال الشاعر وحال الجبل من مقومات الجودة في القصيدة .

وهكذا فان ابن خفاجة لم يصف جبله وصفاً تقليدياً قائماً على الرؤية الحسية ورصـد الصفات المادية ، وشأنه في ذلك كشأن لامارتـين في وصفـه للبحيرة ، حين انبثت مشاعره وأفكاره في أعطاف الطبيعة الآسرة وحين سرت ملامح هذه الطبيعة الجميلة في نفسه فيما يشبه الحلول الصوفي الذي لا انفصام له .

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن ابن خفاجة حين شرع في نظـم قصيدته هـذه إنما كان تحت وطأة أسى عميق بسبب ما انطوت عليـه نفسه ومشاعره من إحساس حاد بالهرم ودنو الأجل . ولا شك أن ما زاد شعوره هذا حدة هو ما كان يرى اليه من انفراط عقد أصحابه وانفضاضهم من حوله ، بعد أن غيبهم الزمان واحداً في إثر واحد .

ولعل ما يجعلنا نبعد هـذه القصيدة عن فلك الوصف التقليدي ما سبق أن عرفنا فيها من خصائص . وآية ذلك أيضاً أن الشاعر نفسه آثر أن يجعل عنوان قصيدته « في الاعتبار » . وكأنه يخرجها بذلك من غرض الوصف الذي عالجه أغلب الشعراء وفق مفهومهم لهـذا الوصف الذي يقوم على عناصر من الدقة والإحاطة والعناية بالشكل الخارجي الذي تملاه الحواس وتبهر بفتنته المتبـدية . والحق أن ابن خفاجة هنا لا يحرص على إظهار اقتداره على الوصف وبراعته فيـه بقـدر ما يحرص على استبطان نفسه الآسية واستغراقـه في عالمـه الذاتي . ومن هنا لم يبادر الشاعر إلى وصف جبله ، بل إنه لم يبلغه إلا بعـد

أن صور في خمسة أبيات وحشته ومنازع نفسه وقطعه الفيافي ، وبعد أن وصف أيضاً خلال أربعة أبيات أخرى ذلك الليل البهيم وما كان يعتلج في نفسه خلاله من مشاعر شجية وأفكار مضطربة .

في هذا الجو النفسي عرض الجبل لشاعرنا فرآه من خلال ذاته وحاله لا كما تراه عيون الآخرين . وهكذا خلع عليه مشاعره وأعاره أفكاره وأنطقه بما يود هو أن ينطق به ، حتى ليبدو الجبل في خبرته بالحياة خلال عمره المديد ومماناته لحدثان الدهر هو الشاعر نفسه ، وكأن روحه وقلبه وشعوره قد حلت في هيكل هذا الجبل الجاثم منذ الأزل . وهكذا كان الاتساق والاندماج بين الشاعر وبين الجبل ، فكلاهما بلغ من الكبر عتيا وتعاقبت عليه السنون وتوالت أمامه الأحداث ، فاذا هو آخر الأمر وحيد مكتئب يعتبر بالماضي ويأسى على ما فات من سالف الأيام ، فيستعيد الذكرى وينطق بالعظات وينحو منحى الحكمة والاعتبار . وهكذا لم يعد الجبل الآن سوى منطلق لأفكار الشاعر الذي راح يجنح من خلاله إلى التعبير عن دفين مشاعره ومكنون عاطفته . ومن هنا لم يفض ابن خفاجة في وصف هيئة الجبل ومظهره ، لأنه أراد أن ينفذ إلى داخله ليستكنه أسراره ويستنطقه ، فاذا هو إنسان حي آخر نزيد حياته حياة وإنسانيته إنسانية .

ونحن نتساءل آخر الأمر عما إذا كان إسقاط ابن خفاجة لأبياته الثلاثة من آخر القصيدة يضيرها في شيء ، فهذا المقطع الأخير قد يخرج بالقارىء من غمرة الاستغراق الذي هو في حقيقة الأمر نتيجة الاندماج الذي بلغ حد الاتحاد بين الشاعر وبين جبله . وكأني بابن خفاجة قد حرص على أن يجعل لقصيدته

خاتمة يضمنها فكرة الاعتبار . ولكن هذا الحرص من الشاعر على المغزى أوقعه في المباشرة ، وأي طائل في أن يبلغنا الشاعر بعد انتهاء تلك النجوى الأخاذة أن الجبل قد أسمعه من وعظه كل عبرة ؟ ... ومن هنا قد يكون في ذلك أمر نافل أو تحصيل حاصل . وهو من هذه الزاوية يذكرنا بلون من القصص والأخبار التي عرف بها ابن المقفع ومن نحا نحوه ، والتي تتسم بالمنحى المباشر والنزعة التعليمية .

وعمدة الوصف في قصيدة الجبل لابن خفاجة أنه عندما صور الليل في مستهل قصيدته إنما كان يرمي إلى تصوير الرهبة الناجمة عن ظلام الليل وليس الليل نفسه ، كما أنه عندما انعطف إلى وصف الجبل إنما كان يحرص على تصوير الجلال قبل الجمال أي ما يوحيه مرأى هذا الجبل وليس الجبل نفسه . وهكذا لم يكن الشاعر في قصيدته هذه يقصد إلى وصف الأشياء بقدر كان يجهد في تصوير ما تثيره في النفس هذه الأشياء .

وجملة القول إن من أبرز القسمات في قصيدة ابن خفاجة - التي أسماها « في الاعتبار » وذاع شأنها بين المتأدبين باسم « وصف الجبل » - هو ما امتازت به من وحدة الرؤية وشمولها لدى الشاعر ، ثم التجاوب الفكري والتآلف الشعوري بينه وبين الجبل ، في جواء شجية من الكآبة والتشاؤم تلفعت به أوصال هذه القصيدة المتآلفة الأجزاء المتلاحمة الأعضاء . هذه السمات المميزة خليقة بأن تحفز الناقد على أن يصنف هذه القصيدة في عداد أجود الشعر ، ويجعلها من أجمل ما أبدعته قرائح الرومانسيين من أدب .

* * *

هذه الأنماط المحببة من الشعر الذي تتعانق فيه مشاعر الشاعر بمشاهد الطبيعة ليست مع ذلك بدعاً لدى الأندلسيين . فمن هذا القبيل ما ناجى به أبو فراس الحمداني الحمامة الوادعة وهو اسير في بلاد الروم حينما عرضت له وناحت بقربه . أو ما عمد اليه أبو العلاء المعري في مخاطبته الحمامة المطوقة التي غنت له بهديلها الشجي في بغداد وهو ناء عن بلده وأهله ، فوجد غناءها إعوالا . أو ما فاضت به قرائح كثير من شعراء العرب الذين دأبوا على التجاوب العاطفي مع أسراب القطا وظبيات البيد وساري البرق وعاصف الريح ... في أشعار مفعمة بالشوق ، ندية بالحنين .

خصائص شعر الطبيعة

لعل من أبرز ما اتسم به الشعر العربي في الأندلس بصورة عامة ، وشعر الطبيعة فيها بوجه خاص جنوحه إلى التحرر من معاني البداوة التي طبعت شطراً كبيراً من الشعر العربي القديم . ولكن ذلك لم يكن بهين على شعراء الأندلس وبخاصة الأوائل منهم . فقد ظلوا حقبة من الزمان ، وحتى القرن الثالث في بعض الأحيان ، يؤثرون وصف حر الهاجرة ، واتساع المفازة ، ويحرصون على ذكر امتطاء الراحلة وظبيات البيد . ولم يكن بوسع الشاعر الأندلسي أن يشيح بوجهه سريعاً عن طرائق أجداده وأساليبهم ، وأن ينسلخ بقوة عن معانيهم وصورهم . فالشاعر العربي بحكم طبيعته المحافظة وانشداده المستمر إلى أرومته كان دائب التطلع إلى المشارقة ، شديد الوثوق بتراثه ، قوي الاعجاب بجدوده ، إنه كالحصاة الصلدة التي أبت أن تذوب برغم ما غمرتها به المياه الجديدة . ومن هنا كان شعر الفحول مدرسته الأثيرة ، فيها تتخرج شاعريته وعلى منوالها تنتسج قوافيه . كان الشاعر الأندلسي في أول أمره شديد الاتكاء على محفوظه ، على حين كان زاد تجربته الشعورية المتجددة

من التعبير الطريف ضئيلا . ولكن ما كان لمثل هذا الحال أن يدوم بحكم تأثير عوامل البيئة الجديدة ، وظروف الحياة المستحدثة التي طرأت على الشاعر في تلك الربوع الأندلسية . كما أنه لم يكن من اليسير على التيار القديم المحافظ أن يتلاشى ويندثر من قرائح الشعراء نظراً لتأصله في التراث وامتداد جذوره في النفوس . وهكذا تعايش التياران ، القدم والحداثة أمداً طويلاً في الشعر الأندلسي ، ولم يقدَّر أن تكتب لأحدهما الغلبة على الآخر . حتى إنهما كثيراً ما تجاوروا في قريحة شاعر واحد بل خلال قصيدة واحدة . فابن عبد ربه في رقة ألفاظه وعذوبة شعره وخفة بحره لا يلبث حتى يرى نفسه وقد ذكر الجمل في بلاد المياه والأزاهير والبلابل حين قال واصفاً قلبه الأسير المعنَّى :

قيده الحب كما   قيد راع جملا

ولكن كان لا بد للسمة الأندلسية المحلية أن تتجلى كلما ازداد رسوخ أقدام العرب بالأندلس وامتد أجل بقائهم فيها ..

* * *

ولعل أبرز ثمرة من ثمار البيئة الأندلسية الجديدة في الشعر العربي انعطاف هذا الشعر في كثير من نماذجه إلى الطبيعة وتصوير مشاهدها وما كان من تغلغل مظاهرها في كثير من أغراض الشعر الأندلسي .

(١)

وكان من معالم هذا الانعطاف الإقبال على تصوير معالم البيئة الأندلسية المميزة ، وذلك بالاكثار من وصف الغدران والبحار والأنهار والأزهار ،

والأشجار والأطيار ، كما غدا مألوفاً وصف السيل والعاطفة والثلج والبرد ...
ومما قاله ابن خفاجة في وصف موج البحر :

ولجة تَفرَق أو تعشق ... فما تني أحشاؤها تخفق
يسير فيها سائر هاجها ... من الصَّبا مزبده يُقلق
فخلتني في وسطها فارساً ... قُرِّب منه فرس أبلق

وكثيراً ما آثر الشعراء تصوير جواء الأندلس المتقلبة وسماءها الغائمة مما لا نعهد مثله كثيراً لدى المشارقة . وفي ذلك يقول ابن خفاجة واصفاً عاصف برَد :

يا رب قطر جامد حلى به ... نحر الثرى برد تحدر صائب
حصب الأباطح منه ماء جامد ... غشي البلاد به عذاب صائب

كما يقول ابن حمديس في مشهد مماثل :

نشر الجو على الأرض برد ... أي در لنحور لو جمد

وإذا كانت مخيلة ابن حمديس قد صورت له قطرات البرَد الجامدة لآلىء متألقة على جيد الغيد الحسان ، فانه في صورته الجميلة قد اقترب كثيراً من صورة مماثلة للشاعر ابن الرومي حين وصف العنب الزازقي جاعلاً من حباته الوضاءة أقراطاً براقة في آذان الصبايا الحور :

لو أنه يبقى على الدهور ... قرط آذان الحسان الحور

(٢)

وكان للزهر حيز كبير في الشعر الأندلسي يعدل ما كان له من شأن في حياة الأندلسيين عامة . ومن قبل عني شعراء العرب في ربوع جزيرتهم

بوصف أزهار البراري على ندرتها ، فوصفوا نبات الشيح والعرار والرند وتغنوا بنفحاتها الناعشة وشذاها المطر .

ولكن الزهر دخل حياة العرب مع دخولهم في طور الاستقرار والتحضر ، وكان أن بلغ ذلك مدى أبعد في ربوع الأندلس ، حين أولاه الناس عنايتهم وأكثروا منه في حدائقهم وجنانهم وأدخلوه في بيوتهم وقصورهم . حتى بانت الورود والأزاهير تعكس مظاهر البهجة والأنس ، والترف والنعمة ، فضلاً عن طابع العصر المتحضر .

وقد دأب الشعراء على وصف الورد والياسمين والريحان والنّور والبهار والنيلوفر والآس والنرجس والمنثور والبنفسج والخيري والريحان والنمام والجلنار والسوسن ... وكان أن اكتسب شعر الطبيعة من ذلك غزارة ميزته حتى أصبح من أبرز الظواهر التي اتسم بها الأدب الأندلسي .

ومن هذا الشعر قول عبد الملك بن جهور :

قد بعثنا اليك بالنرجس الغض	حكى لون عاشق معمود
فيه ريح الحبيب عند التلاقي	واصفرار المحب عند الصدود

وبلغ من رهافة حس الأندلسيين ورقة حواشيهم أنهم من فرط معاشرتهم للأزاهير والورود باتوا يرون فيها مدلولات أو رموزاً بعينها يعبرون من خلالها بأسلوب غير مباشر عما تنطوي عليه نفوسهم من معان وأفكار ، وإلى مثل ذلك جنح ابن زيدون حين عبر عن المودة العابرة برونق الورد الذي يسرع اليه الذبول ، على حين عنى بزهر الآس وامتداد نضرته استمرار الود والبقاء على العهد :

لا يكن عهدك ورداً إن عهدي لك آس

ومن ناحية أخرى غدا من موضوعات الوصف التي ازداد اهتمام الأندلسيين بها وصف أنواع من الثمار التي تنتج عن بيئتهم من مثل السفرجل والنارنج ، على غرار احتفائهم بأصناف الورد والزهر . ومن طريف هذا الوصف تصوير الوزير أبي جعفر المصحفي لسفرجلة اقتطفها ومسح عنها زغبها ، وفي ذلك يقول [1] :

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك زكي التنفس
لها ريح محبوب وقسوة قلبه ولون محب ، حلةَ السقم مكتسي
فصفرتها من صفرتي مستعارة وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسي
وكان لها ثوب من الزغب أغبر يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرت في يدي من لباسها ولم تبق إلا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها في الكف حَر تنفسي

ومن هذا القبيل وصف أبي محمد بن صارة الشنتريني لثمر النارنج :

أجمر على الأغصان أبدى نضارة به أم خدود أبرزتها الهوادج
أرى شجر النارنج أبدى لنا جنى كقطر دموع ضرجتها اللواعج
كرات عقيق في غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالج

(٣)

وكان من ملامح وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي الايغال في التصوير

---

(١) الأبيات من : الحلة السيراء ، ابن الأبار ١٤٤

القائم على التزيين والتلوين ، جرياً على ما عرف به الأندلسيون من ميل إلى الزخرفة والزينة . فابن عبد ربه الذي نظم من فصول كتابه الكبير عقداً فريداً ووضع في رأس كل فصل من فصوله جوهرة تغاير سائر الجواهر في بهائها وتألقها هو نفسه الذي دأب على تحلية شعره في صدد وصفه للحبيب باللؤلؤ الذي يسبي العقول أو الدر الذي ينقلب إلى عقيق[1] ، وكذلك ما عمد اليه ابن حمديس في مطلع إحدى قصائده حين استدعى منظر البرَد المنتثر على الأرض صورة قلائد الدر التي تطوق نحور الغيد . أو ما دأب عليه ابن خفاجة من تشبيه ألق الماء باللجين وشمس الأصيل بالذهب . وما من ريب في أن هذا المنحى قد بلغ ذروته بعد ذلك في فن التوشيح الذي قام أصلاً على أعمدة التزيين والتلوين .

(٤)

وهذه النزعة الجامحة لدى بعض شعراء الطبيعة إلى التلوين والتزيين في عباراتهم أدت إلى اكتظاظ الصور في جانب كبير من أشعارهم التي حفلت بالتشبيهات والاستعارات ، من هذا القبيل مثلاً قول ابن هانيء :

كأن رقيب النجم أجدل مرقب	يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
كأن سهيلا في مطالع أفقه	مُفارق إلف لم يجد بعده الفا
كأن ظلام الليل إذ مال ميله	صريع مدام بات يشربها صِرفا
كأن عمود الصبح خاقان معشر	من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى

(١) انظر الأبيات وتعليقنا عليها في فصلنا عن ابن عبد ربه

وعلى هذا الغرار يمضي الشاعر ابن حمديس في تصوير حسن الطبيعة بقوله :

فتثنى الغصن سكراً بالندى | وتغنى ساجع الطير غرِدْ
وكأن الصبحَ كف حُللت | في ظلام الليل بالنور عقد
وكأن الشمس تجري ذهباً | طائراً في صيده من كل يد

على أن هذه الظاهرة تتجلى في أقوى وجوهها وأبرز صورها لدى ابن خفاجة ، حيث ينطوي شعره على اكتظاظ في الصور قل أن نجد له نظيراً عند سائر شعراء الطبيعة ، إنه يصف الحديقة بقوله :

وصقيلة الأنوار تلوي عطفها | ريح تلف فروعها معطار
عاطى بها الصهباءَ أحوى أحور | سحاب أذيال الندى سحار
والنَور عقد والغصون سوالف | والجزع زند والخليج سوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى | وشدا الحمام وصفق التيار

ففي هذه الأبيات القليلة نقع في واحد منها على أربعة تشبيهات ، وفي آخر على أربع استعارات ...

وثمة نماذج وافية من شعر ابن خفاجة ومن شعر سواه كابن عبد ربه وابن دراج وابن عمار وابن هانىء ...، مما هو طافح بأمثال هذه الصور على هذا النحو أو ما يقاربه من الاكتظاظ .

على أن ما تجدر ملاحظته أن الأندلسيين لم يكونوا في ذلك بدعاً إذ دأب عدد من شعراء المشرق على إيثار هذا المنحى الفني وجنحوا إلى حشد ما وسعهم حشده من الصور في مقطعاتهم الوصفية من مثل وصف الشاعر

لحسناء تبكي :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً ، وعضت على العناب بالبرد

وتبقى هـذه على كل حال إحـدى الخصائص الـتي عرف بهـا الشعر الأندلسي برغـم جنوح الشعراء في المشرق خـلال القرنين الرابع والخامس إلى الاكثار من اقتناص الاستعارات والتشبيهات ، وإن لـم يبلغوا في ذلك مبلغ الأندلسيين . وفي رأينا أن هـذا المنحى غـير مألوف في شعر العرب ، وحين جنح أبو تمام إلى طلب صورة على هذا النحو وخرج بها عن حـد الاعتدال غدا في نظر الآمدي وكثيرين من متذوقي الشعر في عصر الشاعر وما بعده مارقاً من عمود الشعر العربي . وهكذا فان سعي شعراء الأندلس وراء الصور بقوة ليس في حقيقته سوى سمة تزيد قسمات الشعر الأندلسي بروزاً وملامحه تميزاً .

(٥)

أما وقد بلغ شغف الأندلسيين بالتصوير في شعر الطبيعة هـذا المدى ، فلا بد من تحري الطابع الذي آثروه من خـلال إطارهم النفسي الذي انعكس جلياً في شعرهم .

إن البهجـة والمرح والنشوة والحبور قـد صبغت بألوانهـا الزاهية معظم الصور والمعاني في شعر الطبيعة الأندلسي . ثمة أشعار مغايرة لا تنضوي تحت هـذه الظاهرة ولكنها تؤكدها مع ذلك لقلة نماذجهـا ، من نحو ما قاله ابن حمديس يصف نهراً :

وما هو إلا عـين دمع كأنهـا لطول بكاء ، دهرَها ، لا تُغمّض

أو من نحو ما قاله عثمان بن ابراهيم بن النضر :

ألا يا حمام الأيك مالك باكيا وغصنك نضر والجناب مَريع
تغن ولا تنشج فإلفك حاضر قريب وإلفي غائب وشَسوع
بكيتُ بلا دمع ، وترفضُ مقلتي شآبيبَ ، منها في المصيف ربيع
وقلبك خِلو من تباريح لوعتي وقلبي بلوعات الفراق صريع

إنها حالة من الأسى ولدها الفراق في نفس الشاعر المعنَّى قبل أن تكون وصفاً مباشراً للطبيعة . ويشبهها في ذلك كثير من شعر ابن زيدون في تصوير فراقه لولادة وتشوقه اليها ، فكان أن صبغ الطبيعة بمشاعره الحزينة . وحتى أشعار ابن زيدون هذه في تصويره لأحزانه كانت تنطوي أيضاً على البهجة والفرح في أحضان الطبيعة الجميلة ، فالأفق طلق ، ووجه الأرض رائق ، والماء مبتسم عن مائه الفضي ... وهكذا . ومن هذا النمط الشجي أيضاً نماذج قليلة بل نادرة صدرت عن بعض الشعراء في المشرق وكانت أشبه شيء بنفثات القرائح المحزونة والقلوب المعناة ، لعل أبرزها وصف ابن الرومي للشمس من خلال منازعه وأشجانه ...

وإذا كان الأندلسيون يلتقون مع أولي النزعة الرومانسية في العصور الحديثة على صعيد الطبيعة والارتياح في كنفها ، والأنس بمفاتنها ، فانهم يختلفون عنهم بأنهم إنما آثروا وجهها المشرق ، إذ الطبيعة لديهم ضاحكة أبداً ، والحياة في أحضانها الرحيبة وفوق ربوعها الجميلة بهيجة أبداً .

أما سبب ما طفحت به أشعار الأندلسيين من البهجة والسرور فمرده بالدرجة الأولى إلى العامل النفسي ، إذ كانت نفوسهم مفعمة بمشاعر الرضى

يلفها التفاؤل وتغمرها الطمأنينة فتفيض من ذلك قلوبهم من أنسها على الطبيعة وتضفي على مشاهدها مرحاً وحبوراً . ولم يكن في نفوس الأندلسيين ما كان فيه الرومانسيون في أوروبا بعد ذلك من هم وقلق بسبب ما واجههم العصر به من تجهم الحياة واضطراب المنازع نتيجة وطأة العيش في ظل انقلاب صناعي وطغيان مادي ، فلم يعودوا على وفاق مع طابع الحياة المستحدثة وظروفها الجديدة ، فبدوا ساخطين قلقين . وعندئذ انكفؤوا إلى الطبيعة ينشدون في رحابها السلوان والعزاء ويلتمسون في ربوعها السكينة والرضى .

ومن هنا نستطيع أن نتلمس في هذا الصدد ظاهرة مميزة بين شعراء الأندلس والشعراء الرومانسيين بالنسبة إلى وجه الطبيعة الذي آثروه بالوصف . فعلى حين جنح الرومانسيون إلى الخريف ووصف مشاهده القاتمة كتصور غروب الشمس ونحوها وكل ما ينطوي عليه ذلك من كآبة تلائم نفوسهم المعذبة وأمزجتهم القلقة .. أنس الأندلسيون بالطبيعة وأقبلوا على الجانب البهيج منها يعبون ساعات السعادة والنعيم . وهكذا دأبوا على وصف الربيع وكل ما تنطوي عليه الطبيعة خلال هذا الفصل البهيج من أمل ، وما تبعثه في النفس من غبطة .

من هذا القبيل ما نظمه ابن شهيد في مدح سليمان المستعين [1] :

وأتاك بالنيروز شوق حافز وتطلع للزّور غِبَّ تطلُّع
وافاك في زمن عجيب مونق واتاك في زهر كريم ممتع

(١) ديوان ابن شهيد ، القصيدة ٣٨ ، ص ١٢٥

فانظر إلى حسن الربيع ، وقد جلت | عن ثوب نَور للربيع مجزع

وعلى هذا الغرار مضى ابن الأبار يقول [1] :

لبس الربيع الطلق برد شبابه | وافتر عن عتباه [2] بعد عتابه
ملك الفصول حبا الثرى بثرائه | متبرجاً لوهاده وهضابه
فأراك بالأنوار وشي بروده | وأراك بالأشجار خضر قبابه
أمسى يذهبها بشمس أصيله | وغدا يفضضها بدمع حَبابه

حتى لقد ألف حبيب الحميري في ذلك كتاباً جمع فيه ما قاله الشعراء الأندلسيون في وصف الربيع ومظاهره أسماه : البديع في وصف الربيع [3] . فلا على الشعراء بعد ذلك إن طاب لهم العيش في رحاب الأندلس وراقت لهم الخمرة في جوانبها . لقد آثر الأندلسيون بلادهم الجميلة بالحب ومحضوها الإعجاب واستثمروا في ربوعها السعادة ، حتى لقد فضلها بعضهم كابن خفاجة على جنان الخلد [4] ، وإذا هي في مرآة الجنة نفسها . وهذا أيضاً ما دعا الشاعر ابن سفر المريني إلى أن يصف ربوع بلاده بنشوة عارمة :

في أرض أندلس تلتذ نعماء | ولا تفارق فيها القلب سراء
وكيف لا تبهج الأبصارَ رؤيتها | وكل روض بها في الوشي صنعاء

---

(١) البديع في وصف الربيع لحبيب الحميري ٢٤
(٢) العتبي : الرضى
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، د. احسان عباس ١٩٤ ، وقد عاش المؤلف حبيب في أوائل عهد الطوائف أيام المعتضد بن عباد
(٤) انظر قول ابن خفاجة في الصفحة ٩ من هذا الكتاب

أنهارها فضة والمسك تربتها   والخز روضتها والدر حصباء

(٦)

وإذا كان جانب من وصف الطبيعة قد عانق العديد من أغراض الشعر في الأندلس وغدا ملازماً لأكثر قصائد المديح فان الجانب الآخر من هذا الوصف قد استوى شعراً مستقلاً وأفلح في أن يكون غرضاً متميزاً لا يحتل موضعه بين أغراض الشعر فحسب بل يتبوأ منزلة الصدارة بين هذه الأغراض. لقد شغلت الطبيعة حيزاً كبيراً من اهتمام شعراء الأندلس « وأما المقطعات التي نظموها في وصف صنوف الأزهار فبعضها يمثل (بطائق) المهاداة بين الأصدقاء ، وليس لديهم من غاية سوى طلب الصورة المبتكرة [1] » .

ولعل من أبرز ملامح شعر الطبيعة الأندلسي اتسامه بالغزارة ثم استقلاله في كثير من الأحيان بقصائد خالصة لوجه الطبيعة . ومع أن هذا الشعر على كثرته قد لا يعني بالضرورة تفوقه على نظيره في المشرق إلا أنه يبقى ظاهرة مميزة في الأدب الأندلسي لم يكن لها هذا الشأن في سائر الأدب العربي في المشرق ، حيث كان وصف الطبيعة في معظم الأحيان يعيش على هامش الأغراض الشعرية الأخرى .

وثمة شعراء بأعينهم في الأندلس عرفوا بهذا اللون من الشعر ، أي شعر الطبيعة ، والذين لم يعرفوا به منهم كان للطبيعة أثرها البالغ في سائر أغراضهم وموضوعاتهم وفي صبغ معانيهم وصورهم ، حتى ليمكننا القول أن وصف الطبيعة

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، د. احسان عباس ١٢٢

كان بمثابة وتر طريف شده الأندلسيون إلى جانب الأوتار الأخرى في قيثارة الشعر العربي وعزفوا من خلاله أبهج الألحان .

* * *

رثاء الممالك

تمهيد *

تلك المدائن الجميلة

لم يكن الدهر في غابره يقدّر أن العرب الذين رقدوا طويلاً فوق رمال جزيرتهم سوف يبلغون أقصى المعمورة ويطيرون إلى بحر الظلمات وأنهم سوف يرسمون يوماً ، وبسيوفهم ، خارطة جديدة لذلك العالم القديم . كما لم يكن يدور في خَلَد أحد أن العرب سينطلقون كالصقور من مشارق الأرض لينصبّوا على مغاربها ، وأنهم سيتخذون من ربوع الأندلس القصية وطناً جديداً لهم ، يعمرون أرضه وينعمون بخيره . وها قد عبرت بهم السنون فوق أديم تلك الأرض الفاتنة فاذا هم يزدادون لها حباً وبها التصاقاً ، حتى طاب لهم العيش فيها وراحوا يتغنون بحسنها .

وهكذا راقت « بلنسية » في عين ابن القزاز فأخذ يصف ما حباها به الله

---

* جعلت هذا الفصل في شطرين ، مميزاً بين ما قيل من شعر حول سقوط المدن والدول وتداولها بين العرب أنفسهم من جهة ، ثم ما قيل بصدد زوال الممالك وعودتها إلى حوزة الفرنجة من جهة أخرى . وحرصت جهد المستطاع في الحالين على مراعاة التسلسل التاريخي وعرض الأشعار في إطار الأحداث

من جمال [1] :

بلنسية إذا فكرت فيها ... وفي آياتها أسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عليها ... وأن جمالها للعين بادي
كساها ربها ديباج حسن ... له علمان من بحر ووادي

وكم بسمت الحياة في الرصافة لأبي عبد الله محمد الرصافي فاذا هو يقول بنشوة [2] :

ولا كالرصافة من منزل ... سقته السحائب صوب [3] الولي

ومن طريف ما لحظه المستشرق بالنثيا في هذا الصدد أنه « كان من المألوف عند شعراء العرب في الأندلس الحديث عن المدن كما لو كانت زوجات من البشر .. فعندما فتح المعتمد بن عباد قرطبة قال متحدثاً عنها كما لو كانت غانية جميلة ذات صلف » [4] :

---

(١) الأبيات مستمدة من كتاب « مختارات من الشعر الأندلسي » أ.ر. نيكل ١٤٥

(٢) مختارات من الشعر الأندلسي ، نيكل ١٩٢

(٣) الولي : المطر المستمر لتوالي السحب

(٤) انتقلت هذه الظاهرة إلى الأناشيد الشعبية الاسبانية كما ذكر المستشرق الاسباني آنخل جنثالث بالنثيا . انظر في ذلك كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ٩٨ - ٩٩ ، تعريب حسين مؤنس . ومما جاء فيه من هذا القبيل ما أورده بالنثيا أيضاً حول شخصية اسطورية ، اسم صاحبها ابن عمار وفيها نقرأ :
« وهنا تحدث الملك الدون خوان .. وقال :
إن أردت يا غرناطة تزوجتك ،
وأعطيتك صداقاً قرطبة واشبيلية .
فقالت : إنني متزوجة أيها الملك الدون خوان ، متزوجة ولست بأرملة ، إن العربي الذي يحوزني يحبني حباً عظيماً »

من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءتكم مهرية الدول
خطبتُ قرطبة الحسناء إذ مَنَعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم عدت عاطلاً حتى عرضت لها فأصبحت في سريّ الحَلْي والحُلل
عرس الملوك، لنا في قصرنا عرُس كل الملوك به في مأتم[1] الوجل

ولم يكن أبو عامر بن شهيد يطيق مغادرة قرطبة برغم ما كانت فيه آنئذ من سوء حال، إنه على العهد معها في السراء والضراء، لقد أدمن حب هذه المدينة العريقة فاذا هي أيضاً لديه[2] :

عجوز لعمر الصبا فانيه لها في الحشا صورة الغانيه
ترديت من حزن عيشي بها غراماً، فيا طول أحزانيه

كما لم يحتمل ابن زيدون البعد عن قرطبة، وفيها قضى أهنأ ساعاته وعاش أحلى أيامه، إنه يناجيها بحسرة :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع وهل كبد حرى لبينك تنقع
وهل للياليك الحميدة مرجع إذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
وإذ كنف الدنيا لديك موطأ

لقد ازداد الأندلسيون تعلقاً بأرضهم، حتى إنهم آثروها على مرابع أجدادهم. فغرناطة لدى ابن جبير تفوق دمشق ـ على فتنتها ـ سحراً :

يا دمشق الغرب، هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب عليها

---

(١) قلائد العقيان ١٢ لابن خاقان
(٢) ديوان ابن شهيد ١٦٨، القصيدة ٦٩

بل إن الأندلس لم تلبث أن تألقت في مرأى عاشقيها وغدت جنـة النعيم على هذه الأرض تهفو نفس كل امرىء إلى العيش الهنيء في ظلالها ، على غرار ما تراءت بلدة شقر لابن خفاجة وقد أدركه الكبر :

بـين شُـقر وملتقى نهريهـا ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها
عيشة أقبلت يُشهَّى جنـاهـا ... وارف ظلهـا لذيـذ كراهـا
ما لعيـني تبـكي عليهـا وقلـبي ... يتمـنى سـواده لو فـداها

وإذ يبلغ شغف الأندلسيين بأوطانهم هـذا المدى فلا غرابة ألا يطيقوا العيش بعيداً عن كنفها ، لقد عانى ابن جبير مرارة الفراق ولوعـة الغربة *، وأخذ يقول :

غريب تذكر أوطانه ... فهيَّج بالذكر أشجانه
يحُل عرا صبره بالأسى ... ويعقـد بالنجم أجفانه

ولهذا أمضه البعد ولم يعد يرى شيئاً يعدل الوطن :

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ... ما فارق الأصل ذوى

* هو أبو الحسين محمد بن جبير ، الرحالة المشهور ، توفي سنة ٦١٤ هـ ١٢٢١ م

أ ـ انقلاب الدول

الدهر لا يبقى على حاله ، ولا بد أن يقبل أو يدبر . والمرء خلال ذلك كله كالريشة في مهب الريح . لقد أخذت الأيام تعصف بملك العرب وتحاول اقتلاعه بعد طول العهد ، وكانت آلام وكانت أشجان .

ابن حزم وقرطبة

وحدث أن أحاطت غربان البربر ببلدة الزهراء (سنة ٤٠١ هـ، ١٠١١ م) واقتحمتها على أهلها واستباحت ما فيها وتركتها طعاماً للنيران . ثم انكفأت زاحفة على قرطبة ، ودأبت على محاصرتها حتى تمكنت من أسوارها ، فدخلتها كأنها قطع الليل ، وكان يوم أسود في تاريخ هذه المدينة الباسلة . في ذلك اليوم المشؤوم « كفّرت قرطبة ـ كما يقول دوزي ـ عن مقاومتها المنيدة بسيول عارمة من الدماء »[1] . وقد أعملت السيوف في رقاب أكثر من

(١) Histoire des musulmans ٢ : ٣٠٥

عشرين ألفاً [1] .

وهنا يصف لنا ابن حزم هـذه المحنة في كتابه « طوق الحمامة » فيقول بعبارات مفعمة بالمرارة [2] :

« ولقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة وقـد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، في الجانب الغربي منهـا ، وقـد أمحت رسومها وطمست أعلامهـا ، وخفيت معاهدهـا ، وغيَّرها البلى ، وصارت صحارى مجـدبة بعـد العمران ، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية ، تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا . فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المزينة التي كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهم حسن منظرها ، حين شملها الخراب وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن بفناء الدنيا وتريـك عواقب أهلهـا . وكان ليلهـا تبعاً لنهارها في انتشار ساكنيها والتقاء عمَّارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش . فأبكى عيني ، وأوجع قلبي ، وقرع صفاة كبدي ... » كذلك رثى ابن حزم مدينته شعراً كما رثاها نثراً بعد أن ارتاع لما حل فيها ، وفر من هولها إلى المرية ، ناجياً بنفسه مع الناجين [3] :

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ٤٢ لعبد الواحد المراكشي . وممن قضوا في غمرة هذه المحنة الفقيه سعيد بن منذر : والعالم الكبير ابن الفرضي ...

(٢) طوق الحمامة ٩٤

(٣) أعمال الأعلام ١٠٧ ، لسان الدين بن الخطيب

سلام على دار رحلنا وغودرت خلاءً من الأهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تَغنَ بالأمس بلقما ولا عَمَرت من أهلها قبلنا دهرا
فيا دار لم يُقفركِ منا اختيارُنا ولو أننا نستطيع كنتِ لنا قبرا
ولكنَّ أقداراً من الله أُنفذت تدمرنا طوعاً لما حل أو قهرا
فيا خير دار قد تُركتِ حميدة سقتكِ الغوادي ما أجلَّ وما أسرى

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فانه لمن المفيد أن نشير إلى أن مصاب قرطبة الجسيم إنما يعيد إلى ذاكرتنا خطب البصرة الفادح . فمثلما أصاب البصرة ما أصابها حين اقتحمها الزنج دهى قرطبة ما دهاها على يد البربر . وكما كان هنا الشاعر ابن حزم راثياً باكياً في رائيته ، كان هنالك الشاعر ابن الرومي في ميميته :

ذاد عن مقلتي لذيذَ المنام شغلُها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ما حل بالبصـ ـرة ما حل من هنات عظام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مدلهم الظلام

ابن شهيد وقرطبة

وقدر لابن شهيد صديق ابن حزم ، وكان في إبان شبابه ، أن يشهد تلك المأساة وهو في قلب قرطبة ، فكان عليه أن يرثي مدينته الجميلة بحزن بالغ [1] :

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر
جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر

(١) ديوان ابن شهيد ١٠٩ ، القصيدة رقم ٢٦ وتبلغ ثلاثين بيتاً

فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر
عهدي بها والشمل فيها جامع ... من أهلها ، والعيش فيها أخضر
ورياح زهرتها تلوح عليهم ... بروائح يفتر منها العنبر
والقوم قد أمنوا تغير حسنها ... فتعمموا بجمالها وتأزروا
يا طيبهم بقصورها وجذورها ... وبدورها بقصورها تتخدر
يا جنة عصفت بها وبأهلها ... ريح النوى ، فتدمرت وتدمروا
يا منزلاً نزلت به وبأهله ... طير النوى ، فتغيروا وتنكروا
جاد الفرات بساحتيك ودجلة ... والنيل جاد بها وجاد الكوثر
وسُقيت من ماء الحياة غمامةً ... تحيا بها منك الرياض وتزهر
أسفي على دار عهدتُ ربوعها ... وظباؤها بفنائها تتبختر
أيام كانت عين كل كرامة ... من كل ناحية اليها تنظر
أيام كانت كف كل سلامة ... تسمو اليها بالسلام وتبدر
حزني على سرواتها ورواتها ... وثقاتها وحماتها يتكرر
نفسي على آلائها وصفاتها ... وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها ، حلمائها ... أدبائها ، ظرفائها ، تتفطر

ولم تكن قرطبة مدينة كسائر المدن ولم تكن محنتها يومئذ كسائر المحن : فلا عجب أن يرثيها الكثيرون ويندبوا عهودها الزاهية . ولابن عصفور الحضرمي في رثائها قصائد كثيرة [1] .

---

(١) الصلة ١ : ٣٥ لابن بشكوال ، وانظر تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة ١٤٠ لاحسان عباس

ورثاها شاعر آخر بقصيدة ، منها (١) :

بـكِّ على قرطبـةِ الزين	فقد دهتها نظرة العين
أنظرَها الدهر بأسلافه (٢)	ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها	وعيشها المستعذب اللين
فانعكس الأمر فما إن ترى	بها سروراً بين إثنين
فاغدُ وودعها وسر سالماً	إن كنتَ أزمعتَ على البين

كما رثاها ابن فرج السميسر * بقوله :

وقفت بالزهراء مستعبراً	معتبراً أندب أشتاتا
فقلت : يا زهرا ألا فارجعي	قالت : وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكي وأبكي بها	هيهات يغني الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى	نوادب يندبن أمواتا

كل هذه القصائد ونحوها تكاد تمتح من معين شعوري واحد يتجلى في وجهين متقابلين يحرص الشاعر على إبرازهما وإظهار شدة المفارقة بينهما . أولهما

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب ٣ : ١١٠ لابن عذاري المراكشي ، وانظر الأدب الأندلسي ، من الفتح إلى سقوط الخلافة ٣٩١ لأحمد هيكل

(٢) الأسلاف : مفردها سلف وهو القرض

* هو خلف بن فرج الالبيري المتوفي نحو ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م وكنيته أبو القاسم ، ويعرف بالسميسر ، شاعر هجاء ساخر ، أصله من البيرة وسكن غرناطة . أدرك الدولة العامرية وانقراضها ، وقد قامت في بلنسية خلال السنوات ٤١٢ - ٤٧٨ . انظر مزيداً من التفصيل عنه في ذخيرة ابن بسام : المجلد الثاني من القسم الاول ٣٧٢ . والشعر الأندلسي ، غارسيا غوميس ٥١ ، وأيضاً أعلام الزركلي ٢ : ٣٥٩

حاضر قرطبة بوجهها القاتم ومصابها الفاجع ، وما انطوت عليه من تقتيل وتدمير ، وأسى وحزن .. والثاني سابق عهدها وأيام سعدها ، وما كان ينطوي عليه وجهها المشرق من ليالي الأنس وساعات الصفاء وعهود الأمن والسلام .

ومثل هذا الشعر يزداد جمالاً وتأثيراً في النفس حين يعنى صاحبه برصد جزئيات ما يصف ، سواء ما كان من حاضر المدينة أو من غابرها ، على غرار ما تحدث به ابن شهيد في رائيته عن منزله وداره وأيام أنسه وصفائه إلى حد معلوم وفي وصف غير مسهب . إذ التعميم طابع أكثر هذا الشعر حيث تكاد تختفي اللقطات الجزئية وتضيع الملامح الذاتية للحدث في غمار التفجع الشامل .

وإن ما حل الآن بقرطبة من استباحة وخراب ، سبق أن حل أيضاً بالبصرة في إبان القرن الثالث الهجري ، حين عصفت بها ثورة الزنوج الهوجاء [1] .

وكان لابن الرومي مطولة فريدة في ذلك الحدث ، ومنها قوله :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

أي نوم من بعد ما حل بالبصرة ... ما حل من هنات عظام

دخلوها كأنهم قطع الليـ ... ـل إذا راح مدلهم الظلام

كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهراً بغير اكتتام

---

(1) اقتحمت جموع المتمردين مدينة البصرة سنة ٢٧٧ هـ وكانت من الزنج وسواهم من العبيد الذين كانوا يقيمون في أرض السواد المحيطة بالبصرة . وقد تتباين الآراء في النظر إلى هذه الثورة ، ولكن الذي نجنح اليه هو أن الاستغلال الذي مارسه زبانية الاقطاع تجاه اولئك المستضعفين قد زرع بذور السخط في نفوس هؤلاء الزنوج ومن كان في مثل حالهم فكان حصاد ذلك ، التمرد الجامح ، الذي طغى وتجاوز المدى ، فلم يبق ولم يذر

كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين العظام

بُدلت تلكم القصور تلالاً من رماد ومن تراب ركام

فان الرومي يبدو أكثر اهتماماً بالوقائع وانفعالاً بالمواقف وعناية بتصوير دقائق الأحداث وتفصيلاتها .

المعتمد والعرش الزائل

على أن قرطبة الصابرة ما لبثت أن نهضت من عثرتها وأخذت تكفكف دموعها وتمسح جراحها . فاذا الحياة تدب فيها من جديد ، وتعود الابتسامات ثانية إلى ثغور أهلها .. ويشرق عهد جديد في ظل آل جهور وآل عباد .

ثم لا يلبث الاضطراب أن يعود ليمزق شمل العرب ، ويلوح شبح محنة أخرى تطيح بقرطبة واشبيلية والمرية وطريف ورندة تحت سنابك خيل ابن تاشفين . ففي عام ٤٨٤ هـ تحرك جيش المرابطين وعبر المجاز إلى أرض الأندلس ، وحاصر قرطبة ، وكان عليها الفتح الملقب بالمأمون وهو ابن المعتمد ، ولم تصمد المدينة طويلاً ، وحمل رأس المأمون على الرماح ، كما تلتها اشبيلية حاضرة دولة بني عباد ، ولم تنفع المعتمد شجاعته ولم تجده شيئاً نجدة الأذفونش .

وعلى غرار ما عمد اليه من قبل ابن حزم في وصف محنة قرطبة قبل نحو ثمانين عاماً يعاود الفتح بن خاقان وصف محنتها الثانية وكأن التاريخ يعيد نفسه[1] :

« ولما بدت الفتنة وسال سيلها ، وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها ، نازل المرابطون قرطبة .. فأقاموا عليها شهوراً ، وأرخَوا من محاصرتها والتضييق

(١) قلائد العقيان ٢٠

عليها ستوراً ، يساورونها مساورة الأراقم ، ويبا كرونها بداء من الحصار فاقم .. »

وإذ يصير المعتمد إلى الأسر راسفاً في قيوده وسلاسله ومعانياً في حياته أسوأ حال ، ينطوي على نفسه في أغمات ويستعيد ذكر سالف عزه وتالد مجده . وكان عليه أن يرضى بما قسم الله له من حظ عاثر ومصير يائس بعد زوال ملكه ومصرع أولاده :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا ... وعز نفسك إن فارقت أوطانا

في الله من كل مفقود مضى عوض ... فأشعر القلب سلواناً وإيمانا

أكلما سنحت ذكرى طربت لها ... مجت دموعك في خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد ... بزته سود خطوب الدهر سلطانا

ابن اللبانة وبنو عباد

وفي الوقت نفسه آثر بعض شعراء المعتمد من ذوي الوفاء أن يلحقوا بمليكهم إلى أغمات بإفريقية ليواسوه في محنته ويندبوا فيه العز الزائل والمجد الراحل . وقد أفاض أبو بكر بن اللبانة (الداني) في نظم أشعاره الشجية في إثر ذلك الحدث بعد أن رأى ما آل اليه حال ابن عباد من سوء في منفاه ، فرثى ملكه الداثر في عدد من القصائد ، لعل أجملها قصيدته الدالية [1] :

تبكي السماء بمزن رائح غاد ... على البهاليل من أبناء عباد

وفيها يقول معتبراً بأحداث السابقين :

---

(١) انظر القصيدة في « قلائد العقيان » ٢٥ - ٢٦ للفتح بن خاقان ، وقد سبق أن عرضنا لبعض أبيات القصيدة في صدد كلامنا على المعتمد بن عباد في الصفحة ١٦٠ من هذا الكتاب

إن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا — وقد خلت قبل حمص دار[1] بغداد

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا — سيقوا على نسق في حبل مقتاد

وأنزلوا عن متون الشهب واحتملوا — فويق دهم لتلك الخيل[2] أنداد

نسيت إلا ، غداة النهر كونهم — في المنشآت كأموات[3] بألحاد

والناس قد ملؤوا العبرين واعتبروا — من لؤلؤ طافيات فوق[4] أزباد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها — كأنها إبل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت — تلك القطائع من قطعات[5] أكباد

وابن اللبانة في أبياته هذه يتحدث من قلب مفجوع ويحرص في الوقت نفسه على ابراز الفجيعة في إطارها الجماعي ومدى إحساس القوم بها ، فيصور موكب الحزن مهيباً يتفق وعظمة الملك وجلال الموقف ، إذ الناس محتشدون على شاطىء النهر يرون إلى ذلك الموكب بحسرة وقد انطوى على اولئك الذين هووا من عليائهم ، فاذا هم أحياء ولكن كالأموات ، تحملهم تلك السفن وكأنها

---

(١) حمص : تسمية كان يطلقها الأندلسيون أحياناً على مدينة اشبيلية لنزول جند حمص بها يوم الفتح

(٢) الشهب : مفردها أشهب وشهباء ، أي النجم أو الحصان في لونه شهبة أي بياض . الدهم : مفردها : أدهم ودهماء ، أي الحصان الأسود ، وقد تعني الدهم هنا القيود بسبب لون حديدها القاتم . والأنداد : النظائر والأمثال

(٣) المنشآت : السفن . الألحاد : مفردها لحد وهو القبر

(٤) اعتبروا : بكوا بالعبرات أي بالدموع : والمراد باللؤلؤ هنا الدمع ، والازباد : مفردها زبد

(٥) القطائع : مفردها قطيعة ، وهي القطعة من الأرض وغيرها : وهنا قطعة الخشب أي السفن

النعوش في مأتم صامت كانت الدموع خلاله تتقاطر وتسيل لتختلط بمياه النهر الكبير ، ذلك النهر الحزين .

والحق أن ابن اللبانة في طليعة الذين أخلصوا لآل عباد وانطووا على عاطفة الوفاء تجاههم . ويعد من أبرز من عنوا بهذا اللون من الشعر الحزين ، رثاء الممالك . وله أيضاً من هـذا القبيل قصيدة أخرى ذائعـة هي تائيته الـتي يقول فيها :

لـكل شيء من الأشياء ميقات	وللمـنى من مناياهن غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس	ألوان حالاته فيهـا استحالات
فانفض يديك من الدنيا وساكنها	فالأرض قد أقفرت والناس قدماتوا
وقل لعالمها الأرضي قد كتمت	سـريرة العـالم العـلوي أغمات
لهـفي على آل عباد فانهـم	أهلة ما لهـا في الأفـق هالات

وواضح أن الحـكمة تلف معظم القصيدة حيث تبدو ملامح أبياتها مغايرة لمعهود المراثي وإن دأبت على التهويل (.. فالأرض قد أقفرت ، والناس قد ماتوا) على غرار ما اعتاده شعراء الرثاء . وهذه المرثية لملك بني عباد الزائل وسعدهم الآفل إنما تنطوي على أنين خافت وحزن دفين ، بحيث تتطامن فيهـا نبرة التفجع ورنة البكاء . ولعل مرد هذا النفس الهادىء عنـد ابن اللبانة أنه نظم قصيدته بعد أمد من الإطاحة بالمعتمد ونهاية ملكه حين لم يعد ذلك الجرح نديا والحدث صارخاً ، وآنئذ تخمرت الأحزان في نفس الشاعر فغدت أنيناً مكتوماً ، وجفت الدموع في عينيه فأصبحت أسى دفيناً ، وهكذا أتيح للذهن الآن أن

يفلسف الألم وأن يكون من كل ذلك هذا المزيج المحبب الذي تجلى في أبيات الحكمة التي علت بشمولها فوق الحدث وتجاوزت حدود الزمان المكان .

* * *

وقد أصبح تهاوي المدن أمراً مألوفاً بعد غروب شمس القرن الرابع ، كما أصبح رثاؤها موضوعاً مطروقاً لدى شعراء الأندلس . ومن هذا القبيل ما قاله أبو عبد الله بن الحداد * يرثي مدينة « تدمير » وما حاق بأهلها من ضيم : [1]

يا غائباً خطرات القلب تحضره	الصبر بعدك شيء لست أقدره
تركتَ قلبي ، وأشواقي تفطره	ودمع عيني ، وأحداقي تحدّره
لو كنت تبصر في « تدمير » حالتنا	إذاً لأشفقتَ مما كنت تبصره
أخفي اشتياقي وما أطويه من أسف	على « المرية » والأنفاس تظهره

ابن عبدون وبنو الافطس *

وهكذا أفلت نجوم ملوك الطوائف بعد أن أخذت تطيح بعروشهم

---

* هو محمد بن أحمد بن عثمان القيسي ، له ديوان شعر مرتب على الحروف . أصله من وادي آش Guadix ، سكن المرية Almeria واختص بالمعتصم بن صمادح فأكثر من مدحه ، ثم سار إلى سرقسطة Saragosse فأكرمه المقتدر حاكم الدولة الهودية ثم ابنه . توفي سنة ٤٨٠ هـ ، ١٠٨٧ م

(١) مختارات من الشعر الأندلسي ١٣٧ لنيكل

* ابن عبدون هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري ، وكنيته أبو محمد ، عرف بذي الوزارتين إذ استوزره بنو الأفطس في بطليوس إلى انتهاء دولتهم . وقد ولد في يابرة وفيها توفي سنة ٥٢٩ هـ ، ١١٣٤ م . وكان كاتباً مترسلاً وعالماً بالتاريخ والحديث . وبعد وفاة صديقه المتوكل حاكم دولة بني الأفطس انتقل إلى كنف المرابطين حتى آخر حياته

جحافل المرابطين ، واحداً في إثر واحد . لقد سقطت اشبيلية ثم قرطبة ودالت دولة العباديين عام ٤٨٣ هـ . ولم تلبث أن أعقبها سقوط بطليوس حاضرة بني الأفطس عام ٤٨٧ هـ ، فطويت صفحة أخرى من ذلك العهد . وقد كان تأثير هـذا الحـدث بالغاً في نفس رجل ذي شأن في سياسة الدولة الأفطسية فضلاً عن منزلته الأدبية الرفيعة وهو الشاعر ابن عبدون ، حتى لقد استفاضت شهرة قصيدته الرائية في هذه المناسبة الحزينة وعدت درة شعره [1] ، ومنها قوله :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر	فما البكاء على الأشباح والصور
فلا تغرنك من دنياك نومتها	فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي ؟ أقال الله عثرتنا	من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة	منا جراح ، وإن زاغت عن البصر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها	لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر
هوت بـ « دارا » وفلت غرب قاتله	وكان عضباً على الأملاك ذا [2] أثر

(١) قال عبد الواحد المراكشي في وصفها أنها « قصيدته الغرا ، لا بل عقيلته العذرا ، التي أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الألباب فعل الخمر ، فجلت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديمها بابل وجرير .. » . وقد شرحها عديدون منهم ابن بدرون واحتفى بها ابن خاقان ولسان الدين .

وقد أورد بالنثيا في كتابه « تاريخ الفكر الأندلسي » الذي عربه حسين مؤنس ١١٩ أن فانيان نقل القصيدة إلى الفرنسية ، وعنه نقل يونس بويجيس مقتطفات منها إلى الاسبانية

(٢) يحمل ثلاثة من أكاسرة الفرس اسم دارا أو داريوس ، ولعل المقصود هـو داريوس الثالث الذي هزمه الاسكندر المقدوني وقتله في معركة أسوس سـنة ٣٣٣ ق.م . الغرب : الحدة . العضب : السيف

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من[1] أثر

بني المظفر ، والأيام ما برحت ... مراحلاً والورى منها على سفر

سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثله ليلة في مقبل العمر

من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر

من للبراعة أو من لليراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

أو دفع كارثة أو ردع آزفة ... أو قمع حادثة تعيا على القدر

أين الإباء الذي أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر

أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحد منها على كدر

كانوا رواسي أرض الله ، منذ نأوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم[2] تقر

كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ، ... هذي الخليقة يالله ، في[3] سدر

هذه القصيدة الذائعة تنطوي منذ مطلعها وفي أكثر أبياتها على الاعتبار بالماضين . وقد مضى ابن عبدون يذكر فيها الدول والأسر والملوك والقادة الذين عدت عليهم صروف الدهر حتى وصل إلى بني الأفطس ، وهم الذين دالت دولتهم ، فنظم فيهم قصيدته وراح يندب خلالها ما جرته عليهم يد الحدثان . والمغزى الذي رمى اليه الشاعر من ذلك هو ابراز طبيعة الحياة وسنة الكون من حيث إدبار الدنيا وغلبة الفناء . ويبدو أن هذه الفكرة راقت ابن عبدون فراح يتقصاها عبر قصيدته من خلال أمثلة كثيرة كان خلالها يستنطق أخبار

---

(١) ساسان : أحد أسلاف اردشير الاول مؤسس الاسرة الساسانية التي حكمت الامبراطورية الفارسية حتى فتح العرب يوم القادسية

(٢) وقر الشيء في مكانه يقر وقراً كوعد : جلس وثبت

(٣) السدر : الحيرة والتيه ، وهو الدوار الذي يصيب راكب البحر

الماضين دون أن تخرج في معظمها عن أصل ما كان يبغيه من وراء هذه الفكرة فكرة الاعتبار . ومن هنا كانت القصيدة معرضاً لأحداث التاريخ الكبرى مما استدعى شروحاً وتعليقات وافية من قبل الكثيرين في القديم . كما كانت القصيدة معرضاً آخر لبراعة الشاعر الأسلوبية حين سعى إلى المجانسة بين الجارحة والجراح ، والبراعة واليراعة ، وإلى المطابقة بين العين والأثر ، والنفع والضرر ، وإلى الترصيع بين الأعنة والأسنة ، والكارثة والآزفة ... وغير ذلك مما يجعل حظ رائية ابن عبدون من المعارف والزخارف أكثر من حظها من الأخيلة والعواطف .

وقد درس المستشرق « دوزي » شروح قصيدة ابن عبدون وبخاصة « شرح ابن بدرون » الذي تولى هو نشره ، فرأى أن ما قيل من تقريظ في هذه القصيدة مبالغ فيه كل المبالغة ولا يتفق مع حقيقتها ، وقال [1] « إنما نجد في هذه المرثية - إلى جانب بعض أبياتها ذات المعاني المبتكرة الموفقة - نجد براعة عظيمة . وإن التبحر في العلم ليتجلى فيها على نحو يفيض فيضاً ، ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل قصيدته مجرد صرخة محزون يعبر عن لوعته الصادقة العميقة ، في أبيات ذات جرس جميل ، وإنما مضى يستعرض كبار الرجال الذين أخنى عليهم الدهر ، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان ، ويقدم لنا نبتاً منظوماً بمصائب الدهر - من عهد دارا ملك الفرس إلى أيام بني الأفطس أصحاب بطليوس - في أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين ، وهو يجهد القارىء ويبعث إلى نفسه الملل بما يلجأ اليه من

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، آنخل جنثالث بالنثيا ، تعريب د . حسين مؤنس ١١٩ - ١٢٠

اللعب بالألفاظ وما يستعمله من الأخيلة العسيرة التصور . إننا لا نجد أنفسنا أمام قصيدة تثير كوامن الشاعر ، وإنما خيال عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة » .

والحق أن ابن عبدون لم يألم ألماً صادقاً لما حل ببني الأفطس ، ومصداق ذلك أنه دخل بعد ذلك في خدمة المرابطين وعاش في ظلالهم إلى آخر حياته [1] والبون شاسع بين هذا الحزن الفاتر المصطنع ، وبين العواطف الصادقة المؤثرة التي تتجلى في قصائد المعتمد بن عباد الأخيرة ، أو في سائر ما نظمه فيه ابن اللبانة وابن عبد الصمد ...

* * *

لوم وتقريع :

كان المرابطون في حقيقة الأمر هم الذين بادروا إلى ملء الفراغ الذي نجم عن ضعف حكم الطوائف ، فقد أعادوا إلى البلاد وحدتها تحت سلطانهم بعد أن تصدوا للاسبان وخضدوا شوكتهم وقطعوا عليهم سبل مطامعهم . وعلى الرغم من أن أناساً كثيرين شعروا بالأسى على تلك الدويلات الزائلة ورثوا حواضرها وبكوا أمراءها ... فثمة أناس في مقابلهم لم ترق لهم حال البلاد في تناحرها وتشتت شملها ، وكان يحز في نفوسهم ما آلت اليه أمور هذه الدول . غير أن صوت هذه الفئة لم يكن عالياً إذا قيس بما كان منه لدى الذين نعموا

(١) دخل ابن عبدون في خدمة الأمير اللمتوني سير بن أبي بكر بعد زوال ملك بني الأفطس ، انظر في ذلك تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ، ١٢٠

حيناً من الزمان بحلاوة عهد الطوائف وحسبوا أن الدنيا سوف تظل مقبلة على بلاد الأندلس في ظل التصارع والتجزئة ، ولهذا قل أن وقعنا في هذه المرحلة على نغمات الامتعاض ونداءات التحذير إلا فيما ندر .

وحين دالت دول الطوائف ودانت الأندلس للمرابطين أخذ بعض الناس يستشعرون الثقة ويتفاءلون بالخير في ظل حكم عربي مهيب بدا لهم أنه قادر على حمايتهم من الغزاة المتربصين في الشمال ، من هذا القبيل قول أبي الحسن ابن الجد من قصيدة يمدح بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويذكر ملوك الطوائف الذين أطاح بهم :

أرى الملوك أصابتهم بأندلس	دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح	يحدو به مُلهياه الناي والوتر
فقل لمن نام : أصبحت ، انتبه ، فلقد	مضى بك الليل نحباً وانقضى السحَر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يدَي ملك	في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ	كما رعاها بطرف ساهر عمر

مثل هذا المنحى مغاير لأكثر الشعر الذي قيل بصدد سقوط العروش وزوال الدول . فعلى حين دأب الشعراء في الأندلس على رثاء الممالك وندب الملوك وبكاء العز الراحل والسعد الآفل ... يجنح هذا الشاعر إلى تعليل تلك الأحداث دون أن يكتفي برصدها وتصوير صداها في نفسه . فهو يرى أن ما حل بأولئك الملوك وما صارت اليه دولهم كان نتيجة طبيعية لمسلكهم الشائن عندما نبذوا تبعات الحكم وراء ظهورهم وانغمسوا في الشهوات ، وهكذا أضاعوا

البلاد من حيث لا يحتسبون وهم بين الكاس والوتر .

وشبيه بهـذا المنحى اللائم المؤنب في مغايرته المـذهب النادب النائح ما نظمه شاعر مجهول من أبيات أخر ، فهو أيضاً يلقي اللوم فيما آلت اليه الأمور بالأندلس على الأندلسيين أنفسهم . بل إنه يقرّع أهل قرطبة ويتهمهم بتقصيرهم في تدبـير أمورهم ، وتهاونهم في درء الأخطار عنهـم ، فدارت عليهـم الدوائر وكان ذلك لهم جزاء وفاقاً [1] :

أضعـتم الحزم في تدبـير أمركم	ستعلمون معاً عقبي البوار غـدا
لكن سبل العمى أعمت بصائركم	فألبستكم ثياباً للبلى جـددا
يا أمـة هتكت مستور سوءتها	ما كل من ذل أعطى بالصّغار يدا

(١) وردت الأبيات في « البيان المغرب في أخبار المغرب » ٣ : ١١٠ لابن عـــذاري المراكشي

ب - زوال الممالك

ذاك طور من حياة العرب المضطربة في الأندلس ، حين كان حال دويلاتهم على أرضها كحال الشهب في سمائها ، لا تكاد تلتمع في الأعالي حتى تتهاوى إلى الحضيض . وكم كان بعضهم يغيرون على بعض ، ليوسعوا ملكهم ويزيدوا سطوتهم ، ثم لا يكون من جراء ذلك سوى تساقطهم واحداً في إثر واحد تساقط أحجار الشطرنج فوق تلك الرقعة الدامية . كما لم يكن سكان الحواضر والمدن يحصدون من هذا التفاني سوى المحن والآلام ، تلك المحن والآلام التي جللت القصائد بالسواد وبللت قوافيها بالدموع .

ومع أن اولئك الحكام العرب كان بأسهم بينهم شديداً وأن بعضهم لم يكونوا يتورعون عن استصراخ الأعاجم لينصروهم على بني جلدتهم فان الزمام ظل في غالب الأحيان بأيديهم . وما كان لمثل هذا الحال أن يضمن استمرار الوجود العربي في الأندلس ويعصمه من الزوال . فتلك اللعبة الخطرة لعبة الغزو والكر والفر التي مارسها الحكام المغامرون فيما بينهم والتي كانوا يتداولون خلالها الممالك ، لم تلبث بعد حين أن انقلبت عليهم ، فلم تعد تلك المدن

والحواضر تذهب من أيدي العرب إلى أيدي العرب بل إنها الآن ، وفي طور الأفول أخذت تخرج من أيدي العرب لتعود إلى حوزة الاسبان ، اولئك القوم الذين ما فتئوا يدأبون في استخلاص أرضهم بعد ما أغراهم من تفرق العرب وضعفهم مثل الذي أغرى بهم العرب من قبل ، يوم الفتح .

ابن العسال وبربشتر :

كانت أولى تلك الكوارث التي نزلت بعرب الأندلس سقوط مدينة (بربشتر) سنة ٤٥٦ هـ بيد الأردمانيين (النورمانديين) ، وذلك في إبان عهد الطوائف . ومع أن هذا الحدث ينطوي على أهمية بالغة لأنه كان بمثابة انذار لحكام الأندلس من مثل آل عباد وآل جهور فانه لم يلق لديهم أية استجابة ، على حين كان أثره بعيداً في نفوس كثير من الأندلسيين الذين استشعروا بالخطر وتنادوا لدرئه قبل استفحاله [١] ، ولكن هيهات ، إذا لم يكونوا يملكون من الأمر شيئاً . فقد أثارت تلك الحادثة مشاعر الفقيه ابن العسال اليحصبي [٢] وكان مما قاله يومئذ [٣] :

ولقد رمانا المشركون بأسهم	لم تخط لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها	لم يبق لا جبل ولا بطحاء

(١) انظر صدى سقوط بربشتر في الشعر والنثر كتاب تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف المرابطين ١٧٨ – ١٨٢ د . احسان عباس

(٢) ورد اسمه في كتاب مختارات من الشعر الاندلسي ١٩٩ لنيكل على أنه أبو العسال ، أو أبو الغسال

(٣) الروض المعطار ٤٠ ، الحميري

جاسوا خلال ديارها فلهم بها | في كل يوم غارة شعواء
بانت قلوب المسلمين برعبهم | فحماتنا في حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يُرحم به | طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من أمه | فله اليها ضجة وبُغاء
ولرب مولود ، أبوه مجدل | فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة | قد أبرزوها ما لها استخفاء

على أن القصيدة تعاني من وطأة النظم التي عرف بها شعر الفقهاء والعلماء ، وهي تعتمد على السرد ومحاولة رسم المأساة بألفاظ مكرورة ، مثل الرضيع والطفل والأم والأب والعذراء والشيخ .. دون أن يكون ذلك مرتكزاً إلى تصوير حي وأسى عميق . ومع ذلك فان في هذه اللفتة مدعاة إلى الاكبار ، لأنها صيحة مبكرة أمام الخطر الداهم برغم أنها كسواها كانت صيحة في واد .

ابن حمديس وصقلية :

ثم لا يلبث النورمانديون بضع سنين حتى ينقضوا على جزيرة صقلية [1] موطن ابن حمديس ، ويغدو العرب من ذلك في وضع عسير ، إذ لم يكن لهم قِبل بمواجهة الغزاة ، فتشتد نقمة الشاعر على ما آل اليه حال قومه ، ويقول [2] :

ولو أن أرضي حرة لأتيتها | بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضي ، كيف لي بفكاكها | من الأسر، في أيدي العلوج الغواصب

(١) حكم العرب جزيرة صقلية قرابة قرنين ونصف (٢١٩ - ٤٦٤ هـ)
(٢) مختارات من الشعر الاندلسي ، ١١٨ للمستشرق نيكل

وقد حز في نفس الشاعر ما كان فيه قومه من تصارع واحتراب ، وكأنه يشير إلى تبعة ما آلت اليه بلاده بسببهم ويتساءل عن حال أهلها بمرارة :

أحين يعاني أهلها طوع فتنة ... يضرِّم فيها نارَه كلُّ حاطب
ولم يرحم الأرحام منهم أقارب ... تروِّي سيوفاً من نجيع أقارب

وهنا يطيب لابن حمديس أن يلتفت إلى الوراء ليجد قومه في سابق عهدهم وقد اشتدت منهم العزائم وسارت في ركابهم الأمجاد ، وكأنه بذلك يهيب بالمتقاعسين أن يذودوا عن حقيقتهم ، ولعله كان يجد في الوقت نفسه خلال تلك الأيام السالفة عزاء لنفسه :

إذا ضاربوا في مأزق الضرب جردوا ... صواعق من أيديهم في سحائب
تخب بهم خيل يطيل صهيلَها ... بأرض أعاديهم نياحُ النوادب
يموتون موت العز في حومة الوغى ... إذا مات أهل الجبن بين الكواعب

ثم لا يلبث أخيراً أن يغلبه الحنين إلى وطنه وما كان فيه من جهاد عاثر فيتحرق شوقاً للقائه :

أحن حنين النيب للموطن الذي ... مغاني غوانيه اليه جواذبي
ومن يك أبقى قلبه رسمَ منزل ... تمنى له بالجسم أوبة آيب

ولكن هيهات ، فما كل ما يتمنى المرء يدركه ، إذ لا تلبث الأحداث حتى تتسارع ، ويقذف بعرب صقلية إلى البر الافريقي ، فيكون لذلك رنة أسى عميق في النفوس عبر عنها ابن حمديس بلوعة ، وراح يناجي مرابع صباه بحسرة . لقد تجرع الحقيقة المرة وأدرك أنه وقومه قد فقدوا تلك الأرض إلى

الأبد . أما وقد استحال عليه الإياب بسبب الواقع المتجهم فلا عليه أن يقنع من ذلك عن طريق التخيل الحالم [1] :

ديار تمشت اليها الخطوب ... كما تتمشى الذئاب ضِراء
صحبت بها في الغياض الأسودَ ... وزرت بها في الكناس الظباء
وراءك يا بحرِ لي جنة ... لبستُ النعيم بها لا الشقاء
فلو أنني كنت أعطى المنَى ... إذاً منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقاً ... إلى أن أعانق فيها ذُكاء

ابن العسال وطليطلة :

ولا يمضي حين من الزمان حتى تحل بأهل الأندلس كارثة أدهى وأمر عندما سقطت طليطلة سنة ٤٧٨ هـ بيد ألفونسو . ويكتسب هذا الحدث أهميته البالغة لأن طليطلة مدينة كبيرة ومن أشهر حواضر الأندلس ، ولأنها فضلاً عن ذلك كانت عاصمة مملكة القوط في اسبانيا قبل الفتح العربي . ومن هنا كان رد الفعل العربي يتناسب مع مغزى ذلك الحدث حين أدرك المعتمد خطورة الوضع ، وحين هرع يوسف بن تاشفين إلى نجدته ، وما كان من أمر معركة الزلاقة المظفرة ، ثم ما آلت اليه الأمور بعدئذ من تحول تاريخي كبير أدى إلى دخول الأندلس في حوزة المرابطين .

ومرة أخرى نسمع صوت الزاهد ابن العسال اليحصبي وقد مضى على صيحته السابقة نحو اثنتين وعشرين سنة « وطليطلة بلده ومسقط رأسه ، ومنها

(١) انظر القصيدة في كتاب « مختارات من الشعر الاندلسي » ١١٨ للمستشرق نيكل

أخرج عندما استولى عليها الروم . ولكن صوته في هذه المرة غريب أجش في الأسماع ، لأنه بدلاً من أن يبكي على ما حل ببلده ، يحذر الأندلسيين من الإقامة في بلدهم ويدق لهم ناقوس الخطر ويقول لهم الرحيل الرحيل » [1] :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط

ويعلق إحسان عباس أيضاً على هذه الأبيات بقوله [2] : « ولو كنا نحاسب ابن العسال حسب ظاهر كلامه لقلنا إنه قد آثر موقفاً انهزامياً ، ودعا فيه قومه إلى الجلاء عن أوطانهم لأن طليطلة سقطت ، وهي في وسط البلاد ، والثوب إذا نسل من وسطه فقد انتهى أمره . ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يومئذ مبالغة في التنبيه والتذكير » .

شاعر وطليطلة :

ولعل أبرز ما قيل من شعر في أعقاب سقوط طليطلة بيد الاسبان قصيدة مطولة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً أثبتها صاحب نفح الطيب دون أن يذكر اسم صاحبها ، إنه يناجي المدينة الحزينة بهذا المطلع :

لثكلك كيف تبتسم الثغور سروراً بعدما يئست ثغور

(١) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ١٨٣ د . احسان عباس . والأبيات الثلاثة واردة أيضاً في كتاب مختارات من الشعر الأندلسي ١٩٩ لنيكل
(٢) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ١٨٣ د . احسان عباس

وفيها يقول ذلك الشاعر المجهول :

طليطلةٌ أباح الكفر منها	حماها ، إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى	ولا منها الخورنق والسدير
محصنة ، محسنة ، بعيد	تناولها ، ومطلبها عسير
ألم تك معقلاً للدين صعباً	فذلله كما شاء القدير
لقد قصمت ظهور حين قالوا	أمير الكافرين له ظهور

وهذه الأبيات لا تكاد تختلف في مضمونها عن معهود رثاء الممالك من تفجع على حسنها وإشادة بسالف أمجادها ومقابلة بين غابرها الزاهر وحاضرها العاثر ، وهي على أية حال تتسم بالسلاسة والتدفق . أما سائر أبيات القصيدة فتنطوي على نغم مغاير حين يعتزم ذلك الشاعر مواجهة الأزمة ويعمد إلى تفنيد الروح الانهزامية التي فشت لدى بعض ضعاف النفوس ممن تحدث عنهم وروى ذرائعهم بقوله :

كفى حزناً بأن الناس قد قالوا :	إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها	وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسناً	نباكرها فيعجبنا البكور
ويؤكل من فواكهها طري	ويشرب من جداولها غير
وظل وارف وخرير ماء	فلا قَر هناك ولا حَرور

وعلى هذا الغرار يمضي الشاعر المجهول في إيراد حجج اولئك القوم الذين آثروا عيش التخاذل وارتضوا حياة الدعة في ظل الاحتلال البغيض كالهررة

الأليفة في حمى أسيادها ، حيث يؤدون الجزية للاسبان في كل شهر ويدفعون اليهم بعشر محصولهم في كل صيف وهم في كل حال صاغرون :

يـؤدى مغرم في كل شـهر ويؤخـذ كلَّ صائفـة عُشور
فهم أحمى لحوزتنا ، وأولى بنـا ، وهمُ المـوالي والعشير

لقـد ذهب اليقين فـلا يقين وغر القـومَ بالله الغـرور
رضوا بالرق ، يا لله ، ماذا رآه وما أشار بـه مشير

وتكاد معظم أبيات الشاعر في قصيدته تمضي على هذا الغرار من التنديد والتقريع ، ولكنه في تنديده وتقريعه لا ينتهي إلى التثبيط والتيئيس بل يرمي إلى الحض والاستنهاض ، حتى إن ذلك يبلغ به حـد التصدي وطلب المقاومة ولو كان في ذلك الموت :

وموتوا كلكم فالمـوت أولى بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصـبراً بعـد سبي وامتحان يـلام عليهما القلب الصبـور

وكما ينبجس الماء من الصخر وينبلج الصبح من الليل يفتح الشاعر كوة لأشعة الأمل في نفسه ويتفاءل بالنصر في أحلك ساعات المحنـة ، مستمداً ذلك من ثقته بنفسه وإيمانه بربه :

ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم ، إنه نعم (١) النصير

ولعل من الخصائص المميزة في هـذه القصيدة أنها بعيـدة عن النواح والتفجع

---

(١) القصيدة كاملة في نفح الطيب ، وتبلغ ٧٢ بيتاً . انظر أيضاً جانباً منهـا في كتاب تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ١٨٤ ـ ١٨٥ د . احسان عباس

طافحة بالتحضيض والاستنفار ، وهي في الوقت نفسه بريئة من النزعة الغيبية التي دأب على التعلق بأهدابها عدد من الشعراء حين كانوا يُرجعون أسباب نكباتهم إلى معصية الخالق وانصرافهم عما فيه مرضاته فكان أن باؤوا بغضب من الله . ومن هنا يمكن نعت هذه القصيدة بالمنحى الواقعي ، إذ انتسجت عباراتها من كلام أناس بعينهم ، في مكان محدد وفي حقبة معلومة ، حتى إن الأبيات في خصوصيتها وأصالة تجربتها لا تكاد تنسحب على أحداث أخرى مماثلة أو تقارب قصائد أخرى مشابهة .

الوقّشي وطليطلة وبلنسية :

وقد عانى شرقي الأندلس من بطش السيد القمبيطور ما عاناه في ذلك الحين غربيها من فتك الفونسو (الأذفنش) . وثمة شاعر ناثر من وجوه أهل بلنسية في شرقي الأندلس اسمه أبو عبد الله محمد بن علقمة الصدفي [1] ، ألف كتاباً قص فيه أخبار بلده بلنسية في أيامه ، ووصف ما حاق بها من البلاء على يد القمبيطور [2] ، وقد أسماه « البيان الواضح عن الملم الفادح » وحين تحول « السيد » إلى سرقسطة قام الفقيه الشاعر هشام الكناني الملقب بالوقّشي * على

(1) عاش بين ٤٢٨ - ٥٠٩ هـ ، ١٠٣٦ - ١١١٥ م

(2) تاريخ الفكر الأندلسي تأليف بالنثيا تعريب حسين مؤنس ١١٦

* هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام . عاش خلال (٤٠٨ - ٤٨٩ هـ ١٠١٧ - ١٠٩٦ م) وقد ولد ببلدة وقش Huecas من أعمال طليطلة ، وتولى القضاء في طلبيره Talvera أعمال طليطلة أيضاً ، وتوفي بمدينة دانية . وهو كاتب قاض ، مهندس أديب ، له شعر جيد . وللمؤرخين ثناء عليه . وقد ألح أهل بلنسية عليه في أن يكلم لهم القاضي أحمد بن جحاف - رئيس البلد إذ ذاك وزعيم ثورتها ←

هذا الحصار المروع . ولم نجد الأصل العربي لهذه المرثية ، ولكننا وجدنا صوراً لها مكتوبة بحروف لاتينية .. وقد كان لهذه القصيدة وقع شديد على قلوب البانسيين فصاروا يرددون قول صاحبها » :

« إذا أنا مضيت يميناً هلكت بماء الفيضان »

« وإذا ما ذهبت يساراً أكلني السبع »

« وإذا مضيت أمامي غرقت في البحر »

« فاذا ما التفت ورائي أحرقتني [1] النار »

وبلوعة بالغة يأسى الوقشي على ما حل ببلاده ويتساءل بحسرة :

ألا ليت شعري هل يَمُد ليَ المدى فأبصر شمل المشركين طريدا

ابن خفاجة وبلنسية :

وكانت بلنسية عاصمة شرق الأندلس الكبرى قد ذاقت الأمرين على يد

← فى الاتصال بالقمبيطور وتسليم البلد له على شروط ، ففعل ، وأسلم البلد ، وأقيم الوقشي قاضياً له . ولم يلبث القمبيطور أن أحرق ابن جحاف زعيم الثورة وبعضاً من أعلام بلنسية سنة ٤٨٨ هـ ، ١٠٩٩ م

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ١١٦ - ١١٧ تأليف آنخل بالنثيا تعريب حسين مؤنس . ومما أورده أيضاً بالنثيا أن صوراً من مرثية الوقشي مثبتة بحروف لاتينية في كتاب (تاريخ اسبانيا العام) وقد درسها المستشرق الاسباني خليان ربيرا وحاول أن يقرأها قراءة عربية ، وأثبت أن نصها الذي بين أيدينا إنما هو تحوير لها في اللهجة الأندلسية الدارجة في القرن الخامس عشر الميلادي

القمبيطور [١] حين اجتاحها سنة (٤٨٧ هـ ، ١٠٩٤ م) ولم يتورع عن تدميرها وحرق بعض البارزين من أهلها ومنهم زعيم ثورتها أحمد بن جحاف ، وسجن آخرين . وقد وصف أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد وجوه بلنسية ما حل بها يومذاك فكتب إلى بعض اخوانه [٢] :

« .. فلو رأيت قطر بلنسية ، نظر الله اليه ، وعاد بنوره عليه ، وما صنع الزمان به وبأهليه ، لكنت تندبه وتبكيه . فلقد عبث البلى برسومه ، وعدا على أقماره ونجومه . فلا تسأل عما في نفسي وعن نكدي ويأسي .. »

وقد عانى الشاعر ابن خفاجة من وطأة تلك الأحداث الجائحة في جملة من عانوا وحز في نفسه ما ألم ببلنسية على يد جحافل الاسبان فرثاها بهذه الأبيات [٣] :

عاثت بساحتك العدا يا دار	ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنابك ناظر	طال اعتبارٌ فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها	وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها	« لا أنت أنت ولا الديار ديار »

(١) استولى السيد القمبيطور على بلنسية سنة ٤٨٧ هـ ، ١٠٩٤ م . واستردها العرب من الاسبان سنة ٤٩٥ هـ ، ١١٠٢ م

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث (المخطوط) : ٢٩ ، وقد نقلنا النص من تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ١٨٧ د. احسان عباس

(٣) ديوان ابن خفاجة ٣٥٤ . ويستبعد د. إحسان عباس أن يكون ابن خفاجة قد اكتفى بهذه الأبيات الأربعة في رثاء بلنسية التي كانت في عداد معاهد الشاعر وعهوده وأم وطنه شقر ، ويرجح أن المقطعة جزء من قصيدة ضاع أكثرها . انظر كتابه : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ١٨٧

ثم نزح عن بلنسية والبلدان التابعة لها في شرقي الأندلس كثير من الناس في إبان تلك المحنة ، وفيهم الشاعر ابن خفاجة الذي هاجر إلى عدوة المغرب ، وراح يتطلع بحسرة وحنين إلى موطنه في جزيرة شقر :

فيا ليت شعري هل لدهري عطفة ... فتجمعَ أوطاري عليَّ وأوطاني
ميادينِ أوطاري ومعهد لذتي ... ومنشأُ تهيامي ، وملعب غزلاني

وبات الشاعر في منفاه بافريقية على مثل الجمر يتلهف على العودة إلى دياره التي خلفها على أسوأ حال :

ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبة ... فأسكن أنفاساً واهدأ مضجعا

وتمر سنون سبع على بلنسية في محنتها ، يستطيع بعدها العرب استردادها بهمة المرابطين وعلى رأسهم ابراهيم بن تاشفين ، فتعم البشرى [1] وتغمر السعادة نفس ابن خفاجة ، فاذا هو يقول بجذل بعد انكشاف الغمة [2] :

الآن سح غمام النصر فانهملا ... وقام صغو عمود الدين [3] فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى ... وكر للنصر عصر قدمضى [4] فخلا
وأقشعِ الكفرُ قسراً عن بلنسية ... فانجاب عنها حجاب كان منسدلا

---

(١) بقيت بلنسية وما حولها في شرقي الأندلس بيد العرب حتى سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م حين هاجمها حاكم أراغون واستخلصها الاسبان آخر الأمر
(٢) ديوان ابن خفاجة ٢٠٨
(٣) سح : سال . الصغو : الميل والانحراف
(٤) خوت النجوم : أمحلت الأنواء ، فلم تمطر . خلا : انقضى

ابن بقي والعز الضائع :

وإزاء انحسار المد العربي يوماً بعد يوم أمام طغيان الفرنجة لم يعد الأمر مقتصراً على ندب مدينة أو بكاء أمير ولكنه غدا حالاً صعبة في مواجهة خطر داهم وتوقع مصير قاتم . وقد أخذ هذا الشعور المتشائم يسري في النفوس منذ القرن السادس الهجري . ففي خلال هذا القرن وما تلاه ظهر شعراء عمدوا إلى رثاء الممالك في شيء من التعميم والشمول من أمثال ابن بقي القرطبي وابن الأبار وابراهيم بن فرقد وأبي البقاء الرندي .

ونحن نتشوف مشاعر اليأس والاستسلام إلى القدر في قول ابن بقي القرطبي *

إلى الله أشكوها نوى أجنبية ... لها من أبيها الدهر شيمةُ ظالم
ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها ... على عربي ضاع بين (1) أعاجم

وهذه لا شك نفثة تنطوي على إحساس حاد بالجائحة الأجنبية التي أخذت تعصف ريحها بالعرب دون هوادة ، وكأن الدهر الظالم غدا يواتيها ويسعفها في بطشها ، ولم يكن بوسع الشاعر سوى أن يبكي في لوعة وأسى مأساة الضياع ، ضياع العربي بين الأعاجم .

---

* هو أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي ، شاعر من أهل قرطبة اشتهر باجادة الموشحات . توفي سنة ٥٤٠ هـ ، ١١٤٥ م . انظر ترجمته في معجم الأدباء ٧ : ٢٨٣ . ووفيات الأعيان ٢ : ٢٣٦ وقلائد العقيان ٢٧٩ والمغرب في حلى المغرب ٢ : ١٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ والأعلام ٩ : ١٨٨

(1) قلائد العقيان ٣٢٣

ابن الابار والمدن الضائعة :

ويعاود الاسبان مهاجمة بلنسية في القرن السابع ويضيقون عليها الحصار بعد أفول نجم الموحدين فيبعث ابن مردنيس الذي استبد بأمر قسم كبير من الأندلس بوفد إلى صاحب افريقية أبي زكريا الحفصي يستنجد به لإنقاذ المدينة ، وكان في عداد هذا الوفد أبو عبد الله بن الأبار الأديب البارز * ، فألقى بين يدي الأمير قصيدة حسنة ، وكان من جراء ذلك أن بعث الحفصي بالمدد المنشود (1) . ومن هذه القصيدة المطولة قوله (2) :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست	فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جُزرا	للحادثات وأمسى جَدها (3) تعسا

* هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر الأبار القضاعي من أهل بلنسية في شرقي الأندلس على البحر الأبيض المتوسط . ولد سنة ٥٩٥ هـ ، ١١٩٩ م وتوفي سنة ٦٥٩ هـ ، ١٢٦٠ م . وهو من أعيان المؤرخين والمؤلفين فضلاً عن قرضه الشعر على قلة . وقد رحل عن مدينته بلنسية حين احتلها الافرنج واستقر بتونس . من كتبه « التكملة لكتاب الصلة » و « الحلة السيراء » و « إعتاب الكتاب » و « الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة » ...

(١) سلمت بلنسية وفك حصارها صلحاً قبل وصول النجدة بقليل سنة ٦٣٦ هـ

(٢) نفح الطيب ٢ : ٥٨٩ للمقري ، أزهار الرياض ٣ : ٢٠٧

(٣) الجزر بالضم : مفردها : جزور بفتح وضم ، أي ما يصلح لأن يذبح من الابل ، ويستوي فيها التذكير والتأنيث . ويمكن أن تلفظ جزراً بفتحتين ، أي ما يصلح لان يذبح من الشاء . ويقال تركوها جزراً للسباع والطير : أي قطعاً

في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود ماتمها عند العدا[1] عرسا

وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور[2] أسى

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ماينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن، حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني[3] أصبحت دُرسا

وأربُعاً غنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشّية وُكسا

كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من[4] أدواحها وعسا

فأين عيش جنيناه بها خَضِرا ... وأين غصن جنيناه بها سلسا

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

وأحي ما طمست فيها العُداة كما ... أحييت من دعوة المهدي ما طُمسا

هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا

وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا

والقصيدة - كما هو جلي - تنطوي على وصف مؤثر لما حل ببعض مدن الأندلس وأهلها على يد الاسبان في تلك الحقبة المضطربة . وقد عمد ابن الأبار خلالها إلى ما اعتاده أكثر من عرفنا من الشعراء في مثل هذا الموضوع

---

(١) إلمام : من ألم أي أصاب ونزل . بائقة : داهية

(٢) حذاراً : من فعل حاذر حذاراً ومحاذرة كقاتل : أي خاف واحترز

(٣) المثاني : الآيات تتلى وتتكرر . وفي القرآن : « الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » . درساً بالضم : مفردها دارس ، أي داثر زائل

(٤) صوح الزرع : يبس . عسا النبات : يبس وقسا

من إبراز التضاد بين وجهي الصورة ، صورة الأمس الزاهية وصورة اليوم القاتمة . وهذا ما استتبع إكثاره من ألفاظ المطابقة في أسلوبه من مثل المأتم والعرس ، والأمان والحذار ، والسرور والأسى ، والإشراك والإيمان ، والابتسام والابتئاس ، والمساجد والبيع ، والأذان والجرس ، وصوح وعسا ، والرجاء واليأس ، والإحياء والقتل ... ولا شك أن هذه الزخرفة قد وجدت هوى في نفس الشاعر الذي كان يميل تبعاً لطبيعة عصره إلى تنميق أسلوبه على هذا النحو . يؤكد ذلك أنه عمد إلى محسنات أخرى لم يتطلبها المضمون ، كمجانسته بين الجزيرة والجزر في مطلع القصيدة ، وينسف وينزف ، والنفس والنفَس ، ومدارس ودرس ، وأربع وربيع ، وحدائق وأحداق ، والمراس والمرس ... فضلاً عن زخارف أخرى في أبيات القصيدة ، كالترصيع في صدري البيتين الثاني والثالث : في كل شارقة ، إلمام بارقة ..، أو : وكل غاربة إجحاف نائبة ... على أن هذه النزعة إلى التزيين لم تذهب برواء القصيدة ، بفضل عذوبة أسلوبها وقوة سبكها ووضوح إيقاعها وجرس قافيتها .

لقد سادت قصيدة ابن الأبار روح الاستنهاض والاستنكار . وأغلب الظن أن الشاعر قد تمكن بفضل براعته وبلاغته أن يحقق الغاية الجليلة التي أوفده أميره إلى أفريقيا من أجلها وأن يبلغ من مشاعر أبي زكريا الحفصي ما أراد بلوغه ، إذ لم يغب عن فطنته الجانب الديني الذي عرف به ممدوحه الورع وفضله في دعم الدعوة المهدية ، وإن ما يطلب منه إنما هو الجهاد المقدس في سبيل دحر الكفر ومحق الشرك لاعلاء كلمة الله ورفع لواء الإسلام.

شاعر واستغاثة :

وأغلب الظن أن سقوط بلنسية وعدد من البلدان [1] في هـذه المرحلة الحرجة من حياة العرب في الأندلس قـد أعقبته صيحات أخرى ، إذ لم تكن قصيدة ابن الأبار يومئـذ النداء الوحيـد . وغدا طبيعياً خلال هذه الحقبة التي تردت فيها الأحوال إلى ذلك الضعف الشديد أن ينفض الأندلسيون أيديهم من كل عون في داخل بلادهم وأن يتطلعوا بعين الأمل والرجاء إلى ما وراء البحر حيث يقبع الأسد الأفريقي ، كما تطلعوا قبل زهاء قرنين من الزمان إلى ابن تاشفين في أيام المعتمد . ولم يكن أحـد آنئذ سوى أبي زكريا الحفصي أيضاً من يستطيع سماع استغاثات الأندلسيين .

وثمـة قصيدة أخرى ولكنهـا لشاعر مجهول وجههـا كذلك إلى الحفصي أمير أفريقية ، وقد قيلت أيضاً في إثر استيلاء الاسبان على بلنسية التي خرجت هذه المرة من يد العرب إلى الأبد [2] :

نادتـك أندلس فلب نـداءهـا	واجعل طواغيت الصليب فداءها
رِش أيها المولى الرحيم جناحهـا	واعقد بأرشية النجاة [3] رشاءها

(١) خرجت بلنسية هـذه المرة من أيدي العرب إلى الأبد ، وكان ذلك سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م حين هاجمها حاكم أراغون (جاقمة) من الشمال واستخلصها الاسبان بذلك بعـد فترة من الحصار ودخلوها صلحاً . ولم يتح لنجـدة الافارقة أن تحقق هدفهـا

(٢) القصيدة مثبتة في كتاب : قصة الادب في الاندلس : الجزء الثاني ٥٦ لمحمد عبـد المنعم خفاجة

(٣) راش الرامي السهم يريشه : أحاطه بالريش ليتزن ويستقيم في انطلاقه . الارشية : الحبال

أشفى على طرف الحياة ذَماؤها | فاستبقِ الدين الحنيف[1] ذماءها
حاشاك أن تُفني حشاشَتَها وقد | قصَرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها | ترجو بيحي المرتضى إحياءها
ايهٍ بلنسيةٌ ، وفي ذكراكِ ما | يَمري الشؤون: دماءها[2] لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد | شب الأعاجم دونها هيجاءها
طاب المعرَّس والمقيل خلالها | وتطلعت غرر المنى[3] أثناءها
بأبي مدارسُ كالطلول دوارس | نسخت نواقيس الصليب نداءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها | وغدت ترجّع نَوحها وبكاءها

وهذه القصيدة - وقد أوردنا بعضها - جميلة ، وقد لا ترقى في قيمتها الفنية إلى منزلة قصيدة ابن الأبار . ومع ذلك فالقصيدتان متشابهتان وتلتقيان في نقاط عديدة ، منها أنهما نظمتا في مناسبة تاريخية واحدة وصدرتا عن حافز شعوري واحد ، وتوجهتا بالنداء إلى رجل واحد . ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة وصيحات الاستنفار قسمة أيضاً بين القصيدتين . غير أن هذه القصيدة قد تزيد عن سابقتها في الحاحها على عنصر الدين وتركيزها على جانب الإسلام . ولا يبعد أن يكون ناظمها واحداً من الفقهاء على مألوف كثير من الشعر المشابه في هذه المناسبات ، من نحو ما مر بنا من شعر قبل حين مما نظمه ابن العسال وسواه .. غير أننا يجب ألا ننسى

---

(١) الذماء : بقية الروح
(٢) مرى يمري الضرع : استدره واعتصره ليستخرج منه اللبن
(٣) المعرس : اسم مكان من عرس يعرس بالتشديد ، أي نزل بالمكان ونصب خيمته فيه . المقيل : اسم مكان من قال يقيل ، إذا استلقى لينام وقت الظهيرة

أيضاً أن شخصية المنقذ أي ابن أبي حفص شخصية دينية ذات منحى عقائدي خاص في أفريقية إلى جانب صفتها السياسية .

على أنه ينبغي الاشارة أيضاً إلى أن التنديد بأصحاب الصليب على هذا النحو لا ينصب في قصده دائماً على الجانب الديني المحض كما ينم على ذلك ظاهر القول ، بل ينطوي في حقيقة الأمر على مفهوم سياسي بالدرجة الأولى . صحيح أننا لا نستطيع إغفال عوامل الصراع الديني بين المسيحية والإسلام ثم ما كان من عداء بين المسلمين في الجنوب والنصارى في الشمال طوال عصور مديدة ، في المشرق والأندلس على حد سواء ، إلا أن حقيقة هذا الصراع ترتكز قبل كل شيء إلى أساس قومي ، فهو لا يخرج في الواقع عن كونه صراعاً بين عرب وبين اسبان . ومن المعروف أن حواضر الأندلس كانت عامرة بالكنائس والبيع في ظل الحكم العربي ، وقد ورد عنها في ذلك أخبار وأشعار وموشحات وأزجال ، حتى إن بعضهم كابن خفاجة طالما حن إلى تلك الكنائس في بلنسية وسائر مدن الأندلس في صدد تشوقه إلى معالم وطنه . ويبدو أن هذه الصورة السمحة كانت تمحق في أيام الحروب والفتن ، حين كان الغزاة بدافع الحقد والتشفي يحطمون كل ما تصادفه أيديهم الآثمة من المقدسات ، مما يثير المشاعر ويفجع النفوس على هذا النحو الذي عبر عنه الشاعر وأمثاله في صدد رثاء الممالك وتصوير الفواجع .

أبو البقاء وصيحة يأس :

وكان أن تعاقبت الأيام السود على العرب وهمتهم في هبوط ونجمهم في

أفول ، فتكاثرت عليهم المحن وتوالت الأرزاء ، وأخذت المدن والقلاع تتهاوى في مطلع كل شمس [1] .

وانحصرت دولة العرب والمسلمين منذ النصف الثاني من القرن السابع في رقعة ضيقة من الأرض في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الايبرية ، حين غدت غرناطة وبعض البلدان القليلة الأخرى البقية الباقية من حواضر العرب في الأندلس .

لقد قدر للشاعر أبي البقاء الرُندي * أن يشهد هذه المأساة ، مأساة انحسار عز العرب عن أكثر ربوع الأندلس واحتضار أمجادهم على ذراعي التاريخ . وإن عدت المراثي في الممالك الزائلة والمدن المنكوبة فرثية الرندي أبعدها شهرة ، وهي تقع في ٤٣ بيتاً غير أن بعضهم استحسنها فيما بعد ، لذيوع أمرها وإيقاع بحرها ورنين قافيتها ، فزاد عليها ما يعادل أو يفوق أصل أبياتها

(١) كان سقوط حواضر الأندلس ومناطقها في أيدي الفرنجة بدءاً من القرن الخامس الهجري على هذا النسق من الزمان وفق التاريخ الهجري : بربشتر ٤٥٦ ، صقلية ٤٦٤ ، طليطلة ٤٧٨ ، بلنسية ٤٨٧ ، شلب ٥٩٣ ، جزيرة ميورقة ٦٢٧ ، البونت ٦٣٣ ، قرطبة ٦٣٣ ، بياسة ٦٣٤ ، بلنسية ٦٣٦ ، شاطبة ودانية ٦٣٨ ، لورقة وقرطاجنة ٦٤٠ ، اشبيلية ٦٤٦ ، مرسية ٦٦٨

وفي آخر الأمر سقطت رندة سنة ٨٩٠ ، مالقة ٨٩٢ ، وادي آش والمرية والمنكب ٨٩٤ ، بسطة ٨٩٥ ، غرناطة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م

* هو صالح بن يزيد بن صالح ... بن شريف الرندي ، وكنيته أبو البقاء ، وفي رأي آخر أبو الطيب . من أعلام القرن السابع الهجري ، أديب شاعر ، ناثر ، عاش في مدينة رنده ، ووفد على بني الأحمر في غرناطة ومدحهم وكان من ألمع من ضمهم بلاط بني الأحمر . ولا تعرف سنة وفاته بدقة ، ويرجح أنها سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م ويعده بعضهم خاتمة أدباء الأندلس

عدداً ، فبلغت مائة بيت ونيفاً [1] :

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته [2] أزمان
وهذه الدار لا تُبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابغة	إذا نبت مشرفيات [3] وخرصان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ما ساسه في الفرس [4] ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد [5] وقحطان

(١) يغلب على الظن أن أكثر من شاعر عمد إلى الزيادة في أبيات القصيدة ، غير أن ما يستفاد من كتاب ريحانة الألبا للشهاب الخفاجي (- ١٠٦٩ هـ) أن ثمة شاعراً اسمه يحيى القرطبي كان قد شهد آخر صفحة من الوجود العربي في الأندلس ، فعمد إلى نظم أبيات على نسق قصيدة الرندي فاختلطت بها . ويقول المقري في أزهار الرياض ١ : ٤٧ - ٤٩ « ومن له أدنى ذوق علم ان ما زيد فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس ، إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب ، فكان بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات »

(٢) دول : متداولة ، دال الزمان بأهله ، انقلب من حال إلى حال

(٣) السابغة : الدرع الفضفاضة . نبا السيف ينبو : ضرب فلم يقطع . الخرصان : مفردها خرص أي الرمح

(٤) شداد هو ابن عاد والذي نصب العماد في مدينة إرم الموغلة في القدم وقد ورد ذكرها في القرآن مع إشادة بعمرانها . ساسان رأس أسرة عريقة حكمت الفرس حقبة من الزمان حتى أطاح بها الفتح العربي في فجر الاسلام

(٥) قارون يضرب به المثل في الثراء ، وقد ورد ذكره في القرآن . عاد : أبو رهط من العرب البائدة منذ القدم في اليمن . وقحطان رأس أجيال العرب العاربة في اليمن أيضا

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضَوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلك كما حكى عن خيال الطيف وسنان
فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سُلوان يهوّنها وما لما حل بالإسلام سُلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أُحُد وانهدّ[1] ثهلان
فأسأل بلنسية ما شأن مُرسية وأين شاطبة بل أين جيان
وأين قرطبة دارُ العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض[2] وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية قد أسلمت ولها بالكفر عُمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

يا راكبين عتاقَ الخيل ضامرةً كأنها في مجال السبق عُقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفةً كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دَعة لهم بأوطانهم عز وسلطان

---

(١) أحد : جبل قريب من المدينة (يثرب) وحدث حوله قتال بين المسلمين وبين المشركين من قريش في فجر الاسلام . ثهلان : جبل في اليمن

(٢) حمص تسمية أطلقها بنو أمية في الأندلس على اشبيلية لشبهها بها ، أو لنزول جند حمص بها ، ويخترقها نهر الوادي الكبير بعد خروجه من قرطبة

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى ، فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتمُ يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيّات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحالَ حالَهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عُبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهمُ من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تُفرق أرواح وأبدان

وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت ... كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... لو كان في القلب إسلام وإيمان

وقصيدة أبي البقاء هذه نالت الشهرة التي تستحقها سواء في القديم أو في الحديث [١] ونسج على منوالها عديدون [٢] برغم أن أبا البقاء نفسه حاك

---

(١) ذكر كراتشكوفسكي في كتابه الشعر العربي في الأندلس ٥٧ وآنخل بالنثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي تعريب حسين مؤنس ١٣٢ أن الشاعر الاسباني خوان فاليرا (١٨٢٤ - ١٩٠٥) ترجم مرثية أبي البقاء إلى الاسبانية ترجمة جميلة ، وجعلها في الوزن الشعري على نسق قصيدة مشابهة لشاعر اسباني قديم اسمه خورخي (جورج) مانريكه (١٤٤٠ - ١٤٧٨)

(٢) أبرز من عارض قصيدة أبي البقاء في العصر الحديث أحمد شوقي في قصيدته التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الرسم أحداث وأزمان

وقد حفزه على ذلك محنة دمشق التي ذكرته بنكبة الأندلس

مطولته هذه على غرار قصيدة أخرى سالفة قد تضارعها في الشهرة وهي التي نظمها أبو الفتح البستي أحد شعراء المشرق في القرن الرابع الهجري ، ومطلعها[1] :

زيادة المرء في دنياه نقصان ‏ ‏ ‏ ‏ وربحه غيرَ محض الخير خسران

وبوسعنا إجمال مزايا مرثية أبي البقاء في أن مطلعها وما تلاه من أوائل أبياتها مجموعة حسنة من أشعار الحكمة . ومع أن هذه الحكم لا تكاد تخرج في جملتها عن فكرة الاعتبار بمن مضى من الدول والملوك في سالف العهود فان الشاعر استطاع أن يلون عباراته على نحو بدت معه الأبيات ، على تشابه مضمونها ، طريفة ومتمايزة ، وقد أعان الشاعر على ذلك تلك اللقطات التي استخلصها من أعماق التاريخ الحافل . وهكذا كانت هذه الحكم خير مدخل مهد الشاعر به لموضوعه ، كما أنه بذلك انتقل من العام إلى الخاص ، أي من رحاب المدى الشامل إلى نطاق الحدث المحدد داخل إطار معلوم من الزمان والمكان . ومن الطبيعي أن يبادر الشاعر بعد ذلك إلى وصف ما دهم الأندلس من شر وبلاء ، وأن يعمد ، على مألوف رثاء الشعراء للمدن والممالك ، إلى ذكر المدن المنكوبة بغزو الفرنجة ، فيعددها واحدة واحدة شأن من يفقد أعزة عليه فيسميهم بأعينهم ويعرب عن فجيعته بهم . وأبو البقاء يحرص حرص أمثاله من الشعراء في هذا الصدد على إبراز التضاد بين ما كانت البلاد عليه وما آلت اليه ، دون

---

(١) أبو الفتح البستي ، علي بن محمد بن الحسين (٣٦٠ - ٤٠٠ هـ) وقد اضطربت نسبة أبيات قصيدته وقصيدة الرندي ، انظر ترجمته وأخبار قصيدته في الأعلام للزركلي ، وطبقات الشافعية للسبكي ٤ ، ويتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٢٠٤ ، والحلل السندسية ٣ ، ٥٤٦ ، والعتبي ١ : ٦٧

أن يوغل في ذلك . ولعل أبرز ما يجدر أن يشار اليه من هذا القبيل تركيزه على ما يتصل بمقدسات المسلمين التي استباحها الاسبان واعتبار ذلك آلم نكبة حلت بالإسلام . أما لجوؤه إلى المبالغة وأحياناً التهويل فأمر يفهمه من أدرك حال الشاعر وما كان فيه هو وقومه من مأساة في تلك الأيام الحالكة .

وفي أواخر القصيدة يعمد أبو البقاء إلى الاستنجاد والاستصراخ في إطار من مشاعر الأسى والمرارة مسربلة بغلالة خفيفة من السخر والتقريع . إنها صرخة استغاثة لأولئك الناعمين بالطمأنينة والراتعين بالدعة وراء البحر ، اولئك الذين يستوون على عتاق الخيل وبين أيديهم قواطع السيوف ويمتلكون البأس والقوة ولكنهم ما زالوا سادرين غافلين ، وكأنما لم يطرق مسامعهم خبر مما يحدث فوق أرض الأندلس الدامية ، على حين بلغت أنباء تلك الأحداث أقاصي الأرض وملأت الدنيا وشغلت الناس . ولكن هيهات ، فالجميع ، ويا للأسف ، قد أصموا آذانهم عن استغاثات أبناء عمومتهم دون أن تتحرك في أحدهم نخوة ولا حمية .

وتبعاً لشدة معاناة أبي البقاء من وطأة العيش في ظل القهر والذل وغلبة المرارة على مشاعره ، لم يعد بوسعه الانفلات من واقعه الأليم الذي تجلى في سابق أبياته . فبعد عبارات اللوم والتقريع لا يلبث أن يعود ثانية إلى وصف مشاهد أخرى مؤثرة مما كان يعانيه العرب والمسلمون في تلك الربوع من أهوال ، والحسرة بادية خلال هذه الأبيات الأخيرة التي تنم على أسى عميق وحزن دفين .

وواضح أن للعاطفة الصادقة شأناً كبيراً بين عناصر القصيدة . ولعل

مرد هذا الحزن الواري في نفس الشاعر أنه شاهد من الأهوال ما شاهد وعانى من الفواجع ما عانى ، ولذلك راح يتحدث من كثب ، ويعبر عن مشاعره بأنفاس محترقة . ينم على ذلك بعض عباراته المؤثرة مثل « ولو رأيت بكاهم عند بيعهم .. » أو وصفه للطفلة التي يقودها العلج .. وهي لا شك صور من واقع المأساة في عصر الشاعر عرضت له في مرحلة من حياته فاختزنها حيناً في نفسه ، ثم انبعثت ثانية في شعره ، محتفظة بأوارها وبحرارة تجربة الشاعر خلالها .

زفرة أخيرة :

وتنفرط من عقد العروبة والإسلام حبة أخرى من الحبات القليلة الباقية بسقوط مدينة رندة [1] ، موطن أبي البقاء .. ولا تلبث حتى تتهاوى بعدها سائر المدن : مالقة ووادي آش ، والمرية وبسطة ... وأخيراً غرناطة ، آخر معقل للعرب في الأندلس .

والآن ، وفي الزمن الأخير تند آخر صيحة من شاعر مجهول [2] :

---

(١) خرجت رندة من حوزة العرب سنة ٨٩٠ هـ ، ١٤٨٥ م

(٢) يذكر محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه قصة الأدب في الأندلس ١ : ١٣٢ - ١٣٨ وفيه النص كاملاً للقصيدة التي تبلغ ١٤٤ بيتاً أن صاحب القصيدة هو من المرية التي سقطت عام ٨٩٤ هـ ، ١٤٨٩ م ، وأن اسمه فيما يرجح جعفر بن خاتمة ، وقد نظمها فيما يبدو بعد جلاء العرب عن جزيرة الأندلس ببضعة أعوام ، أي حوالي سنة ٩٠٥ - ٩١٠ هـ ١٥٠٠ - ١٥٠٥ م ، حين دأب الاسبان على تنصير من تبقى بين ظهرانيهم من المسلمين إبان اشتداد حركة محاكم التفتيش . ويغلب على الظن أن القصيدة في جملة قصائد ونداءات أخرى توجه بها أصحابها آنئذ إلى ←

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كُسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازهها ذات العلا وقصورها

تسلمها حزب الصليب وقادها ... وكانت شَروداً لا يقاد نفورها

فواحسرتا كم من مساجد حُولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها

ووا أسفا ، كم من صوامع أوحِشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها

فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآيانها تشكو الفراق وسورها

وكم طفلةٍ حسناءَ فيها مصونةٍ ... إذا أسفرت يسبي العقولَ سفورها

تميل كغصن البان مالت به الصَّبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها

فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هُتكت بالرغم منها ستورها

وكم من صغير حِيز من حجر أمه ... فأكبادها حراء لفقد مجيرها

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... بليت ولم يلفح فؤادي حَرورها

ويا ليت شعري بعدما صح موتها ... أيرجى على رغم العداة نشورها

و (مالقة) الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استُفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها

وجُزَّت نواصيها وشلت يمينها ... وبُدل بالويل المبين سرورها

وبالله إن جئت (المنكَّب) فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها

وعرج على الإقليم فابك ربوعها ... بسُحب يضاهي المعصرات خريرها

← السلطان العثماني بيازيد الثاني عساه أن يفعل شيئاً تجاه الأندلس . وكان العثمانيون آنئذ في إبان تفتح عهدهم ، حين استطاع زعيمهم محمد الفاتح اقتحام القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية البيزنطية سنة ١٤٥٣ م ، أي قبل خروج العرب من الأندلس بنحو ٤٠ سنة

محل قرار المُلك غرناطة التي ... هي الحضرة العليا زهتها زهورها

فما في العراقين العتيقين مثلها ... ولا في بلاد الله طراً نظيرها

و (بسطة) ذات البسط ماشعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شعورها

على هول بلواها وطول وبالها ... وما كابدت من ذا المصاب نحورها

وما أنس لا أنس المرية إنها ... قتيلة أوجال أزيل عذارها

فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت ... تأججُ من حر الوجيف بحورها

فيا أصدقائي ودِّعوها كريمة ... أو استودعوها من اليه أمورها

منازل آبائي الكرام ومنشئي ... وأول أوطان غذاني خيرها

وأقروا عليها من سلامي تحية ... تجددها آصالها وبكورها

أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا ... وقُضت عرا الإسلام إلا يسيرها

بشقوتنا ، الخذلان صاحَب جمعَنا ... وبؤنا بأحوال ذميم حضورها

بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا أُسْد العلا ونمورها

معاشرَ أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسومَ ظهورها

أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها

ألا وارجعوا يا آل دين محمد ... إلى الله يغفر مااجترحتم غفورها

أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... وردوا ظلامات يبيد نقيرها

ومن كل ما يردي النفوس تطهروا ... فليس يزكي النفس إلا طهورها

ألا واستعدوا للجهاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها

بأسد على جرد من الخيل سُبَّق ... يدعْ الأعادي سبقها وزئيرها

بأنفس صدق موقنات بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
عينُ هدى ، إن تتقوا الله تُنصروا وتحظَوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة تَدين بدين الحق وهو نصيرها

وعلى هذا الغرار من طول النفس توالت أبيات هذه القصيدة التي نسجها صاحبها على منوال نماذج كثيرة غدت مألوفة في أدب هذه المرحلة . إنه يأسى على تلك المدن الجميلة التي خرجت من حوزة العرب إلى الأبد ، فيرثيها الواحدة بعد الأخرى ، مراعياً أزمان سقوطها ، بادئاً برندة ومنتهياً بغرناطة . وكان حريصاً على ما يجدر ذكره في هذا المقام ، من إعراب عن التفجع وتصوير للأهوال ، على نحو يكاد يكون معاداً ، من ذكر المساجد المحولة والصوامع الموحشة ، ومن إيراد لقطات مؤثرة تجاه محنة تلك المدن قوامها الإلحاح على الطفلة الحسناء المصونة التي هتكت استارها ، والصغير الذي انتزع من حجر أمه .. وتتجلى لوعة الشاعر بوجه خاص من خلال رثائه لمدينة المرية التي نستشف من ورائها في نفسه منزلة خاصة ، فهي موطنه وبلده وملعب صباه ومهد ذكرياته ، ولهذا يبثها شوقه وحنينه ويقرئها سلامه ووداعه .

وينتهي الشاعر بصورة منطقية إلى الغاية التي كان يرمي اليها وهي الاستنهاض والحض على الجهاد وإثارة الهمم والعزائم . وهو لا يلجأ إلى تقريع الآخرين بصيغة المخاطبين كما فعل بعض من تقدمه من الشعراء بل يعمد إلى لوم نفسه مع الآخرين في كثير من نقد الذات .

ولعل أبرز ما يميز القصيدة تلك النبرة الدينية العالية التي لا تكاد تفارقها من أولها إلى آخرها . فالإسلام معتقد الشاعر ، وهو متمسك به مفجوع بما

آل اليه ، ولذلك كان هو منطلقـه في أكثر مضمون أبياته . بـل إن مفتاح الفرج في عقيدة الشاعر إنما يكمن في التعلق بأهداب الدين والرجوع إلى الله ، وما أصل بلاء المسلمين في رأيه إلا لأنهم أضاعوا الرب فأضاعهم ، فالله لا يخذل أمة تدين بدين الحق .

ذلك الإلحاح على أهمية العقيدة والايمان في إدراك النصر واسترداد الحق أمر طبيعي في عصر كانت خلاله الحماسة الدينيـة هي العروة الوثقى والرابطـة الأقوى التي تجمع الشمل المبدد والشعث المفرق . على أن ذلك من جهة أخرى قـد أوقع أسلوب الشاعر أحياناً بالنثرية حين كان يقترب في أدائه من عبارات الواعظين الذين يجنحون إلى صيـغ الأمر والنهي مـن نحـو « أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... » كما تردت بعض العبارات إلى حضيض السردية وضحالة التقريرية من مثـل « بعصياننا استولى علينا عدونا » ونحو ذلك .. فضلاً عن أن بعضاً من الأبيات ينوء تحت وطأة النظم من مثل « بشقوتنا الخـذلان صاحب جمعنا ... »

* * *

« كان من الدلائل الواضحة على اضمحلال الأندلس مغادرة الكثيرين من أعلامه إياه إلى غير رجعة . فلم يعـد الأندلسيون يخرجون إلى المشرق لطلب العلم ثم يعودون محملين بذخائر علومه ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، وإنما أصبحوا يبرحون الأندلس بزاد حافل من المعارف الأندلسية وينشرونها في أقطار نائية . وهذا ما وقع لرجال كأبي الحسين بن جبير (وقد عاد إلى الأندلس) والصابوني

والششتري ، ومحيي الدين بن عربي وهو أهم هؤلاء جميعاً [1] »

« وقد لجأ إلى بلاط الحفصيين في تونس نفر من علماء الأندلس وشعرائه مثل حازم القرطاجني * ، صاحب القصيدة المقصورة ، وهي مرثية مشبوبة العاطفة للأندلس تتضمن ذكريات كثيرة عما كان للناس في نواحي مرسية وقرطاجنة من مسرة ومتاع [2] »

ثم قدر لمملكة غرناطة ، آخر معقل من معاقل العرب في الأندلس أن تزول . وكان يوماً أسود ذلك الذي ألقى فيه عليها أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر نظرة الوداع ، وفي النفس حسرة ، وفي القلب لوعة . كانت أمه ترى إلى وجه الحزين وهو يغادر البلاد على راحلته ، على حين أخذت تلال غرناطة التي تحتضن مملكته الزائلة تبتعد عن العيون الدامعة إلى غير رجعة ، وإذ ذاك التفتت اليه بأسى دفين وراحت تتمتم بحسرة بالغة :

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهكذا ، بسقوط الأندلس تدحرجت آخر درة من تاج العرب وانطوى إلى الأبد سِفر أمجادهم في سالف الأيام .

---

(١) انظر تاريخ الفكر الأندلسي ١٣٣ ، لآنخل بالنثيا ، تعريب حسين مؤنس

* هو أبو الحسن حازم بن محمد الأوسي ، ولد في مدينة قرطاجنة بالأندلس سنة ٦٠٨ هـ وتوفي سنة ٦٨٤ هـ . رحل بعد ذلك إلى افريقية واستقر بتونس إثر تساقط المدن في الأندلس . وهو شخصية أدبية كبيرة امتازت بالنقد وقرض الشعر والتأليف

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ١٣٣ لآنخل بالنثيا ، تعريب حسين مؤنس

جـ - ملامح رثاء الممالك

١ - وإذا ما أجملنا خصائص رثاء الممالك في الشعر الأندلسي بدا لنا أن هذا الشعر يتسم بالصدق الشعوري الذي ألهبته حرارة التجربة وشدة المعاناة . وليس أقسى على المرء من تقتيل إخوانه وخراب بلدانه وفقد أوطانه .

٢ - ثم كان أكثر هذا الشعر مغايراً بعض الشيء لغرض الرثاء في معهود أشعار العرب ، فهو نمط طريف يقل فيه الندب والنواح وذرف الدموع ، على حين ينطوي على الأسى الدفين والحزن الهادىء العميق وينم على مشاعر المرارة ومعاني الاعتبار . ومن هنا تطامنت في رثاء الممالك الأندلسية حدة البكاء وحل مكانها جنوح إلى التبصر في شؤون الدنيا وسنة الكون وطبيعة الحياة ، فكان أن غلبت عليه نظرات الفكر وخطرات الذهن ، وتسربل الحزن الواري بغلالة من المعاني والآراء ذات الروح الفلسفية ، بحيث تجلى ذلك كله في شعر الحكمة الذي لازم هذا الغرض الشعري في معظم نماذجه وغدا من أهم خصائص رثاء الممالك في الأدب الأندلسي .

٣ ـ ومن جهة أخرى بوسعنا أن نتبين آصرة شبه وصلة قربى بين رثاء الممالك لدى الأندلسيين وبين شعر الوقوف على الأطلال في قديم قصائد العرب. فالشاعر في الحالين يصف الطلول والخرائب ويحرص على أن يقارن بين سالف العهد المشرق وما حفل به من أيام السعد وأوقات الهناء وبين تجهم الحاضر وإدبار الدنيا وتقلب الدهر، مستدعياً في كثير من الأحيان أحلى الذكريات، متطلعاً إلى أعذب الأمنيات .. كل ذلك بالإضافة إلى ما ينطوي عليه رثاء الممالك من شعور شامل بالفجيعة وإحساس حاد بالمحنة وألم شديد بالمأساة.

٤ ـ وهذا الشعر لا يقتصر على التعبير عن مشاعر الذات بل يتعدى ذلك إلى رصد عواطف الجماعة والتعبير عن ظاهرة الحزن الشامل من خلال النكبات العامة التي كانت تجتاح جموع الناس في تلك العصور الجائشة. وبذلك يبدو رثاء الممالك وثيق الارتباط بالأحداث قوي الدلالة على العصر.

٥ ـ وقد لا يكون المبنى الأسلوبي في هذا الشعر دائماً في ذروة الأداء الفني، ولكنه في أغلب نماذجه كان شعراً جيداً يتسم بتدفق العبارة وحلاوة الجرس وقرب المأخذ. وإذا كان حظ معانيه من الابتكار ضئيلاً وحظ صوره من الابتداع قليلاً وكانت مضامينه في بعض الأحيان مكرورة معادة فان نماذجه في مقابل ذلك كانت مفعمة بأصدق العواطف حافلة بأحر المشاعر.

٦ ـ وينبغي أن نلاحظ أيضاً أن معظم ما قيل من شعر في رثاء الممالك إنما صدر بحكم المرحلة، في عهود متأخرة، أي في عهود الضعف السياسي والركود الأدبي. إذ لم يكن ثمة داع لمعالجة هذا اللون من الشعر في عهد

بني أمية الباهر ، ولا في عهد حكم الطوائف المتألق . وإن معظم ما قيل منه إنما صدر في عهود المرابطين فالموحدين وما تلاها بعد ذلك من فترات الخمود والانحلال .

٧ ـ وإذا نحينا جانباً ما نظمته في هذا الصدد فئة قليلة من الشعراء الكبار من أمثال ابن اللبانة وابن حمديس وابن خفاجة ... وأكثره لم يكن في الصميم من رثاء الممالك وخروجها من أيدي العرب ، فان رثاء الممالك بمفهومه المحدد صدر ـ بحكم العصر المتأخر بالأحداث الفاجعة ـ عن فئة أخرى من الشعراء لم تكن تضارع في منزلتها الشعراء المتقدمين في الأندلس من أمثال ابن حزم وابن هانىء وابن زيدون .. ومع ذلك إذا وضعنا هذا الشعر في إطار العصور الأدبية المعهودة تبين لنا أنه إنما ساد في أعقاب انقضاء عهود الازدهار ومجيء عهود الانحدار . ولدى مقارنة نماذجه بما كان من شعر ذلك العصر ـ عصر الانحدار ـ في المشرق أي منذ أواخر القرن السابع الهجري وما تلاه بعد ذلك من القرون حتى آخر القرن التاسع تبدو لنا هذه النماذج أفضل مما دأب عليه شعراء المشرق ، سواء على صعيد المضمون أو الشكل . فقد كان الشعر المشرقي في تلك الحقبة الموازية للحقبة الأندلسية يدور في معظمه حول موضوعات قليلة الجدوى والغَناء ، وأحياناً تصل إلى حد التفاهة والسخف . كما غدا أسلوبه مثقلاً بالزخارف وينوء تحت وطأة القيود اللفظية والمحسنات البديعية ، حتى ليبلغ ذلك حد التكلف والافتعال ، على حين كان ما نظمه الأندلسيون في غرض رثاء الممالك بارئاً من أكثر هذه الصفات . وقد يكون مرد ذلك إلى أن الشعر الذي يستغرق مشاعر النفس ويكون ترجمان العاطفة

قلما يحفل فيـه صاحبه باظهار فنـه أو يحرص على ابراز براعته أو اقتداره على التلاعب اللفظي والتصرف البديعي ، ومن هنا بدا أسلوب رثاء المالك أكثر استواء وأقرب إلي الطبع وأعلق بالنفس .

*　　*　　*

ومهما يكن من أمر هـذا الشعر ، شعر رثاء المالك ، بما له وما عليـه فانه على أية حال يعد موضوعاً جديداً في الأدب الأندلسي بالرغم من جذوره البعيـدة في شـعر العرب . وهـذا الموضوع اقتضتـه الحياة السياسـية الحاميـة والمضطربة التي أخـذ الأندلسيون يعيشونها بعـد حقبة الاستقرار ، كما اقتضت في الوقت نفسه حياة الأندلس وبيئتها وظروفها نمطاً جديداً آخر من النظم هو فن التوشيح ، ثم ما كان بعـد ذلك من انبثاق شعر الحنين لدى المهجريين في الشعر العربي الحديث أو شعر التمرد والمقاومة المعاصر في أرض العرب المحتلة ... وما ذلك كله في واقع الأمر سوى حصيلة التفاعل الحي الخلاق بـين الأديب وعصره .

وهكذا استطاع الأندلسيون أن يضيفوا إلى أدبنا العربي غرضاً جديداً وأن يشدوا إلى قيثارة الشعر وتراً طريفاً عزفوا عليه حيناً من الزمان ألحانهـم المؤثرة وأنغامهم الشجية .

الموشحات



التوشيح فن أندلسي

التوشيح نمط من أنماط الكلام المنظوم انبثق في الأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي . وقد عرّفه ابن سناء المُلك بصدد كلامه على حد الموشح بقوله : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص ..[1] »

على أن الموشح يختلف عن القصيد من وجوه متعددة . فمن حيث الوزن العروضي تتفق الموشحات المنظومة بالفصحى في معظمها مع الأوزان العربية المعروفة وبحور الشعر التقليدية ، ولكنها قد تخرج في نماذج أخرى عن أوزان الخليل ، وبخاصة إذا كانت منظومة بالعامية أو ما يقرب منها في إيثار التسكين في عباراتها .

كذلك تغاير الموشحات قصائد الشعر بخروجها على مبدأ القافية الواحدة واعتمادها على جملة من القوافي المتناوبة والمتناظرة وفق نسق معين . وهي تختلف عن الشعر من ناحية أخرى في أنها تنطوي في بعض أجزائها ، وبخاصة خاتمتها ، على العبارة العامية دون الفصحى . كما تتصل الموشحات اتصالاً وثيقاً بفن

(١) دار الطراز ٢٥ تحقيق الدكتور جودت الركابي

الموسيقى وطريقـة الغناء في الأندلس . وأغلب الظن أنها كانت تنظم لغرض التلحين وتصاغ على نهج معين لتتسق مع النغم المنشود .

كل ذلك يعني أن الموشح فن أندلسي أصيل ابتدعـه العرب في ظل ظروف اجتماعية خاصة وعوامل بيئية معينة . ولم يعد هناك ما يدعو إلى الشك في هذه المقولة بين الباحثين على الرغم من شذور الآراء التي ترى نسبة هـذا الفن إلى المشارقة . بل إن واقع الأمر أن أهل المشرق كانوا بمثابة تلامذة للأندلسيين في هذا الشأن ، إذ انبهروا بطرافته وعملوا على تقليده والنسج على منواله . وما أورده ابن بسام في ذخيرته وابن خلدون في مقدمته يؤكد هـذه الحقيقة [1] .

وفي ذلك يصف ابن دحية موشحات الأندلسيين بأنهـا « زبـدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق [2] » .

وابن سناء الملك الذي يعد أول من خص الموشح بالبحث والتصنيف من الأقدمين يعزو إلى الأندلسيين فضل ابتداع هـذا الفن ويقول في مستهل كتابه [3] :

« إن الموشحات مما ترك الأول للآخر ، وسبق المتأخر المتقدم ، وأجلب

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ١ ، ومقدمة ابن خلدون ٥٨٣

(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب ١٨٦

(٣) دار الطراز ٢٣ ، تحقيق جودت الركابي

بها أهل المغرب على أهل المشرق [1] ، وغادر بها الشعراء من متردم ... مُلحة الدهر ، وبابـل السحر .. ومعيار الأفهام ، وميزان الأذهان ، ولباب الألباب . تلهي وتطرب ، وتخلب وتجلب .. » ثم يقول : « .. صار بها المغرب مشرقاً لشروقها بأفقه ، وإشراقها في جوه . وصار أهله بها أغنى الناس لظفرهم بالكنز الذي ذخرته لهم الأيام ، وبالمعدن الذي نام عنه الأنام » .

وقـد ذكر المقري في صدد ما أورده من فضائل أهـل الأندلس فعزا اليهـم « اختراعهم للموشحات التي استحسنها أهـل المشرق وصاروا ينزعون منزعهم [2] » .

نشأة الموشحات

على الرغم من أن المشرق كان مهد القصيد وموطن الزجل وأنه كان عامراً بفحول الشعر وأعـلام الخطابة والنـثر فانه لم يشهد منحى جاداً في مجال التجديد يمس فن النظم ويسفر عن مثل فن التوشيح . حقاً ، لقد ظهرت أنماط من هذا القبيل كالمسمطات والمخمسات والمزدوجات ونحو ذلك ، ولكن هـذه الأنماط لم تكن في حقيقتها لتخرج عن فلك الشعر وقواعده السائدة ، كما أنها لم تلق رواجاً وإقبالاً ، ولم يأبه للنظم عليها الأعلام من الشعراء .

وأغلب الظن أن طبيعة الحياة الاجتماعية والأدبية في الشام والعراق وغير ذلك من أمصار العرب لم تكن مواتيـة لحركات التجديد على نحـو حاسم

---

(١) أجلب القوم : اجتمعوا وتألبوا ، والقصد هنا تفوقوا

(٢) نفح الطيب ٢ : ١٢٣ وانظر فن التوشيح ٩٣ لمصطفى عوض الكريم

وجريء . فمن المعروف أن العرب بطبيعتهم كانوا أميل إلى المحافظة على القيم الموروثة ، وبخاصة إذا كان الأمر متصلاً بشعرهم . فالشعر كان لديهم ديوان العرب وصورة وجودهم وعنوان نبوغهم ورمز إبداعهم ومرآة حياتهم . حتى إن عدداً من كبار المؤلفين والنقاد ، وفيهم الجاحظ ، كانوا يذهبون إلى مدى أبعد من ذلك ، حين كانوا يرون أن الله إنما خص العرب بالشعر وحباهم بالفصاحة دون سائر الأمم . أما الشعراء الأقدمون في الجاهلية فكانوا في رأي عامة العرب قمم الإبداع ، وهيهات أن يقاربهم في المنزلة أحد من المتأخرين . كان طبيعياً تبعاً لذلك أن ترتسم حول قصائدهم ومعلقاتهم هالة من الإجلال وأن تعد المثل الذي يحتذى في النظم .

وإذا كان هذا هو حال الشعر عند العرب فمن المستبعد أن يطمح أحد إلى اقتحام ميدان آخر في مضمار النظم أو يحاول تغييراً أو تبديلاً في ذلك النهج الشعري الموروث ، وبخاصة إذا تذكرنا أن طبقة كبيرة من اللغويين والنقاد كانت ذات سلطان على الأدب والنقد ولا تكاد تسمح لأحد من المحدثين أن يشذ عن فلك الأقدمين .

ومن هنا لم تكن السبل إلى التجديد في دائرة الشعر العربي ميسرة في المشرق ، حيث المناخ غير مُوات لنمو تلك البذور إن وجدت ، على حين كان الأمر مغايراً في الأندلس . إذ من الطبيعي أن يرى المرء مزيداً من حرية العمل والحركة كلما أوغل في البعد عن مهده وأرومته إلى ربوع أخرى ، حيث يشعر بانطلاق لم يعهده من قبل ويحس بأن هيمنة التقاليد والعادات الموروثة قد خفت وطأتها .

يضاف إلى ذلك أن ظروفاً اجتماعية وأحوالاً أخرى تتصل بالبيئة والسكان والمناخ قد جدت في الأندلس ، وما كان لفنون القول إلا أن تستجيب لها ، ما دام الأدب مرآة للحياة وينطوي على ملامح الأمة ومنازع المجتمع . ففي القرن الثالث الهجري حدث شيء من الاستقرار في الأندلس ، إذ استتب الأمن في داخل البلاد وسادت الهيبة في خارجها ، فجنح الناس للترف ومالوا إلى اللهو ، فانتشر الغناء وشاعت الموسيقى وعم الطرب . ولم يكن زرياب سوى ظاهرة اجتماعية وموسيقية كان لها أثر في إغناء الحياة في ذلك العصر وتلوين منازعها .

وقد صحب ذلك أيضاً تمازج في السكان ، وتزاوجهم فيما بينهم ، ودخول عناصر كثيرة في دين العرب أو اصطناعهم لعاداتهم ولغتهم . فقوي الاحتكاك بين العنصرين الأساسيين في الأندلس : الاسبان والعرب . وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن عرف سكان الأندلس العامية اللاتينية « الرومانثي [1] » Romance ، كما عرفوا العامية العربية ، أي أنه كان هناك ازدواد لغوي تبعاً للازدواج المنصري .

فالموشحات ظاهرة أدبية ولغوية حملت آثار ذلك الوضع الاجتماعي وكانت حصيلة لعصرها ، فهي برغم صوغها بالفصحى كانت تحرص على العامية السائدة آنئذ في خاتمتها أو ما يسمى في الإصلاح بالخرجة . والموشحات أيضاً ظاهرة موسيقية غنائية حملت طابع عصرها من حيث نمط الأغاني ولون الطرب . وثمة

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ١٤٦ د. أحمد هيكل

من يجنح إلى القول بأن ثمة علاقة « بين الشعر الفرنسي ـ الاسباني القـديم الذي كان ينشده شعراء جنوبي فرانسة المعروفون بشعراء التروبادور Troubadours وبين فن الموشحات »[1] وعلى الرغم من أن هـذا الرأي ما زال يفتقر إلى مزيد من التأييد في مدى هـذا التأثر والتأثير وأنه لا يعدو حـد الافتراض ، لكنه لا يخلو من وجاهة . فالغناء العربي في الأندلس ما زال يطبع حتى اليوم إلى حد غير قليل الأغاني الاسبانية .

ولو تأملنا تطور الأدب في الأندلس ودققنا النظر في مسار الشعر العربي بوجه خاص لرأينا أن هذا الشعر آثر المنحى المحافظ بصورة عامة وبقي متمسكاً بما يمكن أن نطلق عليه طريقة العرب في مقاومة المد الحضاري الجـديد . على حين غدا فن التوشيح هو الوجه الآخر المستحدث في الحياة الأدبية بالأندلس . وهكذا تجلت الازدواجية على صعيد الفكر والأدب والفن وظهرت بوادرها لدى ابن عبد ربه في عقـده الفريد من جهـة وفي شعره وما عزي اليـه من موشحات رائدة من جهة أخرى .

ويرى الدكتور احسان عباس « أن القصيـدة الأندلسية حين سارت في (طريقة العرب) كانت بعثاً للجزالة ، والتـدفق في الأسلوب ، وحين سارت في طريق المحدثين اكتظت بالصور أو انتحلت بعداً فكرياً جديداً ، فآثرت الانسياق في بعض التيارات الفلسفية . وفي كل هذه الأحوال فقدت غير قليل من الغنائية الشفافة الرقيقة . وكان لا بـد من توازن يحفظ التوازي . ولذلك

---

(١) في الأدب الأندلسي ٢٨٥ د. جودت الركابي ، والقول للمستشرق نيكل في كتابه : « الشعر الأندلسي وصلته بشعر التروبادور » ، (نشر بالانكليزية في بلتيمور)

اتسع نطاق الموشح لتتسع الناحية الغنائية . فالموشح بهذا المعنى ثورة على طبيعة القصيدة ، فهو حركة تجديدية ، وهو أيضاً رجعة إلى الغنائية من وجهة أخرى ، أي هو زخرف حضاري ، قد ينطوي على كل مقومات السطحية الجذابة والترف المسترخي » (١) .

وبذلك يغدو فن التوشيح مظهراً عصرياً من مظاهر الأدب في الأندلس يتجلى فيه طابع الحياة الجديدة ومنازعها المستحدثة ومفاهيمها الوافدة . وهو بحق فن شعبي يعكس واقع المجتمع الأندلسي ويخفق في رحاب حياة الناس بعيداً عن صرامة الأدب التقليدي .

أولية الموشح :

إن نشوء الموشحات ، شأنه شأن نشوء أي فن ، لا يبدو واضح الملامح ، فغالباً ما تضيع معالم الخطوات الأولى والمحاولات الرائدة ويعفّي عليها الزمن .

وأغلب الظن أن الصلة الوثيقة بين ظهور الموشح وبين سيادة نوع من الغناء الشعبي المنوع القوافي في المجتمع الأندلسي إنما تعني أن بواكير الموشحات عاشت زمناً بين الناس مسموعة لا مقروءة ، ولم يعمد أحد إلى تدوينها . ومن المرجح أن أعلام المؤلفين وأنباه المصنفين لم يبادروا إلى تدوينها لأنهم لم يكونوا ـ فيما يبدو لنا ـ يعدونها من الأدب ، بل يعدونها أدخل في فن الموسيقى والغناء . وآية ذلك أن فن التوشيح يعتمد في أصوله وقواعده على عنصر « الخرجة » ، وكانت هذه في الغالب عامية أو أعجمية . وهذا يؤكد ابتعاد

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢١٦

الموشحات في نشأتها وتطورها عن فلك الأدب الفصيح ، والنظم التقليـدي .
فابن عبد ربه الذي تروي بعض المصادر جنوحه إلى نظم عدد من الموشحات لم يعمد إلى إيراد شيء من ذلك في عقـده الفريد ، على حين أورد لنفسه أشعاراً وفيرة . وكان ابن عبد ربه لدى تأليف كتابه واقعاً تحت تأثير مجاراة المشارقة في فنونهم ومنافستهم في مجالات إبداعهم .

كل هذا يعني أن التوشيح لم يكن معترفاً به على أنه واحـد من فنون القول ، ولذلك عاش حيناً من الزمان بعيداً عن مجال التدوين وظل خلال فترة نشوئه المبكرة يسمع ويتناقل شفاها .

وابن بسام الذي ألف ذخيرته في القرن السادس ، أي بعـد أكثر من قرنين من تأليف ابن عبد ربه لكتابه العقد ما زال ـ على سعيه الحار إلى التحرر من أسر القديم ـ محافظاً على هـذا المنحى الذي درج عليه أدباء الأندلس من عدم تقييد هـذا الفن فيما يؤلفون ، بل إنه يعرب عن ذلك بوضوح قائـلاً : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هـذا الديوان ، إذ أكثرها على غـير أعاريض العرب [1] » . وفحوى ذلك أن ابن بسام لم يفسح في ذخـيرته مجالاً للموشحات ، لأنه لا يعتبرهـا من الشعر الرصـين الجاري على طريقـة العرب ، ولعله لم يشأ أن يعدها أيضاً من قبيل النثر ، وكأنه بذلك نفاها عن حظيرة الأدب أصلاً . وكان هـذا شأن معاصره الفتح بن خاقان الذي سكت عن ذكر الموشحات حتى في صدد ترجمته لبعض من جنح إلى نظمها من نبهاء الشعر والأدب « كابن اللبانة وابن باجة ... كأنما هو لم يعرفها ولم يسمع بها ،

(١) الذخيرة : المجلد الثاني من القسم الأول ٢

وكذلك فعل غيره من كتاب التراجم »[1] وعلى هذا الغرار درج ابن خلكان في تراجم كتابه « وفيات الأعيان » ...

وتشرق شمس القرن السابع وثمة مؤلفون ما زالوا على وقفتهم السلبية تجاه الموشحات وأحجامهم عن تقييدها ، حتى أن عبد الواحد المراكشي يقول بجلاء في كتابه « المعجب » في صدد كلامه على الوشّاح ابن زهر : « .. ولولا أن العادة لم تجر بايراد الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك »[2]

على أن الطوق بدأ يتصدع حول هذا الحظر منذ ذلك الحين بل منذ ما قبله في القرن السادس ، حين جنح بعضهم إلى التأريخ لنبهاء الوشاحين مثل علي بن ابراهيم بن سعد الخير البلنسي (ـ ٥٢٥ هـ) الذي خصص لأعلام هذا الفن كتاباً أسماه « مشاهير الموشحين بالأندلس » . وفي القرن الثامن نجد « ابن خاتمة يتحدث عن الموشح وبعض الوشاحين في كتابه (مزية المرية) . وابن الخطيب يجمع في الموشحات كتاباً يسميه (جيش التوشيح) فيختار فيه لأئمة الوشاحين . وفي ذلك القرن نفسه كتب ابن خلدون في مقدمته فصلاً عن الموشحات ... وأربى المقري على من سبقه حين أورد أمثلة كثيرة من الموشحات في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .. »[3]

وهكذا ، بوسعنا القول أن فن التوشيح ظل عهداً مديداً في منأى عن

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢١٧ د . احسان عباس
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٥٦
(٣) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢١٩ د . احسان عباس

اهتمام مؤرخي الأدب وكتاب التراجم حتى استطاع أن ينتزع الاعتراف به على أنه نمط طريف من ضروب القول وأن يدخل بالتالي حصن الأدب ويشغل حيزاً بارزاً بجانب سائر فنونه .

مخترع الموشح

وتبعاً لغموض بداية الموشحات بات من المتعذر على وجه الدقة معرفة أول صانع لها أو تحديد سنة ظهورها . والأقدمون أنفسهم لم يكن بوسعهم الجزم في ذلك ، فابن بسام يقول : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن حمود القبري الضرير » [1] على حين يقول ابن خلدون : « وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني [2] ، وأخذ عنه أبو عمر أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية » [3] ويذكر الحميدي أن مقدم بن معافى كان من شعراء الخليفة عبد الرحمن الناصر في إبان القرن الرابع [4] .

---

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ١

(٢) سبق عبد الرحمن الناصر في الحكم ، وحكم خلال ٢٧٥ ـ ٣٠٠ ﻫ

(٣) انظر هذه الآراء ومناقشتها بتفصيل فيما ذكره د . جودت الركابي في كتابه : في الأدب الأندلسي ٢٨٦ ـ ٢٩٢ ، و د . مصطفى عوض الكريم في كتابه فن التوشيح ٧٩ ـ ٩٩ ، و د . أحمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ١٤٧ ـ ١٤٨

(٤) جذوة المقتبس ٣٣٣

ويبدو أن محمد بن حمود (أو محمود) الضرير ومقدم بن معافى ، وكلاهما من سكان قرية قبرة في أواخر القرن الثالث لم ينبه لهما شأن عهدئذ . « وأن المحاولات التي قام بها هذا الشاعران وغيرهما ممن لم تصلنا أسماؤهم كانت محاولات ابتدائية ، لهذا كسدت موشحاتهما ولم يروها الناس . ولم تصلنا أيضاً موشحات ابن عبد ربه الذي زعم بعضهم خطأ أنه مخترع الموشح كما يقول الدكتور جودت الركابي الذي يضيف بأنه « كان علينا أن ننتظر مجيء الشاعر عبادة بن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون) المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، ١٠٤٠ م لنرى الموشح قد أصبح فناً قائماً بذاته ، له أسسه وقواعده ، وله أثره وجماله وشعراؤه [١] » .

وفي ذلك يقول ابن بسام : « وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) في ذلك العصر شيخ الصناعة وإمام الجماعة . سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً ، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلا . وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود . فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه [٢] » .

تسمية الموشح

يغلب على الظن أن تسمية الموشح استعيرت من الوشاح [٣] الذي نعرفه

(١) في الأدب الأندلسي ٢٨٩

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ١

(٣) الوشاح بضم الواو وكسرها ، وأيضاً الاشاح بكسر الهمزة

المعاجم بأنه كِرسان من لؤلؤ وجوهر[1] منظومان ، مخالَف بينهما ومعطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح المرأة به . وهو أيضاً سير منسوج من الجلد يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحها[2] . فالموشح اسم مفعول يدل على أن الناظم قد وضع منظومته على شكل الوشاح وجعلها على نسق يراوح بين الأقفال والأغصان . وقد ذكر المحبي أنه سمي بذلك لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح [3] .

وهكذا سمي هذا النمط من النظم بالموشح لما انطوى عليه من ترصيع وتزيين وتناظر وصنعة ، وغدت كلمة موشح أو موشحة مصطلحاً يحمل معنى محدداً لنمط معين من النظم لا يشمل منظومات أخرى مشابهة قد تتعدد فيها القوافي من مسمطات ومخمسات ونحوها .

بناء الموشح

الموشحة في الأصل منظومة غنائية لا تسير في موسيقاها على النهج العروضي التقليدي الذي يلتزم وحدة الوزن ورتابة القافية . وإنما تبنى على نهج جديد متحرر نوعاً ، بحيث يتغير الوزن وتتنوع القوافي ، مع الحرص على التزام التقابل في الأجزاء المتماثلة . وهكذا غدا للموشح أصول وقواعد تتبع وتراعى في نظمه .

---

(١) الكرس : القلادة والوشاح ونحوهما والجمع اكراس

(٢) انظر فن التوشيح ١٨ - ١٩ لمصطفى عوض الكريم

(٣) خلاصة الأثر ١ : ١٠٨

وعلى كثرة الوشاحين في الأندلس ونبوغهم في هذا الفن فانهم « لم يبينوا لنا بصورة واضحة قواعد الموشح وإن كنا نرى ، هنا وهناك ، في كتب الشعر والتراجم التي تتحدث عن الأندلسيين ، بعض الإشارات إلى أصول هذا الفن . ولعل ابن سناء المُلْك أول من قام بهذه المهمة في المشرق *، فحاول في كتابه « دار الطراز في عمل الموشحات » أن يحدد قواعد هذا الفن الشعري ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه ، فكان بذلك الشاعر الأول المنظم لقواعد الموشح في المشرق كما في المغرب [1] » .

وتتألف بنية الموشح من عناصر عديدة كالوزن والقافية والقفل والبيت والغصن والخرجة ..

الوزن : بادر ابن سناء الملك في مستهل كتابه « دار الطراز » إلى تعريف الموشح بأنه « كلام منظوم على وزن مخصوص [2] » . وبوسعنا أن نلاحظ قصور هذا التعريف لعدم قدرته على تحديد خصائص الموشح ، فقد يشمل أي نمط من النظم يغاير نهج القصيد . ومع ذلك كان أهم ما حرص

* هو أبو القاسم ، هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد ، والمعروف بابن سناء الملك . شاعر مصري ولد في القاهرة أو في ضواحيها سنة ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م ، ونشأ وافر السعادة في أسرة غنية ، تتلمذ على كبار شيوخ مصر وكان صديقاً للكاتب القاضي الفاضل . برع في الشعر ثم جنح إلى نظم الموشحات محتذياً أعلام الوشاحين في الأندلس . وكان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي . توفي ٦٠٨ هـ ١٢١١ م

(١) دار الطراز ، المقدمة ١٣ ، الدكتور جودت الركابي

(٢) دار الطراز في عمل الموشحات ٢٥ ، تحقيق د . جودت الركابي

عليه ابن سناء المُلْك في تعريفه أنه جعل عنصر الوزن هو الحد المميز بين فني النظم المعهودين : الشعر والتوشيح .

ثم مضى ابن سناء يقول : « والموشحات تنقسم قسمين : الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها [1] » . ومن قبل ذكر ابن بسام في الذخيرة بصدد كلامه على الموشحات أن « أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب [2] »

أ ـ وفي رأي ابن سيناء أن ما جاء من الموشحات على بحور الشعر المعروفة « فهو المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف ويتشبع بما لا يملك » . ثم يمثل لذلك بمطلع إحدى الموشحات :

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لمم ؟

ويعقب ابن سناء بقوله : « هذا من المديد » ، ثم يورد مطلع موشحة أخرى لابن زهر :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ويقول : « فهذا من الرمل .. » .

وأكثر الوشاحين يحرصون على إظهار استقلال فن التوشيح وتميزه عن فن القصيد ، ولهذا كانوا يعمدون في غالب الأحيان إلى اخراج موشحاتهم عن

(١) دار الطراز ٣٣ ـ ٣٥

(٢) الذخيرة ، المجلد الثاني من القسم الأول ٢

العروض التقليدي بأن يحوروا في فقراته بادخال حركة أو كلمة عليه حتى ينفوا عن أنفسهم وصمة تقليد الشعراء وسمة المحافظة أو التبعية للأنماط القديمة ، والبقاء في فلك الشعر الموروث . من ذلك مثلاً قول الوشاح أبي بكر بن بقي :[1]

صبرت ، والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

فهذا من المنسرح ، وأجه منه قوله « معذبي كفاني » . ويقول وشّاح آخر :

يا ويح صب إلى البرق له نظر وفي البكاء مع الورق له وطر

فهذا من البسيط ، لكن التزام حركة الخفض في (البرق والورق) باعتبارهما قافيتين ينبغي التوقف عندهما في اللفظ يجعل كلا من المقطعين خارج البحر البسيط ، كما يجعل عبارتي (له نظر ، له وطر) على تفعيلة أخرى مغايرة لسائر إيقاع البيت .

ب ـ وثمة نوع آخر من الموشحات وهو الذي وصفه ابن سناء الملك بأنه لا مدخل لشيء منه في أوزان العرب ، وعليه نظمت أكثر نماذج الوشاحين في الأندلس ، « فهذا القسم منها هو الكثير ، والجم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط[2] » . ويرى ابن سناء أن هذه الأنماط من الموشحات لا تكاد تعد ولا تحصى ، إذ « مالها عروض إلا التلحين ، ولا ضرب إلا الضرب ، ولا أوتاد إلا الملاوي ، ولا أسباب إلا الأوتار ..

---

(١) انظر ترجمته في الصفحة ٣٠٢ من هذا الكتاب

(٢) دار الطراز ٣٥

وأكثرها مبني على تأليف الأرغن .. [1] » وهـذا يعـني أنه لا ضابط لهـذا النمط من النظم من عروض أو نحوه سوى التلحين ، عن طريق مد الصوت أو قصره ..

كل ذلك يؤكد التلاحم الوثيق بين التوشيح وبـين الغناء ، ويرجح أن الموشحات إنما ظهرت لتلبية دواع فنية تتصل بالألحان والموسيقى . فـلا غرابة أن تنبو هذه الأنماط عن السمع إذا تليت دون إنشاد ، إذ لم تألفهـا أذن ولم يستسغها ذوق . « وما كان من هذا النمط فما يعلم صالحه من فاسده إلا بميزان التلحين ، فان ما يشهـد الذوق بزحافـه بـل بكسره فيجـبر التلحين كسره ، ويشفي سقمه ، ويرده صحيحاً .. [2] » ومثل هذا النمط الذي يعد في ذروة فن التوشيح ما نجده في دار الطراز من موشح ، أوله :

أنت اقـتراحي — لا قرب الله اللواحي
من شاء أن يقول — فإني لست أسـمع
خضعت في هواك — وما كنت لأخضع
حسبي على رضاك — شـفيع لي مشفّع
نشوان صاحِ — بين ارتياع وارتياح

---

(١) اللاوي : المفاتيح تشد بها الأوتار ، ولعلها من لوى الشيء أو النغم يلويه لياً إذا عطفه وثناه ليرن أو يخشن ، ويخفت أو يعلو . والأرغن أو الأرغنون من آلات الطرب الفخمة الصوت ومبدؤهـا قائم على النفخ الهوائي ، وتستعمل في الموسيقى الكنسية . وهي كلمة دخيلة

(٢) دار الطراز ٣٧ ، ابن سناء الملك

وقد حاول المستشرق « هارتمان » في كتابه القيم عن الموشح حصر الأوزان التي بنيت عليها موشحات الأندلسيين فبلغت لديه ١٤٦ وزناً أو بحراً . وقد أرجعها إلى الأوزان العروضية التي اعتمدها الخليل بن أحمد الفراهيدي في بحوره المعروفة . غير أن هذه المحاولة تتسم بالتكلف والافتعال في بعض جوانبها ، فضلاً عن أنها تفتقر إلى الشمول والحصر ، فهناك موشحات تشذ عن الأوزان التي ذكرها هارتمان ولا تخضع لها [1] .

ومع ذلك ، فاننا نجد في محاولة هارتمان ـ بصرف النظر عن مدى توفيقه فيها ـ وضعاً للأمور في نصابها حين اعتبر بحور الشعر العربي أصلاً لأوزان الموشحات . ففي رأي إحسان عباس « أن الخطأ الأكبر الذي أوحى به كل من ابن بسام وابن سناء الملك هو قول القائلين إن بعض الموشحات نظم على أوزان غير عربية » [2] . والحق أننا ينبغي أن نحترز من الإسراف في الاستنتاج ، وليس ما قصد اليه ابن بسام وابن سناء من معنى خروج بعض الموشحات عن النسق العروضي لبحور الخليل أنها غير جارية على التفعيلات العربية « إذ لا يمكن أن تكون إلا كذلك ما دامت معْربة . فاذا كانت في نطاق الكلام المعْرب فهي ذات تفعيلات متناسقة ، سواء استعمل الوشاح عدداً واحداً من التفعيلات أو أعداداً متباينة المقدار . فالايقاع فيها عربي خالص ، ولكنك لا تستطيع أن تقول عن الكثير منها أن هذه الموشحة تنتسب إلى بحر المديد أو إلى مجزوء الرمل أو إلى الكامل المرفل .. فلو أن نظّاماً ذهب

(١) في الأدب الأندلسي ٣٠٢ د. جودت الركابي

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢٢٦

يستخرج عشرات الاوزان ـ ذات الايقاع المتفاوت ـ من أوزان الخليل ، أو يمزج بين تفعيلة وتفعيلة من وزنين مختلفين لما صح لنا أن نقول له إنك خرجت على الوزن العربي ، لأنه ليس للوزن العربي باب مقفل يحول دون استخراج ما يريده الشاعر من أوزان إذا جرى في الاستخراج على قاعدة سليمة [1] » .

على أن البحث أفضى بمصطفى عوض الكريم في دراسته القيمة لفن التوشيح إلى أن جملة هذه « الموشحات تنقسم من حيث الوزن إلى خمسة أقسام : القسم الأول ما كان على وزن شعري تقليدي . والثاني ما أخرجته عن الوزن الخليلي حركة أو كلمة . والثالث ما اشترك فيه أكثر من وزن واحد . والرابع ما له وزن من غير الأوزان الخليلية يدركه السمع عند قراءته . والخامس ما ليس له وزن يدركه السمع عند قراءته ، ولا يوزن إلا بالتلحين ، وذلك بمد حرف وقصر آخر ، وإدغام حرف في حرف ، وغير ذلك من فنون التلحين [2] »

وعلى ذلك ينطوي فن التوشيح على قدر من الحرية في استخدام البحر المنشود في عدة حالات من حالاته ، أي من حيث التمام والجزء والشطر في آن واحد داخل الموشحة الواحدة ، كأن تأتي أشطار على الكامل التام وأخرى على مجزوء الكامل ، أي بتفاوت عدد التفعيلات ، خلافاً لأوزان الشعر التي تلتزم التوازن بين عدد التفعيلات بين شطري البيت وكأنهما كفتا ميزان . على أن بعض الوشاحين لم يكتف بذلك بل جمع في الموشحة الواحدة بين بحرين

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ٢٢٧

(٢) فن التوشيح ٦٩

بحيث يأتي بأشطر على بحر ما ، ثم يعدل عنه في أشطر تالية إلى بحر آخر ، وذلك في حال تنقله من القفل إلى الغصن .. أما الاقفال أو الأغصان فلا بد من التزام وحدة البحر فيما بينها ، بالإضافة إلى وحدة القافية .

شكل الموشح :

إن بناء الموشح على نمط مخصوص اقتضى من الباحثين أن يطلقوا على أجزائه عدداً من الأسماء الاصطلاحية . فالموشح يتركب من وحدتين تتكرران خلاله عدداً من المرات ، الوحدة الأولى وهي بمثابة المطلع ، وتسمى القفل ، والثانية تسمى الغصن .

القفل : وهذا القفل إذا جاء على وزن وقافية فان سائر الأقفال التالية تطابقه في وزنه وقافيته (دون أن تطابقه في كلماته) على نحو يشبه اللازمة التي تتكرر في الأغنية أو الأنشودة . وهذا النسق من الموشحات أي الذي بدأ بالقفل يقال له التام . غير أن الوشاح قد لا يستهل موشحه بالقفل وعندئذ لا يسمى تاماً بل يقال له أقرع ، أي ليس في رأسه شيء .

الغصن : وهو الوحدة الثانية في الموشح ، وتتكرر أيضاً عدداً من المرات ، بحيث تتطابق كذلك فيما بينها بالوزن على حين تتمايز في القوافي .

الدور : ويتألف من اجتماع الوحدتين المتميزتين في الموشح أي من القفل والغصن معاً [١] . وغالباً ما تتفق الأقفال والأغصان في الوزن وإن

(١) ثمة اختلاف بين الباحثين حول هذه التسميات ، فبعضهم يسمي الدور بيتاً . على حين أن ابن سناء في دار الطراز يسمي الغصن بيتاً ، أي أن البيت في الموشح يكون من شطرين أو ثلاثة أو أربعة على حين يقتصر في فن القصيد على شطرين فحسب

اختلفت دائماً في القافية . ولكن قلما اختلف القفل عن الغصن في الوزن داخل الموشح الواحد .

وبوسع الوشاح أن يجعل كلاً من قفله أو غصنه مؤلفاً من عدد من الأجزاء أي الشطور . فالقفل في العادة لا تقل أجزاؤه عن اثنين ولا تزيد عن ثمانية إلا في النادر . ويجوز أن تدون الأقفال أو الأغصان على نسق أفقي أو نسق عمودي .

والموشح النموذجي يتكون من ستة أقفال يتخللها خمسة أغصان . وهذا هو النمط السائد المعروف بالتام ، ولكنه قد ينقص عن ذلك حيناً أو يزيد أحياناً فيغدو مطولاً .

الخرجة : « والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح [1] » . ومع أن المطلع أو القفل الأول ليس عنصراً رئيسياً في الموشح الذي يكون تاماً أو أقرع فانه في غاية الأهمية في خاتمتها ، ويعرف عندئذ بالخرجة . فالخرجة ركن أساسي في الموشح يوليه الوشاحون عناية خاصة . وقد خص ابن سناء عنصر الخرجة باهتمامه ووصفها بقوله [2] :

« والشرط فيها أن تكون حجَّاجية من قبل السخف [3] ، قزمانية من قبل اللحن [4] ، حارة محرقة ، حادة منضجة .. وهي أبزار الموشح ، وملحه

(١) دار الطراز ٣٠ ، ابن سناء الملك

(٢) دار الطراز ٣٠ ـ ٣٣ ، ابن سناء الملك

(٣) نسبة إلى ابن حجاج شاعر ببغداد في القرن الرابع ، وقد عرف بمجونه

(٤) نسبة إلى ابن قزمان أشهر زجالي الأندلس

وسكره ، ومسكه وعنبره .. » .

والخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ، فيستحسن أن تكون عامية أو أعجمية . « فان كانت معْربة الألفاظ على منوال ما تقدمها خرج الموشح من أن يكون موشحاً » . ويجوز التساهل في هـذا الشرط ، في رأي ابن سناء ، في غرض المديح إذا ورد في خرجته ذكر لاسم الممدوح أي في مقام الجد ، أو إذا حققت الخرجة ما يراد منها في الأصل ، كأن تكون « غزلة جـداً ، هزازة سحارة خلابة ، بينها وبـين الصبابة قرابة .. » وبكلمة واحدة ، على الوشاح أن يراعي في خرجته مقتضى الحال وطبيعة المخاطب والموضوع ومـا إلى ذلـك . ولما كانت الخمـرة والطبيعـة والمـرح في جـواء من الطرب والغناء والموسيقى هي المناخ المواتي لانشاد الموشحات غدا من الطبيعي أن تغلب على الخرجة هذه السمات المرحة وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبذل ما يضفي عليها الدعابة والطرافة . وبذلك تكون مسك الختام ، فتـترك أثرهـا في النفوس فتبعث على الرضى وتثير الضحك ، وقـد تستدعي ارتشاف الكؤوس على نغمات العازفين وإيقاع الراقصين .

ومن هنا كانت الخرجة عمدة في الموشح ، « فهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمـة ، بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، لأنهـا التي ينبغي أن يسبق الخاطر اليها . ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيـد بوزن أو قافيـة .. فكيف ما جاءه اللفظ والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً عنـد السمع ، مطبوعاً عند النفس ، حلواً عند الذوق ، تناوله وتنوله ، وعامله وعمله ،

وبنى عليه الوشح . لأنه قد وجد الأساس ، وأمسك الذنب ونصب عليه الرأس [1] . »

فنية الموشح

إن التجديد الحقيقي في فن التوشيح إنما يتجلى في النهج أكثر مما يتجلى في التعبير فطرافته تقوم على هذا التحرر من قسرية الأوزان المألوفة والانعتاق من رتابة القافية المكررة ، مع افتتان في تمدد أشطار الأقفال والأغصان والمراوحة بينها على أنماط معينة .

أما العبارة في الموشح فقد تخلت إلى حد كبير عن جزالتها ، واصطنعت بدلاً من ذلك الرقة . ولهذا غلبت على ألفاظ الموشحات العذوبة والسهولة ، واتسمت عباراتها بالتدفق واليسر . وهذه السمة طبيعية في فن غنائي انبثق من بين الأناشيد والألحان والأغاني والموسيقى . يضاف إلى ذلك أن الموشحات باعتبارها فناً شعبياً إلى حد ما فقد غدت السهولة فيها مطلباً يحرص الوشاحون على تحقيقه ، ما دام القصد منها التلحين والانشاد .

ومن هنا لا يحفل الوشاحون في العادة بالغوص على المعاني ، من مثل ما نألفه في كثير من الشعر ، كما أن موشحاتهم لا تنطوي في الغالب على الأفكار العميقة أو الصور المبتكرة .

وتبعاً لطبيعة الموشحة التي تقوم ـ كما دل عليها اسمها ـ على الزينة فقد حفلت عباراتها بالزخارف وحرص فيها أصحابها على ترصيعها بمختلف المحسنات

(١) دار الطراز ٣٢ ، ابن سناء الملك

من مجانسة ومطابقة وتصريع فضلاً عن التقفية المتنوعة . وهـذا ما جعل فن التوشيح معرضاً للبراعة الأسلوبية التي كثيراً ما بلغت حد التكلف والتلاعب اللفظي .

وهكذا كان شأن الموشحات في ذلك كشأن الآنية المزوقـة الـتي تسر الناظرين بحسن صوغها وجميل صنعها وبراعـة زخارفها ، على حين أنهـا خاوية ، وكأنما قصد بها إلى المتعة الصافية والبهجة الخالصة . إنها أشبه بفن الفسيفساء الملون الذي يعتمد على براعة الرصف ومهارة التنميق ليبتدع أشكالاً طريفة معجبة .

ولقد شاب التوشيح كثير من العيوب ، في طليعتهـا التكلف والافراط في الزخرفـة وتفريـع الأغصان ... فطغى عليه الافتعال وساده التكلف . ولا ريب في أن العصر الذي احتضن الموشح كان عصراً متأخراً في الزمان خـلال القرنين السادس والسابع ، حتى إن كثيراً من الوشاحين إنمـا ظهروا خلال ما يعرف بعهد الانحدار .

ثم مضى هذا الفن في تبسطه وتبذله إلى أن تولد منـه فن الزجل الذي كان له أعلامه والبارعون في نظمه وفي طليعتهم ابن قزمان .

ولئن انطوى فن التوشيح أحياناً على التكلف والتبـذل والهلهلة والعاميـة فعـذره أنه فن شعبي عاش بين الناس ولبي في نفوسهم حاجات غلابة . إنه على أية حال صورة حية لوجه مشرق من وجوه الحياة في الأندلس ، وأن ما فيه ، هو نفسه ما في الحياة ، بروعتها وسخفها ، وجلالها وتبذلها ، وجدها وهزلها .

خاتمة

لم يأخذ فن التوشيح في التألق إلا في عهد الطوائف . ثم عرف عصره الذهبي في عهد المرابطين . وكان للموشح مساره ومنحاه كما كان للشعر مساره أيضاً ومنحاه . وعلى ذلك اختار أصحاب كل فن الطريق الذي سلكوه والمذهب الذي ارتضوه . وهكذا كان هنالك وشاحون كما كان إلى جانبهم شعراء . ويبدو أن الكثيرين من الشعراء كانوا ينظرون أول الأمر باستعلاء إلى الوشاحين ، ولعل بعضهم أخذ يتهيب النظم على نسق الموشح بعد ذلك ، حين أصبح لهذا الفن أعلامه الذين برعوا فيه وتصرفوا في ضروبه . ولعل هذا ما يفسر كون فئة من كبار الشعراء قد أحجمت عن نظم الموشح .

وفي مقابل ذلك كان أكثر الوشاحين بالأندلس قد قصروا جهدهم وعنايتهم على هذا الفن دون أن يأبهوا كثيراً لنظم القصائد . ولعلهم كانوا يتيهون بفنهم الطريف ويرون فيه ظاهرة عصرية تتفق مع منازع الحياة الجديدة وتعكس ملامح البيئة المتميزة ، على حين كانوا من جهة أخرى يرون في فن الشعر ونظم القصيد إرثاً معهوداً وظاهرة غير عصرية .

والحق إنهم قلائل أولئك الذين جمعوا بين الشعر والتوشيح وفي مقدمتهم ابن اللبانة والرمادي وابن بقي وابن سهل .. ولا شك أن هذا الفن قد استهوى المشارقة فراح عدد من شعرائهم ينظم الموشحات على غرار أجمل نماذجها الأندلسية وكان في مقدمتهم ابن سناء الملك وابن نباتة وصفي الدين الحلي .

لقد ارتقى فن التوشيح بفضل مواهب عدد من أعلامه وفي مقدمتهم أبو عبادة بن ماء السماء وعبادة بن القزاز وأبو بكر بن اللبانة والأعمى التطيلي وابن زمرك وابن باجة وأبو بكر بن زهر وابن سهل الاشبيلي وأبو بكر بن بقي ، ومحيي الدين بن عربي ، ولسان الدين بن الخطيب ... وغدت للموشح أغراض وموضوعات كما للشعر . وقد ذكر ابن سناء أن « الموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والزهد ، وما كان منها في الزهد يقال له المكفِّر[1] » .

هذا الفن الطريف الذي استحدثه الأندلسيون يعد أول ثورة مجددة حققها الشعر العربي عبر مسيرته الطويلة المتئدة . ولعل أبرز جوانب هذه الثورة التحرر من رتابة القافية ، والخروج على توازن الشطور ، بل التمرد على العبارة الفصيحة في كثير من الأحيان . كذلك اتسم الموشح بإيثار الإيقاع الخفيف الذي يقرب الهوة بين لغة الشعر المعْربة ولغة الحديث الساكنة باعتماد كثير من نماذجه على تسكين الأواخر[2] .

---

(١) لعل سبب اطلاق المكفر على هذا النمط من الموشح أن صاحبة يرجو أن يكفر فيه عن ذنوبه

(٢) لاحظ ذلك وسواه فيما سنورده من نماذج

وبوسعنا القول إن الوشاحين استطاعوا منذ ذلك اليوم أن يفتحوا باب التجديد على مصراعيه في سبيل تطوير قوالب النظم في لغة العرب ، وبخاصة في مطامح هذا التجديد إلى ارتياد آفاق أرحب في عالم الأدب وتطلعه إلى اقتحام مجالات أخرى من فنون القول كالقصص والملاحم والأدب التمثيلي .. فمثل هذه الفنون ترى في القافية الشعرية الموحدة ما يحد من انطلاقها ويعوق تدفقها .

لقد نظم بعض شعرائنا في الحديث عدداً من الموشحات ونحوها من أشكال النظم المغايرة للقصيد فأبدعوا ، كما فعل أحمد شوقي وخير الدين الزركلي وبشارة الخوري والياس فرحات والشاعر القروي وعمر أبو ريشة ... وتجرأ آخرون فمضوا إلى شوط أبعد مثل نازك الملائكة وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور ومحمد عبد المعطي حجازي ... حين تخطوا وحدة القافية وتوازي الشطور ، مكتفين بوحدة التفعيلة ومعتمدين على موسيقى الشعر الداخلية ، وانطلقوا في ذلك كله من طبيعة الدفقة الشعورية ومداها .

إن آفاق التجديد لا تحد ، وجدير بكل مطلع شمس أن يحمل لنا باشراقه أملاً جديداً ينطوي على مزيد من آيات الإبداع تتألق أبداً على جناح الحرف العربي .

نماذج من الموشحات

ابن زهر *

سلم الأمر للقضا

* * *

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أنفع

واغتنم حين أقبلا وجه بدر تهللا لا تقل بالهموم لا

كل ما فات وانقضى ليس بالحزن يرجع

واصطبح بابنة الكروم من يدي شادن رخيم حين يفتر عن نظيم

فيه برق قد أومضا ورحيق [1] مشعشع

---

* هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الايادي ، ويعرف بابن زهر الحفيد . من نوابغ الطب والأدب في الأندلس . ولد في اشبيلية من أسرة عريقة بالعلم أنجبت عدداً من العلماء الأطباء في طليعتهم أبوه وجده . عاش في عهد المرابطين فالموحدين . وهو طبيب وشاعر ووشاح . عاش خلال (٥٠٧ - ٥٩٥ هـ) (١١١٣ - ١١٩٩ م) وتوفي بمراكش .

(١) رحيق مشعشع : خمر ممزوجة بالماء وما أشبهه

أنا أفـديه من رشـا　أهيف القـد والحشـا　شُقي الحسنَ فانتشى

مـذ تولى وأعرضـا　ففـؤادي يقطـع

من لصب غدا مشوق　ظل في دمعـه غريق　حين اموا حمى العقيق

واستقلوا بذي الغضا　أسـفي يوم ودعـوا

ما ترى حـين أظعنـا　وسرى الركب[1] موهناً　واكتسى الليل بالسنا

نورهم ذا الذي أضـا　أم مع الركب[2] يوشع

شمس قارنت بدرا

* * *

شمس قارنت بـدرا　راحٌ ونـديم

أدر أكؤس الخمر

عنـبريـةَ النشـر

إن الروض ذو بشر

وقـد درَّع النهرا　هبوبُ النسيم

وسلت على الأفـق

يدُ الغرب والشرق

سـيوفاً من الـبرق

(١) موهن : عند منتصف الليل أو نحوه

(٢) يوشع : يوشع بن نون النبي الذي أمر الشمس ألا تغيب عشية الجمعة حتى يستطيع هزيمة الجبابرة بأريحا قبل حلول يوم السبت الذي لا يحارب فيـه اليهود فأطاعته الشمس ، فيما يروى

وقد أضحك الزهرا بكاءُ الغيوم

ألا إن لي مولى

تحكم واستولى

أما أنه لولا

دمع يفضح السرا لكنت كتوم

أنى لي كتمان

ودمعي طوفان

شبت فيه نيران

فمن أبصر الجمرا في لج يعوم

إذ لامني فيه

من رأى تجنيه

شدوت أغنية

لعل له عذرا وأنت تلوم

حي الوجوه الملاحا

* * *

حي الوجوه الملاحا وحي نجل العيون

هل في الهوى من جُناحِ

أو في نديم وراح

رام النصيح صلاحي

وكيف أرجو صلاحا بين الهوى والمجون

أبكى العيون البواكي

تذكار أخت السماك

حتى حمام الأراك

بكى شجوني وناحا على فروع الغصون

ألقى اليها زمامه

صب يداري غرامه

ولا يُطيق اكتتامه

غدا بشوق وراحا ما بين شتى الفنون

يا غائباً لا يغيب

أنت البعيد القريب

كم تشتكيك القلوب

أثخنتهن جراحا فاترك سهام الجفون

يا راحلاً لم يودع

رحلت بالأنس أجمع

والفجر يعطي ويمنع

مرت عيناك الملاحا سَحَرا فما ودعوني

ما للمولـه

* * *

ما للمولـه من سكره لا يُفيق يا له سكران

من غير خمرٍ ما للكئيب المشوق ينـدب الأوطان

* * *

هـل تستعاد أيامنا بالخليـج وليـا لينـــــا

أو يستفـاد من النسيم الأريـج مسك دارنـا

أو هل يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا

روض أظلـَّهْ دوح عليـه أنيق مورق الافنان

والماء يجري وعائـم وغريـق من جنى الريحان

* * *

أو هل أديب يحيي لنا بالغُروس ما كان أحـلى

مع الحبيب وصافيات الكـؤوس فاسقني وامـلا

عيش يطيب ومَـنزه كالعروس عنـدما تُجلى

عيش لعَـلهْ يعـود منـه فريق كالذي قـد كان

أضغاثٌ فكرٍ تحدو بـه وتسوق هـذه الألحان

* * *

يـا صاحبيـا إلى مـتى تعـذلاني أقصِرا شيـًّا
قد مت حيـا والمبتـلى بالغـواني ميـت حيـا
جـنى عليـا عـذب اللمى والمعاني عاطر ريـــا

هلال كِـلـَّهْ غزال أنس يفوق سائر الغزلان
يا ليت شعري هـل لي اليـه طريق أو إلى السلوان

أيها الساقي

* * *

أيهـا الساقي اليـك المشتكى قـد دعـوناك وإن لم تسمع
ونـديمٍ همت في غرته
وبشرب الراح من راحتـه
كلما استيقظ من سكرته
جـذب الزق اليـه واتكـا وسقاني أربعـاً في أربـع
ما لعيني عشيت بالنظر
أنكرت بعـدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

غصن بان مال من حيث استوى

بات من يهواه من فرط الجوى

خفقَ الأحشاء موهون القوى

كلما فكر بالبين بكى ويحه يبكي لما لم يقع

ليس لي صبر ولا لي جلد

يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواي مما أجد

مثل حالي حقه أن يشتكى كمدُ اليأس وذل الطمع

كبدي حرى ودمعي يكف

يعرف الذنب ولا يعترف

أيها المعرض عما أصف

قد نما حبك عندي وزكا لا تقل في الحب إني مدع

ابن اللبانة *

نرجس الأحداق

* * *

في نرجس الأحـداق	وسوسن الأجياد
نبت الهوى مغروس	بـين القنـا الميـاد

* * *

وفي نقـا الكافور	والمنـدل الرطـب
والهـودج المـزرور	بالوشـي والعصْب
قُضْب من البـلور	حُمين بالقضب
أذابت الأشـواق	روحي على أجساد
أعارهـا الطاووس	من ريشه أبراد

* * *

كواعب أتراب	تشابهـت قـدا
عضت على العناب	بالـبرَد الأنـدى
أوصت بي الأوصاب	وأغرت الوجـدا
وأكثر الأحباب	أعـدى من الأعـدا
تفـتر من اعـلاق	لآلىء أفـراد
فيـه اللمى محروس	بألسن الأغماد

* * *

* هو محمـد بن عيسى بن محمد اللخمي ، أبو بكر المعروف بابن اللبانـة أديب أندلسي شاعر وشاح من أهل دانيـــة . كان من كبراء دولة ابن صمادح . وله تصانيف عدة . وقد اتصل بالمعتمد بن عباد وكان وفياً له في محنته بمنفاه وبعد موته . توفي في ميورقة ٥٠٧ ﻫ ، ١١١٣ م

من جوهر الذكرى — عطل نحور الحور
وقلد الدرا — سلالة المنصور
جاوز به البحرا — واخرق حجاب النور
وقل له شعرا — بفضلك المشهور
جمعت في الآفاق — تنافر الأضداد
فأنت ليث الخيس — وأنت بدر الناد

* * *

خرجت مختالاً — أبغي سنا البرق
أقطع اميالا — غرباً إلى شرق
مؤملاً حالا — يكون من وفق
فقال من قالا — وفاء بالصدق
دع قطعك الآفاق — يا أيها المرتاد
واقصد إلى باديس — خير بني حماد

* * *

يا من رجا الظلا — وأمل التعريس
إن شئت أن تحلا — بطائل التأنيس
لا تعتمد إلا — على علا باديس
من فرقه أعلى — قدراً من البرجيس
مواطن الأرزاق — أولئك الأمجاد
فاحطط رحال العيس — وانفض بقايا الزاد

ابن بقي *

عبث الشوق

* * *

عبث الشوق بقلبي فاشتكى　　　ألم الوجد فلبت أدمعي

أيها الناس فؤادي شغِف

وهو من بغي الهوى لا يُنصَف

كم أداريه ودمعي يكف

أيها الشادن من علمكا　　　بسهام اللحظ قتل السبع

بدر تم تحت ليل أغطش

طالعٌ في غصن بان منتشي

أهيف القد بخد أرقش

ساحر الطرف وكم قد فتكا　　　بقلوب دُرِّعت بالأضلع

وانثنى يهتز من سكر الصبا

أي رئم رمته فاجتنبا

كقضيب هزه ريح الصَّبا

---

* انظر ترجمته في الصفحة ٣٠٢ من هذا الكتاب

قلت هب لي يا حبيبي وصلكا واطَّرح أسباب هجري ودَع

قال خدي ، زهره مذ فوّفا

جرد الطرف حساماً مرهفا

حذراً منه بألا يُقطفا

إن من رام جناه هلَكَا فأزل عنك أماني الطمع

ذاب قلبي في هوى ظبي غرير

وجهه في الدَّجن صبح مستنير

وفؤادي بين كفيه أسير

لم أجد في الصبر عنه مسلكا فانتصاري بانسكاب الأدمع

يا ويح صب

* * *

يا ويح صب إلى البرقِ له نظر وفي البكاء مع الوُرْق له وطر

من أجل بعديَ عن صحبي بكيت دما

كم لي هنالك من سرب ووصل دُمى

وعسكرُ الليل في الغرب قد انهزما

والصبح قد فاض في الشرق له نهر وسال من أنجم الأفق دم كَدِر

شوقي أحب بترددادي وإن كثرا

إن المعظم في النادي نوى سفرا

أقول لما حدا الحادي به سَحَرا

أمسك فؤادي بالرفق إذا ابتكروا إني أراه من الخفق سينفطر

بأرض غرناطةٍ بدرُ قد اكتملا

يطيمه النظم والنثر إذا ارتجلا

وبعض حليته الفخر وأي حُلى

كم رامهن من الخلق فاقدَروا هذي حجول من السبق وذي غرر

تروي ذوي الخِمس[1] من خَمس أنامـلهِ

وتُخجل الشمس من شمس فضايـله

يا أحسن الإنس في الأنس لآمالـه

يا لبشر من وجهك الطلق درى البشر أن بنانك بالرزق سينهمر

لما ولمتُ بذكراه وبرَّح بي

كتبت ما الشوقُ أملاه على كتبي

وصحت واحر قلباه من الوصَب

بالبين يا عابد الحق جرى القدر فالشوق عندي لا يبقي ولا يذر

(١) ذوو الخمس : الظماء وأصل الخمس ألا تشرب الابل لمدة خمسة أيام وتسقى في السادس

الأعمى التطيلي *

ضاحك عن جمان

* * *

ضاحك عن جمان	سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان	وحواه صدري

* * *

آه مما أجد	شفني ما أجد
قام بي وقعد	باطش متئد
كلما قلت قد	قال لي أين قد
وانثنى خوط بان	ذا مهز نضر
عابثته يدان	للصبا والقطر

* * *

* هو أبو جعفر بن هريرة ، أبو بكر التطيلي المعروف بالأعمى . وهو شاعر ووشاح مشهور عاش في أوائل القرن السادس الهجري ، وسكن مرسية زمناً . وأخباره قليلة في كتب التراجم . روى المقري أنه حضر جماعة من أعيان الأدباء والوشاحين وفيهم ابن بقي واتفقوا على أن يصنع كل واحد منهم موشحة . فلما أنشد الأعمى موشحته (ضاحك عن جمان) مزق كل منهم موشحته .

ليس لي منك بد — خذ فؤاديَ عن يدْ
لم تَدع لي جلد — غير أنيَ أجهدْ
مكرع من شُهُد — واشتياقيَ يشهد

ما لبنت الدنان — ولذاك الثغر
أين مَحيا الزمان — من حميًّا الخمر

* * *

بي هوى مضمَرُ — ليت جهدي وَفقُهُ
كلما يظهر — ففؤادي أفقه
ذلك المنظر — لا يداوى عشقه

بأبي كيف كان — فلكيْ دُري
راق حتى استبان — عذره وعذري

* * *

هل اليك سبيل — أو إلى أن أيأسا
ذبت إلا قليل — عَبرة أو نفسا
ما عسى أن أقول — ساء ظني بعسى

وانقضى كلُّ شان — وأنا أستشري
خالعًا من عِنان — جزعي وصبري

* * *

ما على من يـلوم لو تناهى عـني

هل سـوى حب ريم ديـنـــه التجـني

أنـا فيـه أهيـم وهـو بي يغـني

قـد رأيتـكْ عيَان ليس عليك سأدري

سايطول الزمان وستنسى ذكـري

ابن سهل *

ظبي الحمى

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله [1] عن مكنس

فهـو في حر ، وخفـق مثل ما لعبت ريـح الصَّبا بالقبس

* * *

يا بـدوراً أشـرقت يوم النوى غرراً تسلك نهـج الغرَر

ما لنفسي في الهوى ذنب سوى منكم الحسنى ، ومن عيني النظر

أجتني الـلذات مكلـوم الجـوى والتـداني من حبيبي بالفكر

* هو ابراهيم بن سهل الاشبيلي الاسرائيلي ، أبو اسحق ، كان يهودياً فأسلم . أصله من اشبيلية ، ثم سكن سبتة بالمغرب الأقصى . وكان مع ابن خلاص والي سبتة في زورق فانقلب بهما فغرقا . عاش خلال (٦٠٥ - ٦٤٩ هـ) ، (١٢٠٨ - ١٢٥١ م) وهو شاعر غزل وكاتب ووشاح ، وله ديوان . وقد قالوا في تعليل رقة غزله أنه اجتمع فيه ذلان ، ذل العشق وذل اليهودية

(١) المكنس : مأوى الظبي ، وحله عن مكنس : أي سكن القلب بدلاً من المكنس

كلما أشكوه وجدي بسما | كالربى بالعارض [1] المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مأتما | وهي من بهجتها في عرس

* * *

غالب لي ، غالب بالتؤدة | بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نضده | أقحوانا عُصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربدة | وفؤادى سكره ما إن يفيق
فاحمُ اللمة [2] معسولُ اللمى | أكحل اللحظ [2] شهي اللعس
وجهه يتلو « الضحى » مبتسما | وهو من إعراضه في « عبس »

* * *

أيها السائل عن جرمي لديه | لي جزاء الذنب ، وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه | مشرقاً للشمس فيه مغرب
ذهب الدمع بأشواقي اليه | وله خد بلحظي مذهَب
ينبت الورد بغرس كلما | لاحظته مقلتي في الخُلس
ليت شعري أي شيء حرَّما | ذلك الورد على المغترس ؟

* * *

كلما أشكو اليه حُرقي | غادرتني مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقي | أثر النمل على صم الصفا
وأنا أشكره فيما بقي | لست ألحاه [3] على ما أتلفا

---

(١) العارض : السحاب ، أي كأن الأرض تبتسم حين تعشب
(٢) اللمة : شعر ما تحت الأذن ، واللمى واللعس سمرة ونضارة في الشفاه
(٣) ألحاه : ألومه

فهـو عنـدي عادل إن ظلما　　　وعـذولي نطقـه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعـدما　　　حـل من نفسـي محـل النفس

* * *

أضـرم الدمـع بأحشائي ضـرام　　　تتلظى كل حـين ما تشـا
وهي في خـديه برد وسـلام　　　وهي ضـر ، وحريـق في الحشا
أتـقي منـه على حـكم الغرام　　　أسـد الغاب ، وأهواه رشـا

قلت ـ لما أن تبـدى معلَما　　　وهـو من ألحاظـه في حرس
ـ أيهـا الآخـذ قلبي مغـنما　　　اجعل الوصـل مكان [1] الخُمس

باكر الى اللذة

* * *

باكر إلى اللذة والاصطباح　　　بشرب راح　　　فما على أهل الهوى من جُناحِ

اغنم زمان الوصل قبـل الذهاب
فالروض قد روّاه دمع السحاب
وقد بدا في الروض سر عُجاب

(١) الخمس بالتسكين نصيب قائد الجيش من الغنائم ، وحركت للشعر

ورد ونسرين وزهر الأقاح كالمسك فاح والطير تشدو باختلاف النواحِ

انهض وباكر للمُدام العتيق

في كأسها تبدو كلون العقيق

بكف ظبي ذي قوام رشيق

مهفهف القامة طاوي الجناح كالبدر لاح عصيت من وجدي عليه[1] اللُّواح

لما رأيت الليل أبدى المشيب

والأنجم الزهر هوت للمغيب

والورق تبدي كل لحن عجيب

ناديت صحبي حين لاح الصباح قولا صراح حي على اللذة والاصطباح

سبحان من أبدع هذا الرشا

قلت له والنار حشو الحشا

جُد لي بوصل يا مليحا[2] نشا

وسلّ من جفنيه بيض الصِّفاح يبغي كفاح فأثخن القلبَ المعنَّى جراح

أصبحت مضنى وفؤادي عليل

في حب من أضحى بوصلي بخيل

كم قلت دع هذا العتاب الطويل

أما تراني قد طرحت السلاح أيَّ اطراح أحلى الهوى ما كان بالافتضاح

---

(١) اللواحي : اللوائم

(٢) نشا : أصلها نشأ مخففة الهمزة

ابن الخطيب *

جادك الغيث

* * *

جادك الغيث إذا الغيث همي ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ... في الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ننقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنى ... مثلما يدعو الحجيجَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر فيه تبسم

---

* هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، المعروف بلسان الدين بن الخطيب . ولد ونشأ بغرناطة واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل ثم ولده من بعده . ثم رحل عن الأندلس إلى تلمسان ، غير أن الذي حكم المغرب بعد حين وهو المستنصر سلم ابن الخطيب إلى صاحب غرناطة الذي لفق له تهمة الزندقة وسلوك مذهب الفلاسفة وأفتى بعض الفقهاء بقتله ثم دخل عليه بعضهم في السجن وخنقوه . وعاش خلال (٧١٣ - ٧٧٦ ه) ، (١٣١٣ - ١٣٧٤ م)

اشتهر بذي الوزارتين : القلم والسيف . وهو مؤرخ أديب ناثر شاعر وشاح ، مؤلفاته تقع في نحو ستين كتاباً ، منها (الاحاطة في اخبار غرناطة) . وعلى اسمه صنف المقري كتابه العظيم (نفح الطيب)

وروى النعمان عن ماء[1] السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلمَا يزدهي منه بأبهى ملبس

* * *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر

حين لذ النوم شيئاً أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

* * *

أي شيء لامرىء قد خلصا فيكون الروض قد مكّن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصى وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما يسرق السمع بأذني فرس

* * *

يا أهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحبُ الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تُعتقوا عبدكُم من كربه

---

(١) النعمان ملك الحيرة ، والمراد هنا شقائق النعمان وهو زهر أحمر بري . ماء السماء : أم المنذر وجدة النعمان ، والمراد هنا المطر . أي أن زهر الشقيق يروي عن أبيه المطر كما يروي مالك عن أبيه أنس

واتقوا الله ، وأحبوا مُغرماً يتلاشى نفساً في نفس
حَبس القلبَ عليكم كرما أفترضون عفاء[1] الحبس

* * *

وبقلبي منكم مقترِب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغربُ شقوةَ المضنى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعيد

أحور المقلة معسول اللمى جال في النفس مجال النفس
سدد السهم فأصمى إذ رمى بفؤادي نَبلة المفترس

* * *

إن يكن جار وخاب الأمل ففؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمَل ممتثل في ضلوع قد براها وقلوب

حكَّم اللحظ به فاحتكما لم يراقب[2] في ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظَلما ويجازي البَر منها والمسي

* * *

(١) الحبس : مفردها حبيس ، وهو في الأصل المال الموقوف في سبيل الله ، ويراد به هنا القلب المحبوس في سبيل الحب
(٢) م يراقب : لم يحاذر الله

ما لقلبي كلما هبت صَبا ... عاده عيد من الشوق جديد
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان في جهد جهيد
كان في اللوح [1] له مكتتبا ... قوله إن عذابي لشديد

لاعج في أضلعي قد أضرما ... فهي نار في هشيم اليبس
لم يدع في مهجتي إلا [2] ذما ... كبقاء الصبح بعد الغلس

* * *

سلمي يا نفس في حكم القضا ... واعمري الوقت برجعى ومتاب
ودعي ذكرى زمان قد مضى ... بين عتبى [3] قد تقضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضى ... ملهم التوفيق في أم [4] الكتاب

الكريم المنتهى والمنتمَى ... أسدِ السرح وبدر المجالس
يُنزَل النصر عليه مثلما ... يُنزَل الوحي بروح القدُس

* * *

مصطفى الله سميّ المصطفى ... الغني بالله عن كل أحد
من إذا عقَد العهدَ وفى ... وإذا ما فتحَ الخطبَ عقَد
من بني قيس بن سعد وكفى ... حيثُ بيت النصر مرفوع العَمد

حيث بيت النصر محميّ الحمى ... وجنى الفضل زكي المغرِس
والهوى ظل ظليل خيما ... والندى هب إلى المغترَس

* * *

---

(١) اللوح : أي اللوح المحفوظ
(٢) الذماء : بقية الروح
(٣) العتبى : الرضى ، وأعتبه أرضاه
(٤) أم الكتاب : سورة الفاتحة ويقصد بها القرآن أو اللوح المحفوظ

هاكها يا سبط أنصار العلى | والذي إن عثر الدهر أقال
غادة ألبسها الحسن مُلا | تبهَر العينَ جلاء وصِقال
عارضت لفظاً ومعنى وحلى | قولَ من أنطقه الحب فقال :

« هل درى ظبي الحمى أن قد حمى | قلب صب حله عن مكنس
فهو في حَر وخفق مثلما | لعبت ريح الصبا بالقبس »

* * *

ابن زمرك *

لو ترجع الأيام

*   *   *

لو ترجع الأيام بعد الذهاب		لم تقدح الأشواق ذكرى حبيب
وكل من نام بليل الشباب		يوقظه الدهر بصبح المشيب

يا راكب العجز ألا نهضة		قد ضيق الدهر عليك المجال
لا تحسبن أن الصبا روضة		تنام فيها تحت فيء الظلال
فالعيش نوم والردى يقظة		والمرء ما بينهما كالخيال

والعمر قد مر كمر السحاب		والملتقى بالله عما قريب
وأنت مخدوع بلمع السراب		تحسبه ماء ولا تستريب

والله ما الكون بما قد حوى		إلا ظلال توهم الغافلا
وعادة الظل إذا ما استوى		تبصره متنقلاً زائلا
إنا إلى الله عبيد الهوى		لم نعرف الحق ولا الباطلا

* هو أبو عبد الله بن يوسف .. الصريحي المعروف بابن زمرك . ولد بغرناطة ثم تدرج في المناصب حتى جعله صاحب غرناطة كاتم سره ووزيره الذي سخط عليه آخر الأمر فأمر بقتله . وكان ابن زمرك قد تسبب في قتل أستاذه وصاحب الفضل عليه لسان الدين بن الخطيب . وهو شاعر ووشاح ، عاش خلال (٧٣٣ ـ ٧٩٣ هـ) (١٣٣٣ ـ ١٣٩٠ م)

فكل من يرجو سوى الله خاب — وإنما الفوز لعبد منيب
يستقبل الرجعى بصدق المتاب — ويرقب الله الشهيد القريب

يا حسرتا مر الصبا وانقضى — وأقبل الشيب يقص الأثر
واخجلتا والرحل قد قوضا — وما بقي في الحبر غير الخبر
وليتني لو كنت فيما مضى — أدخر الزاد لطول السفر

قد حان من ركب التصابي إياب — ورائد الرشد أطال المغيب
يا أكمه القلب بغين[1] الحجاب — كم ذا أناديك فلا تستجيب

هل يحمل الزاد لدار الكريم — والمصطفى الهادي شفيع مطاع
فجاهه ذخر الفقير العديم — وحبه زادي ونعم المتاع
والله سماه الرؤوف الرحيم — فجاره المكفول ما إن يضاع

عسى شفيع الناس يوم الحساب — وملجأ الخلق لدفع الكروب
يلحقني منه قبول مجاب — يشفع لي في موبقات الذنوب

يا مصطفى والخلق رهن العدم — والكون لم يفتق كمام الوجود
مزية أعطيتها في القدم — بها على كل نبي تسود
مولدك المرقوب لما نجم — أنجز للأمة وعد السعود

ناديت لو يسمح لي بالجواب — شهر ربيع : يا ربيع القلوب
أطلعت للهدي بغير احتجاب — شمساً ولكن ما لها غروب

---

(١) الغين مصدر غين بالبناء للمجهول : هو إلباس الشهوة القلب وتغطيتها عليه ، تقول : غين على قلبه أي تغشته الشهوة

ابن عربي *

سرائر الأعيان

*　*　*

سرائر [1] الأعيان	لاحت على الأكوان	للنـــــاظرين
والعاشق الغيران	من ذاك [2] في حران	يبـدي الأنـين

*　*　*

يقول والوجـد	أضناه ، والبعـد	قـد حـيره
لما دنا البعـد	لم أدر مِن بَعـدُ	من غيَّره
وهيَّم [3] العبـد	والواحـد الفـرد	قـد خـيره

* هو محمد بن علي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر ، ولد في مرسية ثم انتقل إلى اشبيلية . وهو من أئمة التكلمين والمتصوفة . قام برحلة إلى بلاد الشام والروم والعراق والحجاز . وأنكر عليه أهل مصر بعض آرائه فعمل بعضهم على إراقة دمه كما أريق دم الحلاج وأشباهه ، فسجن ، ثم سعى بعضهم في إطلاق سراحه فآثر السكن في دمشق إلى أن توفي . وقد عاش خلال (٥٦٠ - ٦٣٨ هـ) ، (١١٦٥ - ١٢٤٠ م) . وهـو شاعر ووشاح ، ومؤلف كثير المصنفات ، وبلغ بها بعضهم نحو ٤٠٠ مصنف أكثرها في التصوف والغيبيات

(١) السرائر جمع سريرة : ما يكتم ، الأعيان جمع عين : الانسان والحقائق المدركة بالعيان

(٢) رملة بالبادية ، أو شدة العطش أو التعطش للاتصال بالله

(٣) هيم : لعله يريد هام أي حيره الحب

في البوح والكتمان والسر والإعلان في العالمين
أما هو الديان يا عابد الأوثان أنت[1] الضنين

* * *

كل الهوى صعب على الذي يشكو ذلّ[2] الحجاب
يا من له قلب لو أنه[3] يذكو عند الشباب
قد قُرّب الرب لكنه إفك فانو المتاب

وناد يا رحمن يا رب يا منان إني حزين
أضنانيَ الهجران ولا حبيبٌ دان ولا معين

* * *

فنيت بالله عما تراه العين من كونه
في موقف الجاهِ وصحت أين الأين في بينه
فقال يا ساهي عاينتَ قط عين بعينه

أما ترى عَيلان وقيس[4] أو من كان في الغابرين
قالوا الهوى سلطان إن حل بالإنسان أفناه دين

* * *

(١) أي عابد الجسد المادي ، الضنين : البخيل بقدرته على قهر نفسه الجامحة
(٢) الحجاب : المادة التي تحول دون الاتصال بالله وادراك الحقيقة المطلقة
(٣) يذكو : يطهر ويطيب ويتقد بالمكابدة
(٤) قيس وعيلان : فرع من قبائل مضر ولا يقصد الشاعر قبيلاً بعينه وإنما يريد الذين ماتوا وغبروا وانصرموا

كم مرةٍ قالا   أنا الذي أهـوى   من هـو أنا ؟
فـلا أرى حالا   ولا أرى شكوى   إلا [1] الفنـا
لست كمن مالا   عن الذي يهوى   بعـد الجنى

ودان بالسلوان   هـذا هـو البهتان   للعـارفـين [2]
سـلوانهمُ ما كان   عن حضرة الرحمن   والآفكـين

* * *

دخلت في بستان   الأنس والقـرب   كمكنِسـهْ [3]
فقام لي الريحان   يختال بالعُجْب   في سـندسه
أنا هـو الإنسان   مطيب الصب   في مجلسـه

جنَّـان يا جنَّان   اجن من البستان   الياسـمين
وحلـل الريحان   بحرمـة [4] الرحمن   للعاشـقين

---

(١) الفناء في إصطلاح المتصوفة هـو المرحلة الأخيرة التي تفنى فيها ذات العبد في ذات الله ويتم الاتحاد بينها كمظهر من وحدة الوجود ، والحال : حالة نفسية المتصوف

(٢) العارفون : اصطلاح صوفي يراد به شيوخ المتصوفة الذين بلغوا معرفة الحقائق اللدنية والكشف الالهي

(٣) المكنس مأوى الظبي ، وهنا القرب من الله والأنس به

(٤) جاء في ترجمة الششتري في نفح الطيب (ج ١ ص ٤٢١) أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور « جنان يا جنان ... » فسأل بعض عن معناه فقال بعض الحاضرين أراد به المذار وقال آخر وإنما أشار إلى دوام العهد لأن الأزهار كلها ينقضي زمانها إلا الريحان فانه دائم فاستحسن الشيخ هذا ووافق عليه . وفي رأي أن الجنان حارس الجنة أو صاحبها ، وأن الريحان تعني تجليات الله أو حلوله

الأندلس

بلاد الغال
جبال البرانس
بسكونية
ناڤار
نهر ابرة
تطيلة
سرقسطة
برشلونة
جليقية
قشتالة
أراغون
وادي الحجارة
مجريط
طرطوشة
نهر التاج
طليطلة
طلبيرة
شنترين
بلنسية
ماردة
بطليوس
نهر الوادي اليانع
شاطبة
دانية
اشبونة
مرسية
بحر الروم
باجة
قرطبة
الزهراء
جيان
بسطة
قرطاجنة
اشبيلية
شلب
نهر الوادي الكبير
غرناطة
رندة
مالقة
المرية
قادس
الجزيرة
بحر الزقاق
بحر الظلمات
جبل طارق
سبتة
طنجة
تطوان
وهران
تلمسان
مليلة
عدوة المغرب
فاس
مؤنس

المصادر *

ابن الأبار ، محمد	التكملة لكتاب الصلة	القاهرة	١٩٥٥
ابراهيم ، زكريا	ابن حزم	القاهرة	١٩٦٦
ادهم ، علي	المعتمد بن عباد	القاهرة	؟
أمين ، أحمد	ظهر الاسلام	القاهرة	١٩٥٣
	قصة الأدب في العالم	القاهرة	٤٥ـ١٩٦٠
الأهواني ، عبد العزيز	الزجل في الأندلس	القاهرة	١٩٥٧
الأوسي ، حكمت علي	فصول في الأدب الأندلسي	بغداد	١٩٧١
بالنثيا ، آنخل	تاريخ الفكر الأندلسي	القاهرة	١٩٥٥
بروفنسال ، ليفي	أدب الأندلس وتاريخها	القاهرة	١٩٥١
	الإسلام في المغرب والأندلس	القاهرة	١٩٥٤
ابن بسام ، علي	الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	القاهرة	٣٩ـ١٩٤٥
البستاني ، بطرس	أدباء العرب	بيروت	١٩٣٧

* لم ندخل باعتبارنا ، في سبيل ترتيب الأعلام ، وجود كلمتي ابن وأبي اللتين تسبقان بعض الأسماء

ابن بشكوال	الصلة في تاريخ أئمة الأندلس	القاهرة	١٩٥٥
البهبيتي ، محمد نجيب	تاريخ الشعر العربي	القاهرة	١٩٥٠
بيلا ، شارل	ابن شهيد	عمان	؟
تامر ، عارف	ابن هانىء الأندلسي	بيروت	١٩٦١
الثعالبي ، عبد الملك	يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر	القاهرة	١٩٥٦
الجارم ، علي	شاعر ملك (المعتمد)	القاهرة	١٩٥٣
جبور ، جبرائيل	ابن عبد ربه وعقده	بيروت	١٩٣٣
الحاجري ، طه	ابن حزم ، صورة أندلسية	القاهرة	؟
الحجي ، عبد الرحمن	أندلسيات	بيروت	١٩٦٩
	الحضارة الإسلامية في الأندلس	بيروت	١٩٦٩
ابن حزم ، علي	طوق الحمامة	القاهرة	١٩٦٧
ابن حمديس ، عبد الجبار	ديوانه ت : احسان عباس	بيروت	١٩٦٠
الحميدي ، محمد	جذوة المقتبس	القاهرة	١٩٥٣
الحميري ، حبيب	البديع في وصف الربيع	الرباط	١٩٤٠
	الروض المعطار	القاهرة	١٩٣٧
ابن خاقان ، الفتح	قلائد العقيان	القاهرة	١٣٢٠هـ
	مطمح الأنفس	القاهرة	١٣٢٥هـ
ابن الخطيب ، لسان الدين	الإحاطة في أخبار غرناطة	القاهرة	١٩٥٥
ابن خفاجة ، ابراهيم	ديوانه	القاهرة	١٩٦٠
خفاجة ، عبد المنعم	قصة الأدب في الأندلس ١ـ٢	بيروت	١٩٦٢

ابن خلدون ، عبد الرحمن	المقدمة	مصر	١٢٨٤هـ
ابن خلكان ، أحمد	وفيات الأعيان	القاهرة	١٩٤٨
ابن خير ، محمد	الفهرست	بغداد	١٩٦٣
الداية ، محمد رضوان	ابن خفاجة	بيروت	١٩٧٢
	تاريخ النقد الأدبي في الأندلس		؟
	مختارات من الشعر الأندلسي	بيروت	١٩٧٠
ابن دحية ، عمر	المطرب من أشعار أهل المغرب	القاهرة	١٩٥٤
ابن دراج ، أحمد	ديوانه ، ت : محمود علي مكي	دمشق	١٩٦١
الركابي ، جودت	في الأدب الأندلسي	القاهرة	١٩٦٠
	الطبيعة في الشعر الأندلسي	دمشق	١٩٧٠
الزركلي ، خير الدين	الأعلام	القاهرة	١٩٥٩
ابن زيدون ، أحمد	ديوانه ، ت : علي عبد العظيم	القاهرة	١٩٥٧
ابن سعيد المغربي	المغرب في حلى المغرب	القاهرة	١٩٥٣
ابن سناء الملك	دار الطراز في عمل الموشحات	دمشق	١٩٤٩
ابن شاكر	فوات الوفيات	القاهرة	١٩٥١
ابن شهيد ، أحمد	ديوانه ، ت : يعقوب زكي	القاهرة	؟
الصوفي ، خالد	تاريخ العرب في الأندلس	بيروت	؟
الضبي ، أحمد	بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس	مدريد	١٨٨٥
ضيف ، أحمد	بلاغة العرب في الأندلس	القاهرة	١٩٣٨
ضيف ، شوقي	ابن زيدون	القاهرة	١٩٥٣

ضيف ، شوقي	الفن ومذاهبه في الشعر العربي	بيروت	١٩٥٦
	في النقد الأدبي	القاهرة	١٩٦٢
ابن عباد ، المعتمد	ديوانه	القاهرة	١٩٦٢
عباس ، احسان	تاريخ الأدب الأندلسي ، سيادة قرطبة	بيروت	١٩٦٩
	» » » الطوائف والمرابطون	بيروت	١٩٧١
ابن عبد ربه ، أحمد	العقد الفريد ، ت أحمد أمين	القاهرة	١٩٦٥
عبد العظيم ، علي	ابن زيدون	القاهرة	١٩٦٧
ابن عذاري المراكشي	البيان المغرب في أخبار المغرب	ليدن	١٨٥١
عنان ، محمد عبد الله	الإحاطة في تاريخ غرناطة	القاهرة	١٩٥٥
	الموشحات والأزجال	القاهرة	١٩٦٥
غوميس ، غارسيا	الشعر الأندلسي	القاهرة	١٩٥٦
كراتشكوفسكي ، أغنات	الشعر العربي في الأندلس	القاهرة	١٩٧١
	دراسات في تاريخ الأدب العربي	موسكو	١٩٦٥
كرد علي ، محمد	غابر الأندلس وحاضرها	القاهرة	١٩٢٣
كيلاني ، كامل	نظرات في تاريخ الأندلس	القاهرة	١٩٢٤
الكريّم ، مصطفى عوض	فن التوشيح	بيروت	١٩٥٩
لين بول ، ستانلي	العرب في اسبانيا	القاهرة	١٩٤٧
المعتمد بن عباد	ديوانه	القاهرة	١٩٦٢
مؤنس ، حسين	فجر الأندلس	القاهرة	١٩٥٩
المراكشي ، عبد الواحد	المعجب في تلخيص أخبار المغرب	القاهرة	١٣٢٤هـ

المقري ، أحمد	نفح الطيب ، ت عبد الحميد	القاهرة	١٩٤٩
	أزهار الرياض	القاهرة	١٩٤٠
ناجي ، منير	ابن هانئ الاندلسي	بيروت	١٩٦٢
نصر ، محمد ابراهيم	ابن سناء الملك	القاهرة	١٩٧١
نوفل ، سيد	شعر الطبيعة في الأدب العربي	القاهرة	١٩٤٥
النويري ، أحمد	نهاية الارب	القاهرة	؟
نيكل ، أ ، لويس	مختارات من الشعر الأندلسي	بيروت	١٩٤٩
ابن هانئ ، محمد	ديوانه	القاهرة	١٩٣٤
هيكل ، أحمد	الأدب الأندلسي	القاهرة	١٩٦٧
ياقوت الحموي	معجم الأدباء ، ت مارغوليوت	القاهرة	١٩٣٨

* * *

المحتوى

الشعر الأندلسي في عهد الطوائف

شعر الطبيعة

رثاء الممالك

الموشحات

نماذج من الموشحات



السعر ١٠ ل.ل